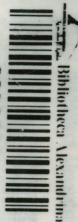


الدكتور
يوسف العش

تاريخ عصر الخلافات العباسية



009252.3



دار الكتب
مكتبة
مصر - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَارِيحُ عَصْرِ
الْخِلاَفَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ

تاريخ عصر الخلافة العباسية/ يوسف العش؛
راجعه ونقحه محمد أبو الفرج العش. - دمشق: دار الفكر،
١٩٩٦. - ٢٩٥ ص؛ ٢٤ سم.
١- ٩٥٦، ١٥ ع ش ت ٢- العنوان ٣- العش ٤- العش
مكتبة الأسد

ع - ٣٧٢ / ١٠ / ١٩٩٦

تَارِيخُ عَصْرِ
الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ

الدكتور
يوسف العش

رابعه ونفحة الدكتور
محمد أبو الفرج العش

دارُ الفكرِ
دمشق - سورية

دارُ الفكرِ المعاصرِ
بيروت - لبنان



الرقم الاصطلاحي: ٠٥٧٥, ٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-318-6

الرقم الموضوعي: ٩٣٠

الموضوع: تاريخ العرب والإسلام

العنوان: تاريخ عصر الخلافة العباسية

التأليف: د. يوسف العش

الصف التصوري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية-دمشق

عدد الصفحات: ٢٩٦ ص

قياس الصفحة: ٢٥×١٧ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع

والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي

والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن

خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧

<http://www.fikr.com/>

E-mail: info @fikr.com

إعادة

١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م

ط ١: ١٩٨٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

لقد خطفت يد المنون عالماً مفكراً قبل أن يعطي نتاج أعماله وتحريّاته وثرات تفكيره ، ذلك هو المرحوم الدكتور يوسف العش . لم ينشر الفقيه إلا جزءاً يسيراً من أعماله العلمية . وفي حدّ علمي أنه جمع معلومات كثيرة من بطون الكتب القديمة ، صنّفها وأعدّها لتكون عناصر أبحاثه ؛ ولكن للأسف قضى قبل أن تخرج هذه الأبحاث إلى النور ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

كان الفقيه - رحمه الله - ألقى محاضرات في تاريخ العهد العباسي على طلاب السنة الثالثة من كلية الشريعة . يبدو أن أحد طلابه جمع هذه المحاضرات وطبعها دون تهذيب ولا تنقيح ولا تصحيح ودون أن يطلع عليها المرحوم .

لقد سجّل الطالب ماسمعه يُلقى بسرعة ، فكان هناك تحريف وتصحيح كبير . جعل الطالب الكلام متصلاً ، فلا عناوين فرعية ، ولا فقرات ، حتى ولا نقط ، ولا فواصل بين الجمل أحياناً . وأتى الضارب على الآلة الكاتبة فأنقص وصحّف ، فأتى العمل في غاية من الغلط والتشويش .

بالرغم مما ذكرت آنفاً فإن المعلومات التي أوردها الفقيه ، والطريقة التي عرض بها الموضوع ، والتأملات التي تتجلى من خلال السطور ، وتحليل

المواقف الدقيقة . . . كل ذلك يدل على أصالة في التفكير عند الفقيد الراحل ، وهو الذي حفزني على قبول هذه المهمة .

رغبت أسرة الفقيد في أن تنشر هذه المحاضرات في هذه السنة بعد مراجعتها ، فعهدت إليّ بالأمر . عندما نظرت إليها ، وجدت أنه من غير الممكن أن تتمّ هذه المراجعة في خلال هذه السنة الدراسية ، لأن هذا الأمر يتطلب تأنيًا ودقة حرصاً على اسم الفقيد العلمي . ولكن يبدو أن هناك دواعي اضطرارية تتطلب إنجاز هذا العمل في هذه السنة ؛ فاضطرت أن أقبل هذه المهمة ، وكانت في غاية الصعوبة ، لأن إنشاء البحث من جديد أسهل من تصحيحه وتنقيحه .

بالرغم من الجهود التي بذلتها في هذا السبيل فقد مرّت علي خطيئات ، تلافيت بعضها في جدول الخطأ والصواب . ولا شكّ أنني سأجد كثيراً غيرها في المراجعات الأخرى . ومع ذلك حاولت أن أرجع دائماً إلى أصول النصوص المقتطفة من المراجع ، ليكون التصحيح مطابقاً لها ، واجتهدت في أن أحافظ على أسلوب المرحوم وعلى ترتيبه ، واكتفيت بتعليقات طفيفة في الهوامش تكمل بعض النقص .

عُنيّت شيئاً ما بإخراج الكتاب ، فوضعت عناوين فرعية وعناوين ثانوية . وضعت أسماء الأعلام بحرف أسود تمييزاً لها ، ووضعت خطوطاً تحت المصطلحات أو النقاط الهامة . أضفت إلى الكتاب فهرس : الأعلام ، المدن ، المصطلحات ، بمساعدة الطالب السيد محمد سميج دعدوش . وألحقت به ثبثاً بالمراجع وجدولاً بالخطأ والصواب . جمّلت الكتاب بشيء من الصور الموضّحة وبمصورّ يبين امتداد العالم العربي الإسلامي في العهد العباسي .

يجب أن أعترف بفضل الإخوان الزملاء الذين يسّروا لي سبيل هذه المراجعة ، وهم أولاً صاحب المطبعة ، الذي صبر على تدقيقي ، ومدير المعهد الفرنسي السيد أندريه ريمون ومعاونوه ، ومدير المكتبة الظاهرية السيد الدكتور عزة حسن ومعاونوه الذين ساعدوني في تهيئة المراجع ؛ والسيد الأستاذ محمد الخولي الذي هيا الخريطة ورسم آلات الجراحة للزهرراوي

وأخيراً أسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يتغمّد الفقيد بالرحمة ، وأرجو أن أكون قد أسهمت إلى حدّ ما في إبراز أثر من آثاره ، وأمل من الزملاء الكرام إرشادي إلى بعض النقاط التي كان يجب أن توضّح بشكل أفضل (على ألا تخرج عن نطاق التدقيق والمراجعة) وإلى الأغلاط التي لم أنتبه إليها أو وقعت أنا فيها . والله من وراء القصد .

٢ / ١٢ / ١٣٨٧ هـ - ٢ / ٣ / ١٩٦٨ م

د . محمد أبو الفرج العش



مصادر تاريخ العهد العباسي

إن مصادر العهد العباسي كثيرة جداً ومتنوعة وغنية بالمعلومات . منها ما هو تاريخي بحت ، ومنها ما هو جغرافي أو أدبي أو ديني تتضمن كثيراً من المعلومات التاريخية الهامة ، اخترنا منها الهام .

نرتب هذه المصادر حسب تسلسل الحروف الهجائية بصرف النظر عن أي تصنيف حتى أننا ندخل ضمن هذا الترتيب المراجع الأجنبية المعربة ونترك المراجع غير المعربة إلى الأخير .

وضعنا إلى جانب المؤرخ القديم تاريخ الوفاة إذا كان معروفاً



ابن أبي أصيبعة (٦٦٨ هـ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء .

ابن الأثير (٦٣٠ هـ) : الكامل في التاريخ .

ابن تغري بردي (أبو المحاسن) (٨٧٤ هـ) : النجوم الزاهرة .

ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك (الأمم)

ابن خلدون (٨٠٦ هـ) : المقدمة - المطبعة الشرفية - مصر ١٣٢٧ هـ

ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر .

ابن خرداذبة (النصف الأول من القرن ٣ هـ) : المسالك والممالك .

- ابن خلكان (٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان .
- ابن الطقطقى (٧١٠ هـ) : كتاب الفخري في الآداب السلطانية - مصر ١٣١٧ هـ .
- ابن عذاري (نحو ٦٩٥ هـ) : البيان المغرب في دول المشرق والمغرب .
- ابن عساكر (٥٧١) : تاريخ دمشق (تهذيب) .
- ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) : عيون الأخبار .
- ابن القفطى (٦٤٦ هـ) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء - الطبعة المصرية
- ابن كثير (٧٥٠ هـ) : البداية والنهاية .
- ابن النديم (٣٨٣ هـ) : الفهرست .
- أبو الفدا (٧٣٢ هـ) : المختصر في أخبار البشر .
- أبو الفدا : تقويم البلدان .
- أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) : الأغاني .
- أبو القاسم خلف الزهراوي (٥٠٠ هـ) : التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوطة في متحف دمشق)
- أبو يوسف (١٨٢ هـ) : كتاب الخراج .
- الإدرسي (الشريف) (٥٦٠ هـ) : نزهة المشتاق .
- الإدرسي (الشريف) : صورة الأرض .

أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام (تعريب الدكتور حسن إبراهيم حسن)

الاصطخري (٣٤٦ هـ) : مسالك الممالك .

أمير علي (سيد) : مختصر تاريخ العرب .

أمين (أحمد) : فجر الإسلام وضحى الإسلام .

بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية (معرّب) .

بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (معرّب) .

البغدادى (الخطيب) (٤٢٦ هـ) : تاريخ بغداد .

البلاذري (٢٧٩ هـ) : فتوح البلدان .

البلاذري : أنساب الأشراف .

البلوي (خالد) : تاج المُفرّق في تحلية علماء المشرق (مخطوطة المكتبة الظاهرية - جغرافية رقم ١٠٨) .

البيروني (٤٤٠ هـ) : الآثار الباقية .

البيهقي (٥٧٠ هـ) : المحاسن والمساوئ .

حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ) : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون

حتّي (فيليب) : تاريخ العرب (المطول) .

د . حسن (حسن إبراهيم) : تاريخ الإسلام .

د . الدوري (عبد العزيز) : تاريخ العراق الاقتصادي .

- د . الدوري (عبد العزيز) : العصر العباسي الأول .
- د . الدوري (عبد العزيز) : دراسات في العصور العباسية المتأخرة .
- الدينوري (أبو حنيفة) (٢٨٢ هـ) : الأخبار الطوال .
- الذهبي (شمس الدين) (٧٤٨ هـ) : تاريخ الإسلام .
- الرفاعي (الدكتور محمد فريد) : عصر المأمون .
- زمباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (تعريب الدكتور زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ورفاقهم) القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٢ .
- السيوطي (٩١١ هـ) : تاريخ الخلفاء .
- شاخت (يوسف) : تاريخ الأندلس .
- الطبري (أبو جعفر) (٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم (الرسل) والملوك - مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٣٩ م (اعتمد عليها المؤلف) .
- الطبري (أبو جعفر) : تاريخ الأمم والملوك - المطبعة الحسينية المصرية (اعتمد عليها المنقح) .
- الغزولي (علي البهائي) (٨١٥ هـ) : مطالع البدور في منازل السرور .
- قدامة بن جعفر (٢٢٧ هـ) : كتاب الخراج وصناعة الكتابة .
- القرطبي (غريب بن سعد) (٣٦٦ هـ) : صلة تاريخ الطبري .
- القفطي (بعض المؤرخين يطلق عليه ابن القفطي) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء .

القلقشندي (أبو العباس أحمد) (٨٢١ هـ) : صبح الأعشى .

كرير : الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية .

الماوردي (٢٩٨ هـ) : كتاب الأحكام السلطانية .

مطبعة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ

متز (آدم) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (تعريب أبو

ريدة) - القاهرة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م .

المسعودي (٣٤٦ هـ) : مروج الذهب .

المسعودي : التنبيه والإشراف .

مصطفى (شاكر) : في التاريخ العباسي .

المقدسي (مطهر بن طاهر) (٣٥٥ هـ) : البدء والتاريخ .

المقدسي (محمد بن أحمد) (٣٨٧ هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة

الأقاليم .

المقريزي (٨٤٥ هـ) : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .

المقريزي (٨٤٥ هـ) : كتاب السلوك .

المقريزي (٨٤٥ هـ) : اتعاط الحنفا .

ناصر خسرو (٤٨١) : سفر نامه (ترجمه إلى الفرنسية عن الفارسية

(Schefer

ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها (تعريب الدكتور يوسف العش)

ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) : إرشاد الأريب في معرفة الأديب .

ياقوت الحموي : معجم البلدان .

اليعقوبي (٢٩٢ هـ) : تاريخ اليعقوبي .

اليعقوبي (٢٩٢ هـ) : كتاب البلدان .

Creswel : Muslim Architecture

Encyclopédie de L' Islam .

Wells : Esquisse de L' Histoire Universelle (Traduction Francaise)

Payot , Paris , 1948



بسم الله الرحمن الرحيم

الثورة العباسية وتقوط بني أمية

نظرة في الانقلاب العباسي

في عام ١٣٢ للهجرة سقط حكم بني أمية سقوطاً نهائياً ، واعتلى الخلافة بنو العباس ، وكان في هذا ثورة هائلة وانقلاب عظيم حاول المؤرخون أن يفسروها ، فاتجهت الآراء أول الأمر إلى أن هذا الانقلاب إنما هو ثورة من الفرس على الحكم العربي ، وأخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين ، ودرّس في المدارس الثانوية ، وانطبع في أذهان الناس ؛ لكن بعض المستشرقين في أوائل هذا القرن وعلى رأسهم ولهاوزن في كتابه « الدولة العربية » انتبهوا إلى أن هذا القول ليس صحيحاً ، فالثورة ليست من الفرس على العرب ، وإنما هي ثورة على بني أمية خاصة ، وهي تهدف إلى قلب الحكم الأموي إلى حكم عباسي ، وتبع المستشرقين في ذلك بعض المؤرخين المحدثين من العرب ، على أن من قال بهذا الرأي توقف أمام صعوبات فيما يتعلق بدحض القول بأن الثورة فارسية ، فأبو مسلم الذي قاد الثورة فارسي ، ومن قبله خدّاش ، وموطن الثورة فارسي أيضاً هو خراسان . وهنالك شيء أهم من ذلك ، وهو أن إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الدعوة العباسية أوصى أبا مسلم وصية قال فيها - على ما رويت لنا في كتب التاريخ - « وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل » . هذه الصعوبات الثلاث حيّرت المؤرخين ،

ولا سيما منها الصعوبة الثالثة ففيها معنى واضح في وجوب^(١) محاربة العرب وقتلهم .

انتقال الدعوة من آل علي إلى آل العباس

نستطيع بعد التفكير وإعمال الرأي أن نفسر الأمور تفسيراً واضحاً ، وأن نجلو الحقيقة جلاء بئناً ؛ فلندع المستشرقين ، ولندع من تبعهم من مؤرخي العرب المحدثين ، ولنفكر تفكيراً جديداً . علينا أن نتصور حقيقة ثورة بني العباس من حوادثها المختلفة ومن سيرها العام . ولنقدم لذلك بمقدمة صغيرة عن انتقال الادعاء بالخلافة من الهاشمية (يعني من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية الذي كان صاحب الدعوة وإمامها عند الكيسانية - والهاشمية) إلى العباسيين أي (محمد بن علي بن عبد الله بن العباس) وذلك عام ٩٨ هـ . يقال في هذا الصدد إن أبا هاشم وجد محمد بن علي على غاية من العلم والفهم والإدراك ، ولم يكن له خلف ، فأوصى إليه بالأمر من بعده ، فانتقلت الدعوة منه إليه . ويورد بعض المؤرخين الشك في هذا الانتقال ، لكننا لا نرى ما يوجب الشك فيه ، فأبو هاشم لا خلف له ، ومن الطبيعي أن يجد خلفاً له في أحد أبناء عمه .

بدء الحركة

هذا العام ٩٨ للهجرة هو عام ذو أهمية كبرى في تاريخ الدولة الأموية وفي تكون نواة الدولة العباسية . وبالرغم من أن محمد بن علي كان على غاية من الذكاء والمعرفة والكفاءة ، فإننا لا نجد له مع الأسف ترجمة واضحة كافية ، تفصح عن هذا المقدار من الذكاء والكفاءة التي وصفناها ، وماذا كان

(١) سيرد بعد قليل توضيح و تعديل لهذه النقطة - المنقح .

يستطيع رجل ذكيقديرأن يعمل في هذا العام ؟ لتتصور ماذا كان بإمكانه أن يفعل .

إن الوضع في الدولة الأموية في ذلك العصر كان يتعثر . وقد حدث في جسم الدولة ثغرات كثيرة . إن من يتأمل ويعمل فكره فيها تتضح له اتضحاً بيّناً . قد ألّبت الدولة الأموية على نفسها أعداء عديدين نعدّ منهم بصفة خاصة أربع طوائف :

(١) قد حاربوا المهالبة وتتبعوهم ، ولا سياً بعد هذا العصر بقليل ، فهم إذن قد جعلوا لأنفسهم أعداء من اليمانيين (فالمهالبة كانوا أزدوين يمانيين) .

(٢) الموالي ، فقد كان هؤلاء يدفعون من الضرائب مقداراً كبيراً ، ولا يعاملون بالتساوي مع العرب ، وكان عليهم ضغط من كل جهة ، فكانوا أعداء الدولة بطبيعة الأمر .

(٣) وكان إلى جانب هاتين الطائفتين عدو قوي للأمويين هو الشيعة ، فالشيعة العلوية - كما نعرف - كانت لا تزال تقوم بين حين وآخر بثورات وكانت ثوراتها تخمد في كل مرة ، فتزداد الكراهية وتشتد العداوة .

(٤) أما الطائفة الرابعة فإنها تكره الأمويين بل تكره الإسلام وهي مجموع الفئات الفارسية التي لم تؤمن إيماناً تاماً ، بل بقي في نفسها شيء من الدين القديم كالراوندية والخرمية والمناوية .

ويظهر ذلك العداء كله بشكل واضح بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ للهجرة ، فيظهر بصفة واضحة لمحمد بن علي مخطط العمل ، ومن هي الفئات التي يجب عليه أن يتحالف معها . إنها بلا شك من هؤلاء الناقين من الحكم الأموي ، إنهم هم أعداء الحكم الأموي ، وليس

عليه إلا أن يؤلبهم حوله ، وأن يتخذهم واسطة فيبلغ هدفه ، وهذا أمر طبيعي بديهي لمن يعمل بالسياسة ولن يتفهم أحوال العصر .

الأقطار المتهيئة لقبول الدعوة

والآن : لننظر في خريطة الدولة الأموية ، ولنر مكان الضعف في هذه الخارطة بالنسبة للأمويين ، إن هذه الخارطة تدلنا على منطقة بعيدة عن مركز الدولة الأموية هي خراسان ، وعلى منطقة في وسط الدولة الأموية هي منطقة الكوفة المشيعة وما حولها ، وعلى منطقة ثالثة هي الحجاز . إن هذه البلاد مناطق ضعف بالنسبة للدولة الأموية ، لا ريب في ذلك ؛ ولكن أيها أسهل منالاً لأعداء تلك الدولة ؟ - إن الحجاز كان مركز الدعوة لآل علي ، فقد كان أبناء فاطمة يقيمون في المدينة فلا يمكن إذاً لمحمد بن علي العباسي أن يتخذ المدينة مقراً له ، فنافسوه فيها أقوىاء لا يستطيع الوقوف إلى جانبهم ولعلمهم يعطلون حركته . أما الكوفة فلا ريب أنها مكان ضعف ، لكنها مراقبة كل المراقبة من قبل العمال الأمويين وحركات الثورة فيها تخمد ، ورجالها يضطهدون . من الممكن أن تقوم فيها دعوة ، لكن ينبغي أن تكون سرية كل السرية وأن لا تتجاوز عدداً كبيراً من الناس وإلا عرفت فقمعت ؛ وعلى ذلك فلا يستقيم فيها دعوة عامة . أضف إلى هذا أن العباسيين يعلمون حق العلم ما هي الكوفة وكيف وقع في حبالل الدعوة فيها عدد كبير من أبناء فاطمة قتلوا ، وذهب دمهم هدرًا . ومحمد بن علي ذكي لا يقع في الفخ مرة أخرى ؛ فكان من الطبيعي أن يتجه نظره إلى خراسان . ماذا كان في خراسان في ذلك العصر ؟ كان في خراسان تشاحن بين العرب (بين الياانيين والقيسيين أو المضريين) ، تكاد لا تنقضي سنة إلا حصلت فيها منازعات ومناوشات . خراسان بلد مضطرب لأنه

قريب أيضاً مما وراء النهر ، والأترارك يشنون غزواتهم على الدولة الإسلامية من حين إلى آخر . وفي خراسان عدد كبير من الفرس والموالي مضطهدون ييغون الحصول على حقهم ؛ وخراسان آخر الأمر بعيدة عن الحكم الأموي ومتطرفة لا تصل إليها يد بني أمية إلا بعد جهد جهيد ، فن البديهي إذاً أن يأخذ محمد بن علي - وهو ذكي - بفكرة صحيحة وهي : أن تقوم الحركة الأولى التي تصدر ضد الأمويين في خراسان بالذات .

وسائل الدعوة

إن محمد بن علي لم يغفل عن الكوفة بالمقدار الذي تتيحه له الدعاية فيها ، فأسس فيها مركزاً للدعوة تنطلق منها خفية إلى خراسان ، وأما هو فكان مقبلاً بالحامية ، وهو بلد مناسب له كل المناسبة . فالحمية تقع على طريق الحج ، وليست قريبة من المدينة ، فهو إذاً بعيد عن نظر آل عليّ وبعيد عن نظر الخلفاء ، وهو في مكان يؤهله أن يتصل بدعائه ، إذ يتدرب هؤلاء بالحج ، فيبرون بهذه الطريقة من مقره ويجمعون به . فهو من الناحية الجغرافية يعتمد على خطة مرتبة دقيقة ذكية .

أضاف إلى كل ذلك وسيلة حسنة من وسائل الاتصال بأن جعل التجار والصناع حلفاء ، يتجولون في المملكة الإسلامية ويتصلون بمن يشاء من الناس ، فيستطيعون أن ينقلوا الدعوة وأن ينقلوا أومرها .

والتجار معظمهم من الفرس ، أما العرب فلم يكونوا يتاجرون كثيراً . تنظم الدعوة إذاً لم يأت عفواً ، ولم يرد محمد بن علي أن يفضل طائفة على طائفة أخرى ، وأن يتحالف مع الفرس في خراسان ومع تجار الفرس ، بل دعاه إلى ذلك الاتجاه ما كانت عليه طبيعة المملكة الإسلامية .

مراحل الدعوة

ننتقل الآن إلى عرض مراحل الدعوة والحوادث الهامة التي حدثت فيها إلى أن تمت الخلافة لبني العباس . يرجع أول ظهور الدعوة إلى عام ١٠٣ للهجرة ففي هذا العام وجّه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس اثني عشر تقيباً إلى خراسان ليقوموا بالدعوة فيها . ومن هؤلاء التقيباء ثمانية من العرب ، وأربعة من غير العرب ، يرتبط بكل تقيب عدد من الدعاة يعمل هؤلاء الدعاة على نشر الدعوة . دون أن يبينوا من هو الذي سيكون إماماً ، وكانوا يحيطون عملهم بالسرية التامة ، ويتصلون بالعناصر المعادية لبني أمية ، ويلهبون حماسها ؛ لكن عمال بني أمية في خراسان استطاعوا أن يضعوا أيديهم على بعض الدعاة فنكّلوا بهم شرّ تنكيل .

وفي عام ١٠٩ هـ أخذت الدعوة شكلاً جديداً ، وذلك حين أرسل محمد بن علي رجلاً قويا متفهما للمحيط الخراساني اسمه خدّاش . نشط هذا الرجل في نشر الفكرة ، وقام بوسع العمل ، وانتعشت بفضل الدعوة العباسية . لكنه أخذ يتصل بأصحاب مبادئ متطرفة كالخرّمية . (الخرّمية^(١) مذهب إباحي) . امتعض الشيعة المعتدلون منه ، وكتبوا إلى محمد بن علي بالأمر ، فاستنكر هذا موقف خدّاش . وفي غضون ذلك استطاع حكام بني أمية أن يلقوا القبض على خدّاش وقتلوه ، وذلك عام ١١٨ للهجرة .

توقفت حركة الدعوة قليلاً حتى عام ١٢٥ . وفيه توفي محمد بن علي ، وانتقل الأمر منه إلى ابنه إبراهيم . منذ ذلك التاريخ أخذت الدعوة شكلاً جديداً ، فإبراهيم عمل على تنظيمها وتقويتها ، وأشرف عليها إشرافاً دقيقاً .

(١) سيرة ذكرها .

لقد أعطى التنظيم هذه الحركة صفتين جديدتين : أولاً : ذكر لدعاته وسمح لهم أن يذكروا بأن البيعة للرضا من أهل البيت ، أي لمن يرضى به الناقمون من أهل بيت الرسول عليه السلام ؛ وهو بيت يضم العباسيين والعلويين . وضع إبراهيم إلى جانب ذلك فكرة تثير حماس الشيعة ، فقال بأن العمل سيتم للثأر لشهداء أهل البيت . وهو بهذا وضع فكرة أو هدفاً لتلك البيعة ، هدفاً يثير روح الانتقام عند التابعين .

أعطى إبراهيم الدعوة فكرة جديدة في انتخابه أباً مسلم الخراساني قائداً عاماً لها في خراسان ، على أنه عهد إليه بأن يستشير سليمان بن كثير الخزازي الذي قام على الدعوة بعد خذّاش ، وطلب إبراهيم من أبي مسلم أن يرجع إلى سليمان بن كثير في رأيه وألا يعمل إلا بمشورته . ويسميه الشيخ .

أبو مسلم كان في ذلك الوقت شاباً ؛ إذاً أراد إبراهيم أن يطعم الدعوة بالشباب فأرسل أباً مسلم . وأراد أن يعضدها بالشيخ ، فعهد إلى أبي مسلم بالرجوع إلى سليمان . كان سليمان بن كثير حذراً لم يسلم لأبي مسلم بالأمر حين وصل إلى خراسان ، وقال إنه شاب يُخشى من قيامه على الأمر ، ولكن أباً مسلم أظهر كفاية ومقدرة . فانسحب مع أصحابه من مرو . وبذا يجد سليمان وغيره من الشيعة أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً كبيراً دون أبي مسلم ، حتى إذا رجع هذا إلى خراسان استتبّت له القيادة ، وتمّ له الأمر فيها ، وأصبح الزعيم الأوحد . وكان ذلك عام ١٢٨ للهجرة .

ميثاق الدعوة

في هذا العام أعلن أبو مسلم صورة الدعوة الآتية :

« أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، والطاعة للرضا

من أهل بيت رسول الله ﷺ ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعقاق والمشي إلى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبدأكم به ولاتكم ، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم » (الطبري ٦ / ٤٥ - ٤٦) .

وظاهر من هذا الميثاق أن الطاعة للولاء واجبة دون سؤال أو استفهام ، ولا ريب أن شكل هذه الدعوة وشكل هذا الميثاق يتفق مع العقلية الفارسية أكثر مما يتفق مع العقلية العربية ، فالفرس معتادون على الطاعة لولايتهم دون سؤال أو استيضاح .

انفجار الثورة

شرع أبو مسلم في تحقيق غايته . فأوقع بين العرب ، وكانت قبائل العرب مختلفة تتقاتل في خراسان ، حتى إذا شعرت بأن أبا مسلم يحاول أن يكون له الأمر في خراسان استطاعت أن تضم شملها ؛ وهنا تبدو مقدرة أبي مسلم فيفترق بينها من جديد ، وذلك بإبراز أسباب خلافها ، فتعود إلى التنازع والتخاصم ، وقد اضطرت في آخر الأمر إلى أن ترجع إليه ليفصل بينها ويستيل صديقا محالفاً له منها . وقد وجد أبو مسلم أن صديقه منها هم البانيون ، فأقر لهم بالحق في خلافهم ، وخرج المضريون وعليهم الكآبة والمذلة . ثم عمد أبو مسلم إلى الاستيلاء على خراسان ، فتم له ذلك ، وتغلب على نصر بن سيار الوالي الأموي في ذلك العهد .

بعد أن تم له الاستيلاء على خراسان تغيرت الأمور وأتت على شكل جديد . لا يذكر المؤرخون ذلك بإشارة خاصة بل يدرجونه بالحوادث ، لكن ينبغي أن نبين قيمة هذا التغيير ، فإبراهيم بن محمد غير القيادة ، فعهد بقيادة الجيش الذي اتجه إلى العراق إلى قحطبة ، وقحطبة عربي طائي . إن

هذا التغيير يُظهر لنا طريقة إبراهيم في إدارة الأمور وذكاءه فيها ، فهو قد عهد لخراساني (أبي مسلم) في قيادة الدعوة في خراسان ، وعهد إلى عربي في قيادة الحرب في العراق ، ثم عهد بعد ذلك - كما سئرى - إلى عباسي (وهو عبد الله بن علي) في قيادة الحرب في الشام . وتلك خطة واضحة ظاهرة وإن لم يشر إليها المؤرخون . رضي أبو مسلم بتعيين قحطبة وسلّم له به ، فتقدم قحطبة منتصراً على ابن هبيرة وإلى الأمويين على العراق حتى قُتل في إحدى المواقع ، بعد أن أيّد قوة بني العباس ، وأظهر أنهم لا يغلبون . واستمر ابنه الحسن في الفتوح حتى دخل الكوفة .

أما إبراهيم فقد أُلقي القبض عليه بأمر من مروان ثم قتل . يقال إن إبراهيم عهد بالأمر إلى أخيه أبي العباس ، فسار أبو العباس مع إخوته وأعمامه إلى الكوفة . وهناك أخذت البيعة للعباسيين بالرغم من معارضة أبي سَلَمَةَ الحَلَال الذي كان قائماً على الدعوة في الكوفة .

ووجّه أبو العباس (الذي دعا نفسه بالسفاح) عمه عبد الله بن علي إلى حرب بني أمية في ديارهم بالشام . فسار هذا مظفراً ، وطرد مروان بن محمد من الشام في موقعة الزاب . فرّ مروان ملاحقاً إلى مصر ، ثم وقع في الأسر ببوصير وقتل . وتتبع العباسيون الأمويين في كل مكان وأعملوا فيهم السيف قوة أو غدرأ حتى قضوا عليهم ، إلا فرداً منهم هرب إلى الأندلس فأقام الدولة الأموية فيها .

هذه هي الوقائع المعروفة في كيفية نشر الدعوة وفي الانتصار على الأمويين حرباً .



مناقشة لون الثورة العباسية

ولنعد الآن إلى فكرتنا السابقة في البحث عما ذكر من تغلب الفرس على العرب في هذا الأمر ، وعن كونهم هم الموجهين لها . في الواقع إننا لا نجد شيئاً من ذلك ثابتاً ، لأن المدبر الأول للأمر إنما هم بنو العباس : محمد بن علي أولاً ، وإبراهيم بن محمد ثانياً ، وفي آخر الأمر أبو العباس السفاح . وكانت لهم طريقتهم التي ذكرناها ، فهم الذين يؤلون ولائهم وهم الذين يضعون شكل الدعوة ، ويعينون القواد ، وكانت الشيعة تطيعهم في ذلك ، ثم إن بين النقباء الذين أرسلوهم للدعوة ثمانية من العرب (ولها وزن ص / ٤٠٧) أما أصدقاء الدعوة فهم أعداء بني أمية . ومن أعداء بني أمية اليمانيون وهم عرب . وسرى أن محمد بن علي يخصهم بالذكر فيعدّهم حلفاء له . ويتخذهم أبو مسلم الخراساني أصدقاء له . أما القواد فهم فرس في خراسان ، عرب في العراق ، عباسيون في الشام ، وذلك طبيعي : فالعصر الفارسي في خراسان أكبر عدداً من العصر العربي . وفي العراق العصر الفارسي قليل العدد ، أما في الشام فلم يقتل الخليفة الأموي ولم يحاربه إلا أصحاب الدعوة أنفسهم وهم قواد الحركة . كل ذلك واضح جلي لا يسعنا معه أن نقول إن عنصر الدعوة العباسية عنصر فارسي ؛ وإن الفرس هم الذين حرّكوا تلك الدعوة وقاموا بها دون غيرهم .

هناك وصية إبراهيم بن محمد لأبي مسلم وهي تخالف ما اتجهنا إليه في نص من نصوصها فما شأنها ؟ لندرس تلك الوصية أولاً وهذا نصها :

« يا عبد الرحمن^(١) إنك رجل منا أهل البيت ، فاحتفظ وصيتي ، وانظر هذا الحي من اليم ، فأكرمهم وحلّ بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا

(١) عبد الرحمن بن مسلم هو اسم أبي مسلم الخراساني - المنقح .

الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة ، فاتهمهم في أمرهم ، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت في أمره ، ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء . وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل . فأيا غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ « يعني سليمان بن كثير الخزاعي » ولا تغصيه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني » . (الطبري ٦ / ١٤) .

هذه الوصية واضحة في أن إبراهيم بن محمد يودّ أن يحسن أبو مسلم معاملة أهل اليمن ، وهم عرب لا شك في ذلك ، ونصّها واضح أيضاً في عبارته « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل » إنه واضح في الحضيّ على قتل العرب ، ومن بينهم الياثيون . وفي هذين النصين تناقض ظاهر لا ريب في ذلك ، وليس من المعقول أن يحضّ إبراهيم على العناية ببعض العرب وعلى قتل كل عربي في الوقت نفسه ، لا سيما وأن بين الدعاة كما ذكرنا عدداً من العرب ، وبين القواد أيضاً عدداً من العرب ، فما هو شأن هذا التناقض ؟ .

لقد نظر المؤرخون فيه وحاولوا أن يعلّلوه . فقال بعضهم : إن كلمة (عربياً) هي (مضرياً) في الأصل وبذلك يستقيم المعنى ، ولا يقع التناقض . إلا أن هذا التفسير لا يمكن الأخذ به ، فليس هناك لسان مضري ولسان غير مضري فقد توحدت الألسنة منذ عهد بعيد . وقال بعض المؤرخين ينبغي أن نستبعد هذا النص الأخير ، ونغذفه من العبارة العامة ، لأنه مخالف له ؛ بل قال بعضهم يجب أن لا نثق بهذه الوصية التي يناقض بعضها بعضاً .

ما هو موقفنا من ذلك ؟

علينا أن نرجع إلى نص هذه الوصية ، ولنحاول أن نزيل تناقضها بصورة عملية عقلية بيّنة ، إن نص العبارة التي تسبق « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل » أي قوله « فاقتل من شككت في أمره ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء » إن هذه العبارة تدل على الشبهة والتشكك وما في هذا المعنى ، والحضّ على قتل من يقع ذلك عليه ، والعبارة التي تتلوها تدل أيضاً على الريبة والشك والشبهة ، « فأيا غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله » ؛ وبناءً على ذلك ، فإن سياق الكلام يقضي أن تكون الجملة المتوسطة بين هاتين الجملتين بمعنى التهمة أيضاً . وذلك يوافق منطق اللغة العربية ومنطق الكلام ، وإذا كان الأمر كذلك ، فهل نستطيع أن نضع تلك العبارة على شكل يدل على معنى التهمة ؟ لا ريب أننا إذا رجعنا إلى معرفتنا عن الخط العربي والكتابة العربية ، وعن التصحيف الذي يقع ، أدركنا أنه من الممكن أن يكون قد وقع تصحيف في العبارة بحيث أخذت معنى جديداً غير المعنى الأساسي الذي هو التهمة كيف يمكن إذاً أن نردّ هذه العبارة إلى أصلها ، وأن نرفع عنها التصحيف ؟ إن هذا الرد يجب أن يعطي العبارة معنى التهمة فلنأخذ إذاً كلمتي « لساناً عربياً » فنرى أن كلمة « لساناً » على الشكل الذي كانت تكتب فيه دون تنقيط تصحفت عن « إنساناً » وأما كلمة « عربياً » فقد تصحفت عن كلمة « مريباً » . وبناءً على ذلك فإن العبارة « لساناً عربياً » تقابل « إنساناً مريباً »^(١) وتصحيف إحداهما عن الآخر ممكن . فيكون نص العبارة إذن

(١) المفتاح الذي درّس هذه المادة خلفاً للدكتور يوسف العث ، وهذّب هذه المحاضرات ، وأشرف على تنقيحها وإخراج طبعها ، له رأي آخر في تقدير أصل هاتين الكلمتين . فهو يرى أن الكلمتين هما (لساناً غريباً) . أما كلمة (لسان) فهي في رأيه تعني (داعية) كما يقال عن الجاسوس (عين) ؛ وإن كلمة (غريباً) لا تختلف في كتابتها بدون تنقيط عن كلمة (عربياً) ؛ وأن التعبير بمجموعه يعني (داعية غريباً عن الدعوة) .

« وإن استطعت ألا تدع بخراسان إنساناً مريباً فافعل » وهذا يجري مع سياق الوصية ويجري مع العبارة السابقة واللاحقة فهو بمعنى الريبة والشك والتهمة كتينك العبارتين .

هذا التفسير إذن يرفع التناقض من الوصية ، ويعيدها إلى سابق عهدها ويديهي أننا فيما يتعلق بأمور العلم لا يمكن أن نجزم جزءاً فيما انتهينا إليه ، إلا بعد أن نرى تحريف هذا النص في كتبه الأصلية ، عندئذ نجزم أنه محرف ومصحف ؛ هذا مع العلم أنكم ترون أن إمكان وقوع التصحيف وارد ، وأن إعادة النص إلى أصله يرفع تصحيفه ، ويقضي على التناقض قضاءً عاماً .

فما تقدم إذاً يبين عن وضع بني العباس وعن الثورة التي قاموا بها ، وهذا البيان يعطينا فكرة واضحة عن ميول تلك الثورة واتجاهاتها ، ويبدو منه واضحاً أن على رأس تلك الثورة رجالاً من بني العباس « دهاة أقوياء » منظمين عارفين بما يقومون به : أولهم محمد بن علي وأقرباؤه وابنه إبراهيم ، ثم تبعهم عدد من إخوة إبراهيم ومن أعمامه وأقاربه . وقد اشتركوا جميعاً في تنظيم الثورة ووضعوا خططها . وأشرفوا عليها ووجهوها كما يجب أن توجه . نعم ، إنهم تحالفوا مع أعداء بني أمية جميعاً ، واستفادوا منهم كل الاستفادة ، لكنهم هم الموجهون ، وهم أصحاب الأمر ، أما الدعاة والقواد فإنهم يتلقون أوامرهم منهم فيتبعونها بحذافيرها . نعم إنهم استفادوا من العناصر المعادية لبني أمية ، وكانت تلك العناصر يجمعها هدف واحد هو إزالة بني أمية ، وتجمعها فكرة موحدة ، وهي أن بني أمية أعداء الدين ، لذا وجب القضاء عليهم ، وكانت حركة الفرس تدعى بـ « عصا الكفر » : « كافر كوبات » وكان الثوار يحملون عصيا على طريقة ثوار المختار بن أبي

عبيد . استفاد العباسيون إذاً من أن الثورة كانت موجهة ضد الكفار ، والكفار على زعم ثوارهم هم بنو أمية ، ولا ريب أيضاً أن العباسيين اتخذوا الخراسانيين عضداً أول ، لا لأن خراسان معادية للعرب وخالية منهم - لا ، فخراسان كان فيها عدد كبير من العرب وقد عاشوا مع أهلها الفرس عيشة تزاوج وتقارب . ولبسوا لباسهم وتزيّوا بزيّهم ، وشاركوهم في أعيادهم وحفلاتهم ، وكانهم من أهل البلد . وزبدة القول إن تحالف العباسيين مع خراسان لم يتم لأن خراسان غير عربية ، أو لأنها مخالفة للحكم العربي ، بل لما ذكرناه من أنها بعيدة ، لا تصل إليها يد بني أمية بسهولة ، ولأن الشيعة فيها أقوى ، واليانيين عددهم كبير . وبناء على ما سبق ينبغي لنا أن نقول : إن الحركة اعتمدت على الخراسانيين الفرس بصورة خاصة أكثر من اعتمادها على العرب الذين في خراسان لسبب طبيعي ، هو أن هؤلاء الخراسانيين كانوا متحمسين ضد الأمويين أكثر من العرب أنفسهم ، وكانت جراحهم من الأمويين أعمق من جراح اليانيين في خراسان ، فكان من قبيل وضع الشيء في محله أن يقبل العباسيون على الخراسانيين ، ويمدوا إليهم أيديهم قبل غيرهم . أضف إلى ذلك أن الخراسانيين يفهمون الدعوة السرية ووسائلها وعقلية تلك الدعوة أكثر من العرب ، فقد اعتادوا في زمن الكسرويين على الطاعة التامة والولاء ، وفهموا ألا يسألوا أولياءهم عما يفعلون .

وخلاصة القول إن الدعوة العباسية يمكن أن يقال إنها دعوة لقلب نظام الحكم وليست دعوة قومية ، هي دعوة لبست لباس الدين للقضاء على بني أمية الذين اتهموا بأنهم كفار . وهي دعوة نودي بها ليعود الأمر إلى نصابه . . هي دعوة إلى الرضا من أهل البيت ، أصحاب الحق بالخلافة ، أولئك الذين ينادون بإقامة شعائر الدين قياماً لم يحققه الأمويون .

توطيد الحكم العباسي

ما ذكرناه سابقاً يمكن أن يظهر أيضاً في البحث الذي تقدمه الآن عن توطيد الحكم العباسي . ففي خلال مراحل هذا التوطيد يظهر لنا ماذا قصد العباسيون من حركتهم وأي اتجاه كانوا يتجهون إليه . ويظهر ذلك واضحاً حين نرى العباسيين الأولين يقاتلون أعداء دولتهم ، ويستبعدونهم الواحد بعد الآخر ، لا يسألون أكانوا فرساً أم عرباً ؟ ويجب أن لا ننهم كثيراً بالبواعث الظاهرية التي تبدو من خلال الحوادث التي سنذكرها ، فإن لكل حادثة سبباً مباشراً ، وسبباً غير مباشر ، وقد لا يكون السبب المباشر هو الأصل ، وقد يكون السبب غير المباشر هو الذي دعا إلى حدوث الأمر من بعيد ، فلحقه السبب المباشر ، والظروف والبواعث تخفي دائماً السبب الحقيقي . وسنرى هذا السبب .

سننظر في توطيد الحكم العباسي بمراحله التاريخية ، أي أننا سنستعرض تلك الحوادث كلها وقعت الواحد بعد الآخر في الزمن والتاريخ ، وهي حوادث تؤول بمجموعها إلى إزاحة أعداء الخلافة العباسية وإلى تثبيت قدم بني العباس ، ومنهم بصورة خاصة الخليفةان : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور .

أبو سلمة الخلال

أول مرحلة من مراحل توطيد الحكم حصلت في عهد أبي العباس السفاح وهي إزاحة أبي سلمة الخلال عن مسرح الحوادث ، فأبو سلمة كان

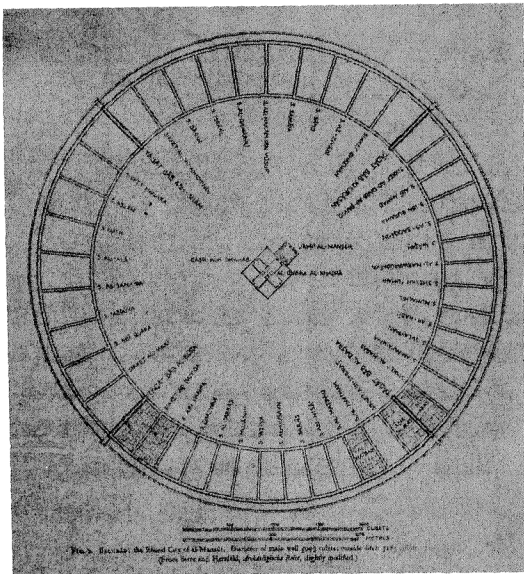
قائد الدعوة ، أوصى به بكير بن ماهان لحمد بن علي ، فعينه قائداً له . واستبدّ بالأمر ، وحين ورد العباسيون الكوفة بعد أخذها من الأمويين ، لم يرد أبو سلمة أن يعلن أمرهم ، وأن يسلمهم الخلافة . ويقال إنه كان ينبغي أن يدع الخلافة لآل عليّ ، لكن أبا الجهم - موفد أبي مسلم الخراساني - استطاع أن يقضي على تلك الرغبة ، وأن يعلن عن مجيء العباسيين ، وبذلك تمت المبايعة لهم بالرغم من أبي سلمة .

وقيل بعد ذلك إن أبا سلمة اتصل بآل عليّ في المدينة وطلب إليهم تسلّم الخلافة فلم يقبلوا ، وانتهى ذلك إلى العباسيين ؛ فأخفاها أبو العباس في نفسه ودبر وسيلة قتله ؛ وكان من غير الحكمة أن يقتله بواسطة أتباعه من بني العباس ، فالعقل يقتضي بأن يقتل أبا سلمة رجل من طائفته وبلده (من خراسان) ؛ عملاً بهذا الرأي أرسل أبو العباس إلى أبي مسلم كتاباً يحضه فيه على قتل أبي سلمة . ووجد أبو مسلم في ذلك فرصة سانحة للانتقام من سليمان بن كثير اليمني الذي وقف في وجهه حينما قدم خراسان أول مرة ، فأعرب أبو مسلم عن استعداده للقيام بهذه المهمة على أن يترك له التصرف برأس سليمان . حصل شبه اتفاق ضمني على ذلك ، فأرسل أبو مسلم رجالاً من أتباعه إلى الكوفة . ولما دبرت المؤامرة وحيكت خيوطها ، أعلن أبو العباس السفاح أنه راض عن أبي سلمة كل الرضا ، وفي ليلة ذلك الإعلان هوجم أبو سلمة وقتل ، فحزن عليه الناس ، وشاع أن الخوارج قد اغتالوه .

القضاء على بني أمية

وعلى هذا النحو أزيح منافس عن مسرح الحوادث ، وبقي العدو الأكبر الذي يجب أن يقضي عليه قضاء مبرماً ، وهم بنو أمية أنفسهم ، وقد رأينا أن مروان قُتل في بوسير ، لكن قسماً من الأمويين لا يزالون في الشام

والعراق ومصر . تتبع بنو العباس هؤلاء الأمويين تتبعاً دقيقاً ، وأعملوا فيهم
 السيف حيلة وغدراً وخداعاً ، أو ما شابه ذلك من نكت العهود .
 والمهم أنهم قتلوهم حتى اطمأنوا إلى أنه ليس في بلادهم منهم أحد ، ولو
 أن عدداً قليلاً جداً قد هرب من أيديهم إلى مكان سحيق .



مخطط عام لمدينة السلام (بغداد) وضع أيام المنصور (عن كرزويل : العارة الإسلامية)

عبد الله بن علي

واستمر توطيد الحكم في عهد المنصور ، وابتدأ بالقضاء على رجل خرج على الخليفة وادعى لنفسه الخلافة ، وكان من بني العباس أنفسهم ، وهو عبد الله بن علي عم المنصور ؛ فقد ظن عبد الله أنه ولي عهد أبي العباس السفاح ، ذلك لأن أبا العباس طلب من بني العباس رجلاً ليحارب مروان ، وقال « إن من حاربه وغلبه لحقيق أن يكون وليّ العهد فلم يتقدم إلا عبد الله ، وهو من أدهى بني العباس » . بل يقال : إنه أدهاهم وأكثرهم حيلة وحكمة وكيداً ، فلما قضى على مروان ، واستتب الأمر لبني العباس ؛ ثم توفي السفاح رأى عبد الله أن الأمر فاتته بانتقاله إلى المنصور ، فغضب لذلك ، وأعلن أن الأمر له . وطلب من جنوده أن يبايعوه ، ففعلوا ، وفيهم الخراسانيون وغيرهم ، والخراسانيون ألفوا أن ينقادوا لقائدهم أيما كان ، وبويع بالخلافة في عام ١٣٧ للهجرة ، وأعلن فيها العصيان .

كان في هذا العصيان خطر على خلافة بني العباس ؛ ونظر المنصور في إزالة هذا الخطر ، فوجد أن الذي يستطيع أن يكفيه هذا الأمر هو أبو مسلم الخراساني ، فإن لم يستطع أن يكفيه ومات ، فإن موته يكون أيضاً في مصلحة العباسيين . دعا المنصور أبا مسلم إلى حرب عمه عبد الله ، واستمر القتال بين القائدين مدة من الزمن ، ولم يستطع أحدهما التغلب على الآخر ، غير أن أبا مسلم وجد ثغرة في صف عبد الله ، هي ثغرة الخراسانيين فهم أميل إلى أبي مسلم منهم إلى عبد الله ، هم أميل له في الظاهر والباطن ، فكان عبد الله يخشاهم ويخاف أن يرتدوا عليه ؛ وهذه الخشية هي التي أودت به ، فوقع أسيراً في يد أبي مسلم ، فسلمه إلى المنصور قيل إن المنصور

وضعه في بيت بني أساسه من الملح ، وكان الماء يجري من تحته فيذوب الملح حتى انقض البناء يوماً من الأيام على عبد الله فقتله .

القضاء على أبي مسلم الخراساني

بعد أن ارتاح بال أبي جعفر من عمه ، ما زال في قلبه هم كبير ، هو ذلك القائد الخراساني الذي مهد الحكم لبني العباس وأبلغهم سدة الخلافة ، وكان لا يزال أبو مسلم حاضراً على رأس جيش كبير من أتباعه الخراسانيين الذين كانوا يؤمنون به من وجهات نظر مختلفة : يؤمنون به ، لأنه خراساني ، ويؤمنون به لأنه قائدهم ، ويؤمن به بعضهم من ناحية دينية أيضاً ، فهو يمثل رمزاً دينياً قومياً كبيراً : هذا القائد هو أبو مسلم الخراساني ، ذلك الرجل الداهية القوي ، الذي بلغ أعلى مركز في الدولة بانتصاراته العديدة ، فصار قادراً على أن يقف أمام الخليفة وقفة الند للند ، وقد أظهر دالة على الخليفة وعلى أخيه ، حتى إنه طلب أن يكون أمير الحجاج في عهد السفاح ؛ فاضطرب أمر الخليفة ولم يجد إلا أن يرسل أخاه أبا جعفر أميراً للحج ليبطل رغبته ، فاستاء أبو مسلم لذلك وقال : « ألم يجد أبو جعفر أن يحج إلا هذا العام ؟ » .

ولما توفي السفاح في وقت الحج لم يستطع أبو مسلم إلا أن يبائع أبا جعفر المنصور خليفة ، وأبو جعفر هذا كان قد حضّ أخاه على قتل أبي مسلم ، فلم يفعل السفاح ، لأنه لم يجد إذ ذاك إلى ذلك سبيلاً . هذا هو الآن أبو جعفر يصبح خليفة ، فماذا يفعل ؟ إنه يترصد بأبي مسلم وينتظر حدوث مناسبة ينقضّ بها عليه . وبالرغم من أن أبا جعفر استثمر أبا مسلم في القضاء على خصومه ، لكنه شعر أن نفوذ أبي مسلم وصل إلى قوته وصار أبو جعفر يخشى منه على الخلافة نفسها ؛ فأرسل إليه ، وكان أبو مسلم آتئذ في

الشام ، وكان يريد أبو جعفر أن يعهد إليه بولاية الشام ومصر ليعده عن مركز نفوذه (خراسان) ؛ فلم يرض أبو مسلم بذلك مدعياً بأن خراسان موطنه ، يؤثرها على الشام ومصر ، وكان طبيعياً أن يفضل بقاءه بين شيعته وأتباعه . جرت بين الخليفة وبينه مراسلات ، لم يقتنع أبو مسلم بعدها بالبقاء في الشام ، بل قصد أن يرجع إلى خراسان ، فأرسل إليه أبو جعفر جرير^(١) بن يزيد البجلي ، وهو داهية من الدهاة ، بل قيل إنه أدهى أهل عصره ، وعهد إليه بأن يقنعه بجميع الوسائل ، فحاول معه كل المحاولات ، حتى إذا لم يفلح فيما حاول ، انتقل إلى آخر أمر اتفق عليه مع الخليفة ، فاختم بأبي مسلم وقال له بأنه إن لم يقبل بالحضور إلى أبي جعفر ، فإن أبا جعفر سيجعل همه كله أن يفتك بأبي مسلم ، وسيتجه إليه بجيوش الخلافة جمعاء ، وإنه يقسم ويقسم ويعزز أيمانه بأنه لن يتوانى عن الفتك به مهما كانت الحال . فأوجس أبو مسلم خيفة ورضي بالذهاب إلى أبي جعفر ، وذهب إليه مع بضعة آلاف من جنوده . ترك الجيش قريباً منه ، ووصل إلى الهاشمية ، فاستقبل استقبالاً حسناً ، وأزيل عنه كل خوف . ثم دعي يوماً وحده إلى الخليفة ، فدخل عليه ، فعزّره الخليفة وعاتبه ، فاعتذر وأقبل على يدي أبي جعفر يقبلهما ، فقال له الخليفة : « قتلني الله إن لم أقتلك » وصفق بيديه : فدخل من قتل أبا مسلم . وكان أبو جعفر قد أعدَّ صُرم المال . فما أن فرغ من قتل أبي مسلم حتى خرج الخزانون بالمال ونثروه على الخراسانيين ، فالتهم هؤلاء بالمال وقضي على أبي مسلم .

القضاء على أصحاب النزعات المنحرفة

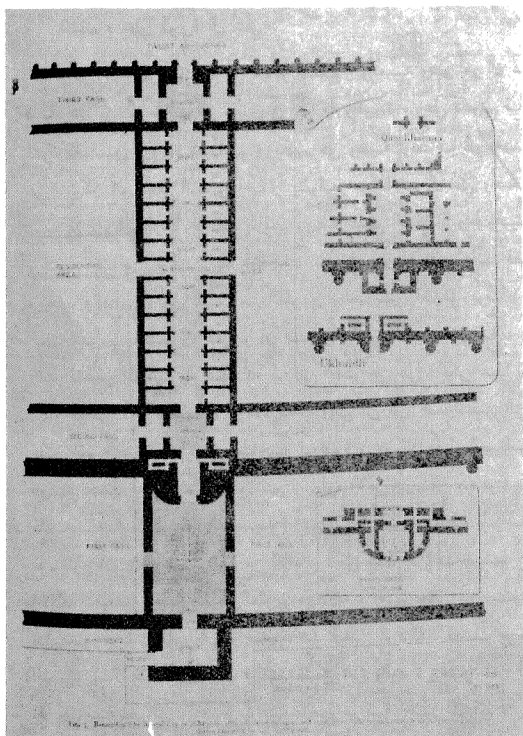
ومما يدخل في توطيد حكم بني العباس القضاء على الحركات الفارسية

(١) ذكر ابن الأثير (ج ٥ - ص ١٧٦) أن أبا جعفر أرسل إلى أبي مسلم أبا حميد المروزي - المنتح .

ذات النزعة الدينية المنحرفة عن الإسلام . وقد ظهرت أولاً الراوندية ، والراوندية طائفة اعتقدوا أن أبا جعفر المنصور هو ربهم يؤتيهم رزقهم ، ويطعمهم ، ويستقيم . جاهدوا بأرائهم هذه ، وقدموا إلى الهاشمية مركز الخلافة ، وأعلنوا عقيدتهم واضحة ، فأخذ أبو جعفر المنصور في إقناعهم لإعادتهم عن رأيهم ، لكنهم لم يقتنعوا . فألقى القبض على عدد كبير منهم ، ووضعهم في السجون ؛ فغضب لذلك الباكون ، واحتالوا لإخراج رفاقهم ، فساروا في جنازة وهمية إلى السجن بعددهم وعدتهم . فهاجموا السجن ، وأخرجوا رفاقهم منه ؛ ثم توجهوا نحو قصر المنصور ، فأراد أن يفرقهم وخرج إليهم بحرسه وكان عددهم قليلاً . كاد الثوار أن يتمكنوا منه ، لولا أن رجلاً مطارداً من المنصور هو معن بن زائدة الشيباني حذى فرسه ووقف بين يديه . وقاتل قتال الجابرة ، حتى أراحهم عنه ، ومكنه منهم . وقضى على فتنتهم .

ومن القضاء على الحركات ذات النزعة غير الإسلامية القضاء على ثورة سنباذ ، إن سنباذ خرج غضباً على مقتل أبي مسلم الخراساني ، وصمم أن يثار له . جمع حوله عدداً كبيراً من الخرمية الإباحية أصحاب خدّاش ، ومن المزدكية ومن غيرهم ، وجاهر بالعداء للإسلام وقصد السير إلى مكة لنقض الكعبة : فأرسل إليه أبو جعفر المنصور جَهْور^(١) بن مزار العجلي فقابله وقضى على جيشه الكثيف .

(١) ذكر الطبري (سنة ١٣٧ هـ) اسمه على هذا النحو : أما ابن الأثير فقد ذكر اسمه (جهور) - المنقح .



تفصيل أحد مداخل أبواب مدينة بغداد

القضاء على ثورة آل علي :

وأمر آخر أفضّ مضجع أبي جعفر المنصور- وأتعبه وهو أمر آل علي ، فأبناء علي بن أبي طالب لهم دعوى في الخلافة وطيدة ، وعلى دعوتهم قامت دعوة العباسيين ، وبني العباسيون حكمهم على وصية أوصاها لهم أحد بني علي . وكان أبو جعفر المنصور حذراً يتوقع حركة من آل علي وأصحابهم وشيعتهم ، وكان دوماً خائفاً يترقب ، يضع عليهم الأرصاد والجواسيس ، ويتتبع أعمالهم . وكان يريد أن يقف على نشاطهم فيقضي عليهم قضاء مبرما . ويقال إن أهل البيت من العلويين والعباسيين اجتمعوا يوماً (قبل العهد العباسي بالطبع) ، فقرروا أن ينتخبوا عليهم إماماً يدعون له ، وهو محمد النفس الزكية بن عبد الله من بني الحسن بن علي ؛ لكن هذا القول يبدو موضوعاً أو ضعيفاً لا يؤخذ به ، وعلى كل كان محمد النفس الزكية يعتبر نفسه صاحب الأمر وصاحب الدعوة ، حتى إذا أقام العباسيون دولتهم غضب غضباً شديداً ، لأنهم لم يولّوه الأمر ، وصار يدعو دعوته متحدياً أسلوب الدعوة العباسية (أعني الشكل السري المنظم الموجه) ، فاستطاع أن يجمع عدداً كبيراً من الأتباع ، من بينهم من قد خيبتهم أعمال الخلافة العباسية ومنهم الشيعة العلويون خاصة ، ومنهم بعض من يستفيدون من هذه الحركات الثورية . واختفى محمد النفس الزكية ، فصار أبو جعفر المنصور يسأل عنه فلا يجده ، فألقى القبض على والده ، وتحزى شأن ابنه ، فلم يفز منه بطائل . وصار يراقب الأمور مراقبة الحذر المدقق ، وصار يتعجل الأمور حتى لا يفاجأ بها مفاجأة ، فكان يجعل قواده يرسلون الكتب إلى من يتوهمون فيهم أنهم من أهل الشيعة ، فيدعونهم إلى القيام بالثورة ويطمئنونهم أنهم إلى جانبهم إن اشتعلت الثورة ، وهكذا شعر

النفس الزكية أن أمره قد يخرج من طي الخفاء والكتمان إلى الظهور دون إرادته ، فعجل بالظهور ، عجل في وقت لم يكن من مصلحته أن يظهر فيه ، فقد كان أعداً الأمر على أن يشب هو بالحجاز ، وأخوه إبراهيم بالبصرة في وقت واحد ، فيشغل جيش الخليفة المنصور بحركتين في آن واحد فيضيع بينهما ، لكن إبراهيم كان مريضاً لا يستطيع أن يظهر . فثار النفس الزكية قبله ، ورجاه أن يعجل بالظهور ، وكان النفس الزكية شجاعاً كل الشجاعة ، قوياً كل القوة ، ورأى أن يحتاط لنفسه بالمدينة فحفر خندقاً حولها ، كما فعل ذلك من قبل جده الرسول ﷺ ، وقد نصحه عدد من أصحابه بألا يفعل ، لكنه لم يرض ؛ وكان حفر الخندق مانعاً للتجار وأصحاب الميرة من أن يوصلوا بضاعتهم إلى المدينة ، فخفت الميرة عن المدينة . وانتظر هو أن يأتيه العدو إلى دياره . إن أبا جعفر المنصور راسله مرات ، ولم يكن آنئذ مستعداً تماماً لإرسال الجيش في الحال . أدلى كل الفريقين بحججه في رسائله ، تعدّ هذه الرسائل من أجلى وأروع ما كتب من الرسائل السياسية ، وهي تبرز حجج كل من الفريقين إبرازاً قوياً ، وردت هذه الرسائل في الطبري (١٩٥ / ٦) . لم تنته هذه الرسائل إلى شيء كما كان مقدراً لها . وعجم أبو جعفر عيدانه ليرسل قائداً إلى القتال ، فوجد بدهائه أن أصلح شيء له هو أن يرسل ابن عمه عيسى بن موسى بن علي . وكان عيسى بن موسى وليّ العهد بعد أبي جعفر ، وكان أبو جعفر راغباً في أن يزيحه من طريقه ليعطي الخلافة إلى ابنه المهدي . وإذا دارت الدائرة على أحد الاثنين : محمد النفس الزكية أو عيسى بن موسى ، فأيهما قتل كان خيراً له ، ويوافق مصلحته . تمكن عيسى بن موسى بعد قتال مرير من النفس الزكية ، فشتت جيشه ، وقتله ، وأرسل برأسه إلى أبي جعفر المنصور . ظهر إبراهيم في البصرة ، ولكن بعد فوات الأوان ، وقد كان

عيسى قد أشرف على الانتهاء من محاربة النفس الزكية ، وعاد إلى البصرة حين ظهر إبراهيم ، فالتحم جيشاها ، وكان إبراهيم قد جمع حوله في البصرة عدداً كبيراً من مختلف النزعات وقوي بهم ، لكنه قُهر في المعركة التي وقعت بينه وبين عيسى بن موسى ؛ وبذلك اطمان بال أبي جعفر المنصور ، وألقى عصا التسيار واستقر به النوى .

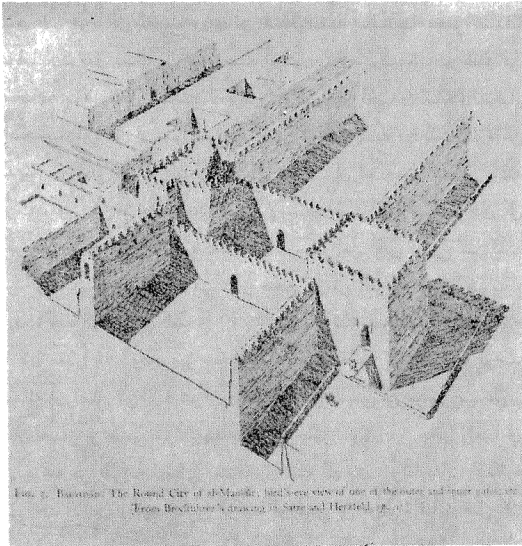


Fig. 3. Bagdad. The Round City of al-Mansur. Bird's-eye view of one of the outer and inner walls, see Jeron Brockhuis's drawing in Same and Herdeth, 1920.

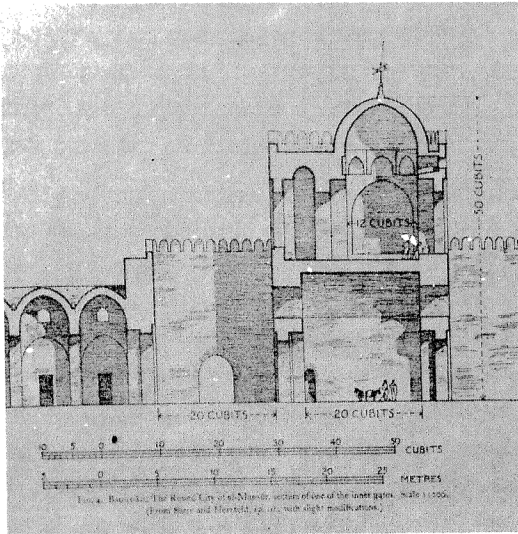
منظور أحد مداخل مدينة السلام

بناء مدينة السلام (بغداد)

اختتم أبو جعفر المنصور توطيده للحكم ببناء عاصمة له ، وأراد أن يبعد هذه العاصمة عن تأثيرات البلدان الأخرى . فقد رأينا أن العباسيين حالقوا خراسان في أول الأمر ، لكنهم لم يجعلوا مقرهم فيه ، فابتعدوا عن القطر الذي قوى شأنهم وعضد أمرهم ، ثم إنهم لم يستقروا في الكوفة ، وكانت الكوفة قد عاضدتهم أيضاً في الاستيلاء على الأمر . لم يستقروا في الكوفة ولا في خراسان ، بل أسسوا لأنفسهم مدينة قرب الأنبار دعوها الهاشمية نسبة إلى جدهم الأعلى هاشم ، وبذلك ابتعدوا عن أهل البلدين اللذين قوي أمرهم بها ، ولم يبقوا حلفهم معها قائماً . لم ترق الهاشمية لهم أيضاً ، فأخذ أبو جعفر المنصور يبحث عن مكان يبني فيه مدينة جديدة تكون مقر حكمه وعاصمة ملكه ، فوجد بعد البحث الشديد مقراً لتلك المدينة يحوي شرائط ملائمة كل الملائمة ، بل كانت تلك البلدة كأنها خلقت لتكون عاصمته . اختار أبو جعفر المنصور موضعاً لمدينة أسماها مدينة السلام في مكان يدعى ببغداد أو الزوراء . وهو يقع على الضفة الغربية من دجلة في مكان تكون المسافة بين دجلة والفرات أقرب ما تكون ، فأقام عاصمته على الطرف الأيمن من دجلة في هذا المكان يستطيع أن يحصل على الميرة والتجارة التي تأتي من الجنوب ، تلك التجارة إما أن تمر في الفرات أو في دجلة وكلاهما قريب من بغداد . إن موقع بغداد في وسط العراق يجعل اتصالها بمدنه سهلة سريعة وهي تقع في أرض خصبة ، الهواء فيها طيب عليل . أما من الناحية الحربية ، فالمدينة بعيدة عن متناول العدو ، اللهم إلا إذا اجتاز للوصول إليها نهراً ، يمكن أهلها أن يهدموا الجسور فيمنعوه منها .

هذا من حيث موقع المدينة ، أما من حيث مخططها ، ففيه يتجلى

ذكاء كبير ، جعل أبو جعفر المدينة مدورة ، وأقام في مركزها قصر الخلافة ، وإلى جانبه الجامع الذي سمي بجامع المنصور . يخرج الخليفة من قصره إلى الجامع القريب فلا يتعرض في أثناء سيره لأشياء مفاجئة . جعل المنصور الدواوين حول القصر ، وخطط حولها (وكل ذلك بشكل مدور) دور القواد ورجال الحاشية وأمثالهم ، ثم أنشأ حولها سوراً مدوراً مركزه القصر ، ثم سوراً مدوراً آخر ، وخصص ما بين السورين سكن عامة الناس وأعمالهم



مقطع القبة في أحد مداخل مدينة السلام

البيسطة ؛ إلا أن الخليفة أخرج فيما بعد الأسواق إلى خارج المدينة حيث نشأ حي الكرخ . وكان يدعى القسم الذي يسكنه عامّة الناس (بين السورين) . أنشأ بعد السور الثاني سوراً ثالثاً يفصله عن الثاني ميدان فسيح ؛ وحفر خارج السور الثالث خندقاً حوله . ومن أطراف القصر الأربعة تبدأ شوارع تمتد فتخترق الأسوار الثلاثة بأبواب : باب منها اسمه باب الشام ، والآخر باب خراسان فباب البصرة ثم باب الكوفة . ويستطيع الخليفة من قصره أن يراقب هذه الشوارع جميعاً وأن يعرف ما يجري فيها ، وهي شوارع تفضي إلى قصره وإلى المسجد الجامع . وفق أبو جعفر المنصور كل التوفيق في وضع خطط المدينة فكان من السهل الإشراف عليها ومعرفة ما يجري فيها .



نظام الحكم في العهد الأول العباسي

بعد أن رأينا توطيد الحكم والوسائل التي اتخذت لذلك ننتقل إلى البحث عن نظام ذلك الحكم في العهد الأول العباسي ذلك العهد الذي يمتدّ حتى عصر المأمون . هذا النظام وضع أسسه أبو جعفر المنصور ، وحكم الدولة على رأيه وفكره ، واستمرت على هذا الشكل مع تغيير قليل حتى عصر المأمون . بعد عصر المأمون لم يطرأ عليها تبدل كبير إلا في أشياء سنها .

هذا النظام هو نظام الحكم الفردي المقيّد بشريعة القرآن الكريم ؛ وهو نظام يستند إلى الفكرة الدينية فقد قال المنصور : « إنا أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ؛ وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه » فركيزة هذا السلطان هي الدين ، والسلطان يستمد قوته منه ، ويعتبر نفسه في شؤون الحكم ممثلاً لسلطان الله . وهذا الحكم لا يفرق بين عربي وأعجمي ، فهم يستوون جميعاً . وإنما هم رعية يسوسهم السلطان بحكمه وإرادته ، وللدين مذهب معين هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو يحارب كل زندقة ، ويحارب الفرق المنشقة على السنة والجماعة ، هذا التمذهب في الحكم لا يسري على الدور العباسي الأول وحده ، بل ينطبق على جميع أدوار الحكم العباسي ، ولو أن السلطان صاحب القوة^(١) كان يختلف من حين إلى آخر .

(١) القصد من هذا الكلام أن التذهب ظل سارياً حتى عندما انتقلت السلطة الحقيقية من يد الخليفة إلى أمير الأمراء ثم إلى البويهيين ثم إلى السلاجقة - المنقح .

أثر الدين في الحكم

والدين هو الذي ينظم شؤوناً كثيرة فيتبعه الخليفة فيها ، وهي شؤون العدل أولاً وما يتبعها من قضاء ومظالم ، فالحكم فيها للدين والمذهب الذي يمثله ، والدين ينظم شؤون الخراج ثانياً ، وقد وضع علماء بني العباس في شؤون الخراج كتباً اشتقوها من الأصول الدينية ؛ وأول من ألف في الخراج وزير من أول وزرائهم ، ثم ألف فيه قاضيه أبو يوسف . ومن الشؤون التي تعتمد على الأصول الدينية شؤون الحسبة ثالثاً . والحسبة خطة دينية تقتضي بأن يقام العدل ويصان الدين ويطبق الشرع في الأسواق وفي معاملات الناس ، التجارة والصناعة والحرف . وقد سار العباسيون في الحسبة سيرة من سبقهم واتبعوا ما ورد من أقوال في الأحاديث والأخبار والآثار .

الخليفة يصرف أمور الدولة

هذه هي إجمالاً الشؤون التي يتبع فيها المذهب السني والحكم الديني ، أما ما سوى ذلك من أنظمة الدولة ، فأمره عائد إلى الخليفة يسويه كما يريد ، فهو الذي يضع أصول الحكم في الأمصار وفي العاصمة نفسها ، ويعين كل من يقوم على الإدارة . وهو الذي يعين ولي العهد والعمال والوزراء والقضاة وأصحاب الخراج وأصحاب البريد . لنتحدث إذأ عن هذه الأعمال وكيف يتصرف بها الخليفة واحداً بعد آخر : من ذلك ولاية العهد فقد استنّ سُنَّتُها معاوية فجعلها في ولده ، وجعل لنفسه الحق في أن يأخذ العهد له ، واستمرت ولاية العهد تنتقل بين أولاد الخلفاء وإخوتهم وأقربائهم الأقربين ، أما في العهد العباسي الأول فهي في الأولاد والأخوة وابن الأخ ، لكنها تأخذ شكلاً جديداً ، فقد يبائع العهد الخليفة بولاية العهد إلى

الأخوين معاً ، حتى إذا استولى الأول منها على الخلافة دعا الثاني إلى التخلي عن حقه ، وأجبره على ذلك إن لم يقبل بادئ ذي بدء . . . وهكذا لم يفكر أبو جعفر المنصور في أن يحدث في شأن ولاية العهد شيئاً يصلح به ما يقع بين الأهل من بلابل وخلافات .

الوزارة

والجديد في نظم الحكم عند بني العباس هو خطة الوزراء ، فالوزير لم يكن معروفاً عند بني أمية باسمه ، إلا أنه كان موجوداً بعمله ، فقد كان الكاتب والمستشار للخليفة . أما العباسيون فهم قبل أن يستولوا على الأمر كان لهم وزير هو أبو سلمة الخلال ولعل هذه التسمية أتت من الآية ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ على أن عمل الوزير في عهد العباسيين الأول يشابه عمل الكاتب في عهد بني أمية . إلا أنه يأخذ مع الزمن بعض السلطان والأبهة ، وحين يأخذ ذلك ويستبد بعض الاستبداد بالأفراد ، وتتوسع سلطته ينقم منه الخليفة فيقضي عليه ، أو يعزله ، وقد يصادر أمواله . وقد يعذبه ويضطهده .

الجيش

الجيش في عهد الخلفاء العباسيين الأول خليط من أفراد مختلفين ، ففيه العربي ، وفيه الفارسي وفيه غيرهما ، وقواده مختلطون أيضاً إلا أن قسماً كبيراً منهم عرب ، وقسماً منهم عباسيون بالذات ، على أن أقوى نواة في الجيش هم الخراسانيون ؛ فالخراسانيون هم الذين أعطوا النصر لبني العباس ، وبقوا جيشهم المفضل على أننا نعود فنقول : إن جيش خراسان ليس فارسيّاً محضاً ، بل يدخله العربي أيضاً فقد ذكرنا أن خراسان إنما هو اسم للإقليم لا للعصبة ، فإذا كان أصل موطن الجيش خراسان ، فأفراده ليسوا بآجمعهم

خراسانيين . قسم المنصور الجيش إلى فرق أربع ، المضرية والربيعية والينية والخراسانية ، منها ثلاث فرق عربية ، وفرقة يتخللها فرس ، وقد أراد أبو جعفر أن يستقيم الأمر له في هذا التقسيم ، ففرض بين فرق الجيش بعضها ببعض ، وجعل بعضها يراقب بعضها الآخر ، ووضع قسما منها ببغداد ، وقسما آخر بالرصافة في الطرف الآخر من الدجلة ، أما الشرطة فهي حرس الخليفة ، وهي تتبع إمرته وهي خليط فيها الموالي وفيها العرب .

الولاية

إنّ الأمصار تدار من قبل الولاة ، وقد نظمت خطة الولاية بحيث لا يكون للوالي سلطة كبيرة تنجيه من قبضة يد الخليفة ، ففي الأقطار ولاة أو أمراء أو عمال ولكنهم لا يسكون بزماء الأمر جميعه ، فهم على الأغلب أمراء حرب وصلاة ، يديرون شؤون الناس إلى حدّ ما ، وإلى جانبهم أصحاب الخراج ، وهؤلاء عمال يعينهم الخليفة نفسه في أكثر الأحيان وهم الذين يجمعون الأموال ، فلا يستطيع الأمراء أن يتصرفوا بها ، وإلى جانب الولاة قضاة يعينهم الخليفة أيضاً ، ولا يتبعون الوالي ، ومن هؤلاء أصحاب البريد ، وهم عمال لهم شأنهم وقوتهم ونفوذهم ، فهم الذين ينقلون إلى الخليفة أخبار الولاة والقواد والقضاة والجباة وغيرهم ، وهم الذين يشرفون على الطرقات والأمن فيها . وينقلون الأموال والودائع ، فسلطانهم قوي ، وهم عيون للخليفة ، وظيفتهم أصلها ساساني ، لكن مهمة التجسس فيها وتقل الأخبار إنّا هو عباسي ، فهي إذا مؤسسة ساسانية عباسية .

وهكذا نرى أن الأمصار قد وزع الحكم فيها بين أشخاص مختلفين ، فليس الوالي والأمير هو صاحب الأمر في كل شيء ، نعم إنه مع الزمن يكتسب سلطة واسعة ، ويحاول أن يستقل عن الخلافة ، لكن هذا يحدث

فما بعد ، لا في العصر الذي نتكلم عنه . والعمال والموظفون المختلفون في مصر من الأمصار يكادون أن يكونوا مستقلين الواحد عن الآخر ، ولكل منهم سلطة محدودة ، ويراقب أحدهم الآخر ، فلا يستتب الأمر لواحد منهم .

الجديد في نظام الحكم العباسي الأول

هذا هو بإجماله النظام الذي وضعه المنصور ، وأخذ عنه سبقه ، وأحدث فيه أشياء جديدة . هذا النظام ليس فارسياً محضاً بل هو مطعم بأشياء لم يعرفها الفرس ، لأنه أولاً يستند إلى الدين الإسلامي مما لم يعرفه الفرس ، هذا النظام أقرب أن يكون أموياً من أن يكون فارسياً ، فالأمويون عرفوا نوعاً من النظام مشابهاً لهذا دون بعض الجديد الذي فيه ؛ وكانت غاية هذا النظام جمع السلطات في يد الخليفة ، فهو الحاكم الفرد ، وكل الأمور يجب أن تجري بمعرفته وتوجيهه . قد يتخذ له نواباً ، إلا أنهم بين يديه يتصرف بهم كما يشاء ، فالحكم مركّز في شخصه بالذات .

من يسند الحكم العباسي ؟

والخليفة عربي عباسي وعصبيته لا يمكن أن تكون إلا عربية ، هذا مع أن الحكم يستند إلى قوميات مختلفة ، فهو يحكم بقاعاً من الأرض فيها عدد كبير من الأقوام ، والدين يحضّ أن يكون حكمهم حكماً عادلاً لا تمييز فيه بين الأقوام ، والدين هو الذي وحد هذه الأقوام ، فهي تعيش في كنفه ولا غلبة لأحدها على الآخر في العصر الذي نذكره . هذه الأقوام ثقافتها عربية على الإجمال ، ولغتها عربية ، وهي تحكم من عاصمة عربية ذات ثقافة عربية ؛ ومع ذلك فإن هذا الحكم لا يعتمد على عصبية قومية . (عربية أو فارسية أو إقليمية) ، إنما اعتماده وسنده على الدين ، وإلى جانب الدين حكم

الفرد الذي يسيّر كل شيء بسلطانته ، وبناءً على ذلك فلا يصدق كلام الجاحظ عن العصر الذي نبثه حين يقول : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية » . فدولة بني العباس في هذا العهد ليست أعجمية خراسانية ، وليست عصبيتها خراسانية فارسية ، كما أنها ليست عصبية عربية ، ولعل حكم الجاحظ يصدق على العصر الذي عاش فيه - أي عصر المأمون - فقد وضع فيه الحكم الأعجمي الفارسي في أغلب الأحوال .

كلامنا عن نظام الحكم يؤيد ما رأيناه عن توطيد الحكم ، فكلما الأمرين يسير باتجاه واحد هو إقامة حكم عباسي قوي ، لا تسلط فيه لعصبية ما ، إنما السلطان فيه للخليفة العباسي نفسه وحكمه هو حكم الفرد ، أو حكم السلطان ، وقولنا : حكم السلطان يسري على أدوار الحكم العباسي جميعاً ، وقد يكون السلطان غير الخليفة في الحقب التالية .

وإذا أردنا أن نخرج مما قلناه برأي ملخص ومقارنة بين الدول الإسلامية التي سبقت والدولة التي تتكلم عنها قلنا : إن حكم الخلفاء الراشدين هو حكم الشورى في دولة دينية ، وحكم الخلفاء الأمويين هو حكم الفرد في دولة عربية ، أما حكم العباسيين فهو حكم السلطان في دولة إسلامية .



استدراك المنقح :

١ - حذفت كلمة المطلق من بعد حكم الفرد ووضعت بدلاً عنها المقيد بشريعة القرآن الكريم . لأن الخليفة مها قوي نفوذه وعلا سلطانه فإنه لا يمكن أن يحكم حكماً مطلقاً ، ما دام حكم الله قائماً . وقد رأينا في حالات كثيرة رجوع الخليفة إلى جادة الصواب ! إذا نبّه إلى خطئه الذي تجاوز به حدود الشرع .

٢ - إني لا أستطيع أن أدرك أن الخليفة العباسي في الدور الأول تمكن أن يحكم حكماً فردياً معتمداً على الدين فقط دون أن تكون له عصبية تسنده وتحميه . نعم لم تكن العصبية قومية في هذا الدور (عربية أو فارسية) ، وإنما كانت عصبية مسلمة اتسعت قاعدتها وصار لها رأي سياسي . وسنرى أن بنية هذه العصبية ستصبح فارسية في عهد المأمون ، ثم تصبح تركية في عهد المعتصم ؛ وستتحول من عصبية ذات رأي سياسي إلى عصبية ذات قوة عسكرية تحمي الحكم بقوة السلاح .

إذاً من الصعب أن ننكر وجود العصبية .



عصر المهدي والهادي

هذا العصر استمرار لعصر المنصور

رأينا في البحث السابق ما قام به أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور من توطيد الحكم العباسي ، ورأينا اتجاهها وفكرتها الأساسية ، ثم رأينا تنظيم أبي جعفر المنصور للحكم العباسي ، وما كان له من رأي وترتيب ، ومنتقل اليوم إلى البحث عن خليفتي تبعاً لأبا جعفر المنصور واستفادة مما فعله ، وأكملنا عصره مع اختلاف يسير في الاتجاه ، وهما المهدي والهادي .

شغل عصر هذين الخليفتيين بقضية عامة وهامة ، وهي ملاحة الزنادقة ومحاربتهم ومحاولة إبادتهم : هذه القضية العامة وسمت عصرهما وجعلت عصر الهادي صلة لعصر المهدي واستمراراً لنط الحكم : إلا أن كل عهد منها يتميز بما ينعكس عليه من أخلاق كل منها ، فالمهدي كان لين الطبع متسامحاً ، بينما كان الهادي قاسي الطبع جافياً .

عهد المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ)

نتناول أول الأمر البحث عن خلافة المهدي وعن صفة حكمه واتجاهه وأعماله . إن المهدي استفاد كل الاستفادة مما قام به والده أبو جعفر المنصور ، فقد وجد الخزان مليئة بالمال ووجد الأمن مستتباً مستقيماً ، ووجد الناس خاضعين للخليفة يأتمرون بأمره ويهابونه . استفاد المهدي من عصر الخلافة العباسية (٤)

كل ذلك ، ثم برزت شخصيته في حوادث عصره وترتيباته ، هذه الشخصية هي شخصية الرجل اللين الجانب ، المحب للناس ، ينشد ودّ الناس له وإقبالهم عليه ، يستحيي منهم ويحرص على محبتهم . هذه الصفة طبعت بطابعها أعمال^(١) المهدي وشكل السياسة التي اتبعت بها ؛ إلا أن هذه الصفة لم تكن ذات أثر خاص في معاملته للزنادقة ، فقد كان في هذا الأمر قويّ الجانب ، يبطش ببطش من لا يخاف ولا يخجل .

سنرى أثر كل من هذين الاتجاهين : أما لين جانبه ومحبته للناس وطلبه ودّهم ، فقد كانت سياسته تبغي تآلف القلوب والتودد إلى الناس والحصول على رضاهم ومحبتهم . وقد استطاع المهدي أن يصل إلى بغيته في ذلك . فكان محبباً إلى الناس ، مقرباً إليهم . والذي فعله في ذلك هو أنه قبل كل شيء تودّد إلى الأعداء ، فأطلق سراح المسجونين الذين سجنهم والده لأسباب سياسية ، لا لأسباب شرعية ، أطلق هؤلاء وأعطاهم الحرية بعد أن كانوا معذبين في السجون ؛ ثم إنه استعمل السياسة نفسها ، سياسة الود مع أتباعه وقواده وأهله ، فهو قد فرقّ المال على أصحابه ، أخذه من الخزائن المليئة ووزع منه بسخاء . وقد ذكر عنه أنه جلس يعطي جوائز تقسم بحضرته في خاصته من أهل بيته والقواد ، فكانت تقرأ عليه الأسماء ، فيأمر بزيادة العشرة الآلاف والعشرين ألفاً ، وما أشبه ذلك (الطبري ٦ / ٣٩٤) وكان هذا سنة ١٦٩ هـ . ثم إنه ردّ القطائع لأهله من البيت العباسي ، وكانت قد صودرت منهم (وهي كبيرة جداً) . أما مع الشعب فقد اتخذ طريقة صالحة في معرفة آراء الشعب .

(١) يبدو أن المنصور وجه المهدي هذه الوجهة الحسنة وأراد أن يبيّن للمهدي عهداً مريحاً ، فقد ذكر ابن الأثير (٦ : ١٠) النص التالي : « قال [المنصور] للمهدي : قد هيأت لك شيئاً ، فإذا أنا متّ فادع من أخذت ماله فأردها عليه ، فإنك تستحمد بذلك إليهم وإلى العامة » - المتنح .

فقد فتح سجلاً للمظالم ، وأسس ديواناً له ، وفتح شبّاكاً خاصاً في قصره للرقاع ، تقدم إليه شكاوى ومطالب . وكان يجلس للمظالم في كل يوم ، وكان يحضر مجلسه القضاة ، وكان يقول : « إن لم أستح من أحد فإنما أستحي من هؤلاء » . وكان يرد المظالم إلى أهلها .

انتهاج سياسة الودّ

واستعمل سياسة التودد مع أهل الحجاز بصفة خاصة ، فالحجاز موطن آل علي^(١) والأنصار . وكان الأنصار ميالين إلى آل علي ؛ وكانوا جميعاً متذمّرين من عصر أبي جعفر المنصور لشدته ، وإذا بالمهدي يجود عليهم بالمال بسخاء . يقول الطبري : « وقسم المهدي بكّة في أهلها فيما ذُكر مالا عظيماً ، وفي أهل المدينة كذلك ، فذكر أنه نظر فيما قسم في تلك السفرة ، فوجد ثلاثين ألف درهم ، حُمِلت معه ، ووصلت إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ، ومن الين مائتا ألف دينار ، وقسم ذلك كله ، وفرض من الثياب مائة ألف ثوب » . (الطبري ٦ / ٣٦٦ من حوادث سنة ١٦٠ للهجرة) . إنه بنى المنازل على طريق مكة ، وسهل الوصول إليها . وأقام المصانع^(٢) في طريقها ، ووسع أعماله في ذلك كل التوسيع .

إنه تودّد إلى الأنصار ، فاصطفى لنفسه منهم خمسمئة رجل وألحقهم بشرطته وحرسه ، يدافعون عنه ويحرسونه ؛ وأغدق عليهم العطاء والأموال ، وبكل ذلك دان له الحجاز . فأرسل عدداً من الزيدية ولاة في الأمصار ، وكان هذا الأمر لا يحدث لهم من قبل ؛ ودامت صلاته حسنة مع آل علي حتى آخر حياته .

(١) سلاحظ القارئ أنني وضعت (آل علي) عوضاً عن (العلويين) حيث وردت : فعلت ذلك لأميز بين

المفهوم القديم والمفهوم المتأخر لهذه الكلمة - للنقح .

(٢) المصانع : يقصد بها صهاريج الماء .

محاربة الزندقة

هذه سياسته في التودد وتآلف القلوب ، وقد نجح بها كل النجاح ، وقاده إليها طبعه اللين وحبه للناس بقصده ورغبته في محبتهم له ، أحبه هؤلاء ورأوا فيه خليفة صالحاً كل الصلاح . غير أن هذا اللين في الجانب ينقلب فيصبح شدة وقسوة على الزنادقة ، الذين كثروا في عصره . وأخذت حركاتهم أشكالاً عديدة : فهي تارة إلحاد ، وطوراً تهكم بالدين وأهله * وطوراً اعتقاد خاطئ . ويلاحظ أن الزندقة تتجه نحو الإلحاد أكثر مما تتجه نحو الأطوار الأخرى .

نتحدث فيما يلي عن بعض فئات الزنادقة :

المانوية : دين وضعه ماني في القرن الثالث الميلادي ، وضعه على أساس التشنية ، الإيمان بالتشنية [النور والظلمة] . ولسنا هنا بصدد البحث عن المانوية بحثاً مفصلاً ، فذلك يأتي في برنامج آخر ، عند البحث في تاريخ الأديان ، لكن الذي يجب أن نقوله هنا : إن المانوية في عصر المهدي كانت تتجه اتجاهها خاصاً ، ولها تعاليم وطقوس خاصة ، ولعل بعض هذه التعاليم ليس له أصل في عصر ماني نفسه . نجد المهدي نفسه يحدد أمر الزنادقة حين يوصي ولده الهادي في شأنهم ؛ وإليكم ما قاله الطبري في ذلك على لسانه (٦ / ٣٤٣ سنة ١٦٤هـ) : « تجرد لهذه العصاة فانها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم وعدم مسّ الماء الطهور ، وترك قتل الهوامّ تورّعاً وخشية ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأمهات والبنات ، والاعتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية

النور ، فارفع فيها الحشب وجرّد فيها السيف » . فالمانوية إذاً في عصر المهدي تقوم على الزهد والرهينة ، ولكنّ فيها نوعاً من انتهاك الحرمات إلى جانب خروجها عن التوحيد .

وقد حارب المهدي هذه الفئة محاربة شديدة ، وشملت تدابير القمع والإبادة كل متزندق ملحد منتهك للحرمات . الذين انتموا إلى الزندقة كان أكثرهم فرسا ، ولم تكن غايتهم دينية فحسب ، بل كانوا إلى جانب ذلك يدعون إلى الشعوبية ومحاربة العرب والعروبة ، ويسلكون إلى ذلك سبيل السخرية والضحك من كل ما هو عربي . إن تهكمات بشار بن برد وصالح ابن عبد القدوس وأمثالها يمكن أن تؤخذ مثلاً على ذلك . حارب المهدي هذه النزعة محاربة شديدة ، ونظم ملاحقة الزندقة تنظيماً دائماً ؛ فعهد إلى أحد أصحابه بتتبعهم وسماه صاحب الزنادقة وهو عمر الكلواذي^(١) ، ويذكر لنا الطبري (٦ : ٢٨٩ حوادث ١٦٧ للهجرة) : « جدّ المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولّى أمرهم عمر ، فأخذ^(٢) يزيد بن الفيض كاتب المنصور ، فأقرّ فيما ذكر^(٣) ، فحبس ، فهرب من الحبس ، فلم يقدر عليه » .

لعل هذه الحركة كانت لها صلة بما كان يحدث من مؤامرات في بلاد فارس وخاصة في مرو فإلى هذه البلدة بعث المهدي عبد الجبار المحتسب لجذب من بتلك الناحية من الزنادقة ، ففعل وأتاه بهم وهو بدائق ، فقتل جماعة منهم وصلبهم ، وأتى بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين ، وذلك بعد أن انتهى أمر المقتنع .

(١) ذكره ابن الأثير (الكلواذي) - المنقح .

(٢) (كنا) والقصد : أخذه بالزندقة أو أخذه - المنقح .

(٣) القصد من هذه الكلمة : « ذكر عنه » . ١١ : ١٠٠ قه - المنقح .

ثورة المنقح

أما المنقح^(١) فهو رجل قصير دميم خرج بمرور وأدعى الألوهية ، فقال : « إن الله خلق آدم على صورته ، ثم انتقلت هذه الصورة إلى الأنبياء واحداً فواحداً ، وانتقلت إلى أبي مسلم ثم إليه » . ولما كان دميم الحلقة ، فقد وضع قناعاً من الذهب على وجهه ، أخفى به وجهه حتى لا يراه أتباعه . قال بالتناسخ ، وتبعه خلق كثير وخضعوا له وآمنوا به ، فأرسل إليه الخليفة جيشاً بقيادة معاذ بن مسلم ، فحاصره في مدينة سبام ، فتحصن بها ولما لم يجد مخرجاً ، جمع كل الأموال والمؤمن التي كانت في تلك المدينة من ثياب وغيرها ، وأحرقها في النار ، وطلب من أتباعه وأهله وأولاده أن يلقوا بأنفسهم معه في تلك النار ، وقال لهم : « من أراد النعيم فليلحقني إلى النار » ورمى بنفسه فيها ، فرمى أصحابه بأنفسهم واحترقوا جميعاً ، ولما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا فيها شيئاً .

ومن أعمال المهدي التي قد ننسبها إلى محبته للدين وإلى القضاء على كل انتهاك له ، هو أنه ردّ نسب آل أبي بكر من ثقيف إلى ولاء رسول الله ، وردّ نسب آل زياد بن أبيه إلى سمية وألحقهم ببني ثقيف ، وأبطل نسبتهم إلى أبي سفيان^(٢) .

هذا ما نقوله في المهدي وفي الأعمال التي قام بها من سياسة داخلية تودد بها إلى الناس وحببهم بالخلافة العباسية ، فقضى على الضيق الذي كان في عصر والده ، واستقبل الناس الخلافة العباسية باستبشار بعد كبت .

(١) راجع قصته في ابن الأثير (٦ : ص ١٢ و ١٧) - المنقح .

(٢) ابن الأثير (٦ : ص ١٦) - للمنقح .

الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ)

ملاحقة الزنادقة

أما ابنه الهادي الذي أصبح خليفة بعد وفاة أبيه عام ١٦٩ للهجرة فقد تتبع الزنادقة على طريقة والده وبوصية منه خاصة ، تتبعهم بشدة كبيرة ، يقول الطبري (٦ / ٤٠٨) : « وفي هذه السنة اشتد طلب موسى الزنادقة ، فقتل منهم جماعة فكان من قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين ، وابنه علي بن يقطين من أهل النهروان . ذكر عنه أنه حج ، فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون ، فقال : « ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر » . فقتله موسى ثم صلبه . وقتل من بني هاشم يعقوب بن الفضل وقد اعترف بالزندقة ، ووجدت فاطمة ابنة يعقوب حبلى منه وأقرت بذلك ؛ ففي الحادثة الأولى قتل من امتهن الحرمات وضحك واستهزأ بها ، وفي الثانية قتل من أعضاء أسرته وأهله من أخذ بالزندقة .

معاملته :

سياسته في الزندقة إذا صلة لسياسة والده ، إلا أنه اختلف عنه في معاملته للناس ، فقد كان طبعه مختلفاً عن طبع والده ، كان والده لين الجانب محبباً إلى الناس ، وكان هو شرساً في معاملته ، جريئاً قاسياً شديداً ، لا يهتم بالناس ، ولا يهتم بما يقولون عنه ؛ وكانت سياسته متمشية مع أخلاقه وطبعه ، خالف سياسة والده في تألف قلوب آل عليّ ، فتتبعهم وقسا عليهم ، وقطع عنهم الصلات والعطاء وجفاهم ، وجفاهم عماله أيضاً . فكان من ذلك ومن غيره أن خرج الحسين بن علي (من سلالة الحسن بن علي) في المدينة عليه ، واستولى على بيت مالها وتبعه خلق ؛ فأرسل إليه

من حاربه في فخ^(١) فقتل فيها . يذكّرنا مقتله فيها بمقتل الحسين بن علي^(٢)
في كربلاء .

كان طبع الهادي هو الذي يميل عليه سياسته ، لكنه يمثل مجمل السياسة
العباسية في ذلك ، فهي سياسة تتبّع آل علي ومنعهم من إظهار أمرهم .



(١) فخ : واد في طريق مكة ، يبعد عنها ستة أميال - المنقح .

(٢) لقد قيل كثير من القصائد في الرثاء وتذكر فاجعة كربلاء - المنقح .

عهد الرشيد

١٧٠ - ١٩٣ هـ

ازدهار الحضارة

يمثل عهد الرشيد في التاريخ العربي الإسلامي أزهى عصر وأجل زمن وصلت فيه الدولة إلى أوسع رقعة . انصبت فيه التيارات الثقافية المختلفة الناشئة قبل ذلك العصر ، فاجتمعت متوأمّة ، وبدت في أجود مراحل حسنها وبهائها ، فكان عصره حقاً أبهى العصور ، مثّل لنا الكمال والبهاء في التاريخ العربي الاسلامي ، ومثّله أيضاً على هذا المستوى في التاريخ العالمي ، فالغربيون حين ينظرون إلى تاريخنا ، يرون هذه الفترة أجمل مراحل تاريخنا .

منحى التطور التاريخي

ومع ذلك يجب أن نلاحظ أيضاً أن هذا العصر على حسنه وبهائه هو عصر انطلقت فيه تيارات منافية جديدة هي تيارات الانحلال والانشقاق ؛ ومنذ هذا العصر بدأ نجم التاريخ عندنا يسير نحو الأفول . يبدو ذلك غرباً إلا أنه واقع صحيح : فنذ عصر الرشيد أخذت المملكة تنشق ، وأخذت الدويلات تتأسس في مشرق الدولة ومغربها مستقلة متباعدة عن المركز . ما الذي جعل هذا العصر يأخذ هاتين الصفتين : يعلو حتى يبلغ أعلى نقطة في الارتفاع ، ثم يبدأ في الهبوط وكان جديراً به ألا يهبط ؟ .

لنبحث عن معنى هاتين الصفتين وعن أسبابها ، وعمّا دعا إلى أن تكونا كذلك . يبدو أنه ليس من الغريب أن يكون هذا العصر زاهياً ، فقد كان كل شيء يدعو إلى أن يكون كذلك ، فالخلافة العباسية قد استقرت - واتزنت ، وزال أعداؤها ؛ وتوطدت أركانها ، وسمت أحكامها ، فهي فيما يتعلق بالعمران أصبحت عامرة بمدنها وطرقاتها ووسائل النقل فيها ؛ امتلأت بالبضائع تأتيها من أنحاء العالم . عمرت خزائنها بالخراج يجمع ، والضرائب تحصل ، فلا توقّف في ذلك ولا اضطراب . أما في ميدان السياسة فقد تمهدت الأمور تماماً ، كما رأينا فليس من نزاع خطير بين الجماعات ظاهر ، وهما هم أولاء العرب والفرس كفّوا تقريباً عن النزاع بعد أن كان الواحد منهم ينظر إلى الآخر شذراً . ثم هاهم أولاء المخاصمون للدولة والخارجون عليها قد استكانوا إلى حدّ ما ، بما فعله المهدي من تودد وتآلف . وقد يظن أن الهادي قد ضرب هذا الهدوء في موقفه من آل علي ، ذلك الموقف المتشدد ، ولكن مع ذلك فإن دولة الهادي لم تستمر طويلاً ، فلم يفسد ما أحدثه والده . أما الخوارج الذين كانوا يقضون مضجع الدولة من حين لآخر ، فقد أفل نجمهم وخفّ أثرهم ؛ وهم إذا خرجوا ، فإنما يفعلون ذلك بدافع من شدتهم ؛ وصار أملهم بالنجاح ضعيفاً .

الحركات الثورية

عصر الرشيد إذاً هادئ تقريباً من حيث الخروج على طاعة الدولة ، ومن حيث الثورات الأهلية والقتل . اللهم إلا ما يحدث في كل عصر مما لا بدّ منه . وقد حدث فعلاً أن خرج يحيى بن عبد الله العلوي في الديلم . ثم اشتبه الرشيد في موقف موسى الكاظم بن جعفر الصادق في المدينة فحبسه . وحصل في هذا الدور نزاعات بين المضرية واليانية في

الشام ، لكن هذه الحوادث جميعها لم تكن تهدد الحكم مباشرة . فهي نزاعات محلية ، وثورات مؤقتة .

وضوح نظام الحكم

أما من حيث التنظيم الإداري فقد استتب الأمر بالوزارة والدواوين ترتيباً وتنظيماً ، وإن عصر هارون الرشيد في ذلك يبلغ الشأو ، توضحت فيه أعمال الوزارة وتحددت صلاحيات الوزير ، وصارت الدواوين تسجل وتراقب ، ولها أصحاب مختصون وفروع منسقة .

التقدم العلمي

أما من حيث العلم ، فإن هذا العصر يرى نهراً من تيارات في الرقي العلمي . وليس صحيحاً ما قيل إن عصر بني أمية غير زاہ من حيث الرقي العلمي ، فقد دفع إلى العصر العباسي بقدر هائل من المعرفة ونظر واسع في العلوم الدينية والعربية والتاريخ . ثم دفع الدور العباسي الأول إلى عصر هارون الرشيد ثروة كبيرة من العلم والمعرفة في اللغة والأدب وترجمة علوم الأوائل . فانصبَّ إذًا في بحر هذا العهد أنهار من العلم ، ونتج عن ذلك بحر هائل من المعرفة ، فظهرت محاسن التأليف ؛ وهذه هي البصرة وبغداد والكوفة تخلد عدداً كبيراً من العلماء ، تعدادهم يطول .

أما في شؤون الدين فقد استتب الأمر أيضاً فالزنادقة قد كُبحوا ، فوقف أمرهم . ولم يعودوا بقادرين على الظهور ، وأصبح للدين كلمته بين الشعب ، وخفَّ الاستهزاء بالمتدينين عما كان عليه قبل عدد من الأعوام .

بدء تفكك الدولة العباسية

كل هذا يدلنا دلالة واضحة على أن هذا العصر عصر خالد باهر زاه ؛
إلا أن التفكك بدأ في هذا العصر أيضاً . وأسبابه أتت من عاملين :

(١) طبيعة اتساع رقعة الدولة العباسية .

(٢) أثر سياسة الرشيد في الحكم .

أما طبيعة الوطن العربي الإسلامي فقد كان من الصعب أن تستمر الوحدة في أرجاء تلك الدولة التي امتدت إلى الأصقاع النائية . فهل يستطيع الخليفة ووزراء الخليفة أن يراقبوا المغرب الأقصى وأن يستعيدوا أمرهم في الأندلس ، وهما بعيدان كل البعد عن بغداد . إذا ظهرت فتنة في هذين القطرين وأراد الخليفة أن يرسل جيشاً ؛ فالجيش لا يبلغها إلا بعد شهور وشهور . وإن أراد أن يراقب الأحوال فيها عن طريق عيونه أو عماله ، فإن الأخبار لا تبلغه إلا بعد أمد طويل . فركز الخلافة البعيد عن الأطراف يفرض استحالة تطبيق النظام المركزي في الأصقاع النائية ؛ وإن كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يرسل عمالا له يثق بهم ، فيراقبهم بين الحين والحين ليبقوا مخلصين له ؛ ولكن متى شعروا بقوتهم في عزلتهم هذه ، فإنهم لا محالة يطمحون إلى التمتع بالحكم الذاتي . طلب إليه واليه من الأغلبية أن يترك له جباية الأموال وإدارة الأعمال في المغرب . وهذا يعني استقلاله عن المركز ؛ فرضي الخليفة به مضطراً^(١) .

أما أثر أسلوب حكم هارون في تفكك الدولة ، فقد أتى من حادثة

(١) اضطر الخليفة للاستجابة قاصداً أن ينشئ دولة على حدوده تكون بمثابة الدرع تجاه الدولة الأموية في الأندلس والأندلس في المغرب . (المنقح) .

سنورد تفصيلها فيما بعد ؛ وهي أنه قسم الدولة بين أولاده فجعل كل واحد منهم مستقلاً عن الآخر ؛ شعرت خراسان في عهده وعهد ابنه المأمون باستقلالها ، فكان أن تمسكت بهذا الاستقلال في كنف الدولة الطاهرية . وهذا الحادث بالذات حدث توزيع الحكم بين ولدين من أولاد الرشيد أعاد النزاع بين الفرس والعرب ، وقسم الأمر بينهم ؛ فعادت الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه في أول عهد الدولة العباسية .

نقول إن الرشيد ليس مسؤولاً عن اتساع رقعة المملكة ، وصعوبة مراقبتها ، لكنه إلى جانب هذا الوضع الدقيق فإنه ساعد على تشققها ، ولم يفعل شيئاً في المحافظة على وحدتها ، بل ترك الأمور تجري في أعنتها ، وساعد الظروف على نيل امتدادها ؛ فكانت مسؤوليته في ذلك مسؤولية واضحة . لكن الحق يقضي أن نقول إنه لم يكن يقصد ما حصل ولم يتعمده ؛ والسر في الأمر أن لشخصيته أثراً قوياً في تطور عهده ، وأن عهده يتسم بشخصيته وطبعه^(١) .

في طبع هارون الرشيد أشياء متناقضة ، فيها سمو والرفعة ، وفيها ما يخالف ذلك ، هارون الرشيد رجل لطيف غاية اللطف ، يعامل الناس برفق وتودد ، ويحب من الناس أن يعاملوه بحبة وإقبال . إنه متواضع كل التواضع ، حتى أنه صبّ الماء على يدي أبي معاوية الضرير بعد الطعام ، وأبو معاوية لا يدري أن الخليفة يصب الماء على يديه . والرشيد خجول حيي غاية الحياء ، عندما عزم على قتل جعفر بن يحيى البرمكي . طلب جعفر من مسرور أن يجمعه بالخليفة ، وأن تراه عينه ، فعاد مسرور إليه

(١) لست مع المؤلف في المبالغة بأثر شخصية الرشيد في تطور الأحوال السياسية في عهده ، لأنني أعتقد أن الظروف أقوى بكثير من أن يحول أحد في الحد من مداها - المنتج .

وطلب ذلك منه فلم يقبل . وقال بعد ذلك : « لو اجتمعت به ووقعت عيني على عينه لما قتلته حياء » . والرشيد متدين كل التدين كان يحج عاما ويفزو عاما . وهو أول من حج ماشياً على الأقدام . وكان يصلي صلاة في الليل غير مفروضة عليه . ثم هو إلى جانب ذلك يحضر مجالس الشرب ، ولعله كان يشرب النبيذ^(١) على طريقة العراقيين . والرشيد يحب المظاهر والزهو ، وكان يعيش في قصره أرفه عيشة . وكانت أبهة الملك عليه في أقوى أشكالها . وكان فن البناء في عهده مزدهراً ، والمجالس عامرة بالتحف والبخور ووسائل الترف التي لم تجتمع لملك كما اجتمعت له .

وبعد كل هذا فهو رجل له نزوات غضب ، عاطفته جامحة قوية ، تضطرب في نفسه فيوقفها حياؤه وخجله ؛ إلا أنها متى استقرت في نفسه جمحت به ، فثار وضرب . قام بالشدائد واضطهد ، كانت حساسيته قوية جداً ، يثور للقول ، ويثور للفعل ، مع سعي منه بكبح جماح تلك الحساسية ؛ وعلى ذلك فهارون الرشيد يبدو لنا على حقيقته جامعا صفتين متناقضتين : صفة والده المهدي في حبه للناس وتودده إليهم وفي حبه مديحهم وفي دفاعه عن الدين وأخذه به ، وصفة أخيه موسى الهادي في شدته وغضبه وسرعة حساسيته وعنفه . وأرى أن عصره يمثل مجموعاً من عصرهما . ولعلنا لو أردنا أن نجلو عصره بهاتين النزعتين المختلفتين لوجدنا أنه يمكن تقسيمه إلى قسمين : قسم أول تتغلب فيه صفة التودد والحب ، وقسم تتغلب فيه صفة الغضب والجبروت ينتهي القسم الأول بمقتل البرامكة ، ويبدأ القسم الثاني من مقتلهم .

(١) النبيذ غير الخمر ، فهو يحصل من نبذ الفواكه في إناء ، يترك لمدة أيام قليلة ، فيفور ، يصفى ويبرد ويشرب ، وهو ليس بمسكر تماماً . المنقح .

وحينما استولى الرشيد على الخلافة ظهرت عاطفته ولطفه ووفاءه .
فقد حفظ ليحيى البرمكي موقفه الحكيم حين دافع عنه أمام الهادي عندما
استشاره هذا في أن ينحي أخاه عن ولاية العهد ، وأن يعطيها ابنه ؛
فنصحه يحيى بالأفعال ، وقدم لذلك حجة جيدة فقال : « إن ابنك صغير
السن ، وإذا دنا أجلك يا أمير المؤمنين لا يؤمن عليه من بني هاشم ،
ولا يؤمن عليه من نفسه لصغره . والأحسن أن تنتظر حتى يكبر ، وأن
تؤكد الأيمان على هارون في أن يرعى ابنك وفي أن يسلمه ولاية العهد ،
فإن فعلت حفظت الأمر له من بعدك » . حفظ الرشيد ليحيى فعلته هذه .
فما أن استولى على الخلافة حتى فوّض إلى يحيى كل شيء . وقال له - كما جاء
في الطبري ٦ / ٤٤٤ - « لقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقي
إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل
من رأيت » وفي سنة ١٧٨هـ كما يروي الطبري (٦ / ٤٦١) عاد فكره هذا
الأمر ، وفوّض شؤونه كلها إلى يحيى بن خالد البرمكي ، فهو إذاً كان في
وفائه مغالياً كل المغالاة ، فقد ترك الأمور كلها في يد يحيى . وبقي هو
الخليفة بالاسم . تجلت له حقيقة الأمور يوماً من الأيام ، وإذا به يقتل
جعفر بن يحيى - كما سنرى - ، ويلقي القبض على كل البرامكة ما عدا واحداً
منهم . وإذا به ينقلب منذ ذلك الحين فيستعمل البطش ويصادر الأموال ،
حتى من غير البرامكة . ولو أنه قصر الأمر عليهم لكان له عذره الذي لم
يوضحه ، لكنه تعدى هذا إلى غيرهم ، ففي السنة التي قتل فيها جعفر ،
اضطهد الرشيد عبد الملك بن صالح قائد وواليه الوفي له ، اضطهده
اضطهاداً شديداً وكاد يقتله ، وقتل في الحبس يحيى بن عبد الله من آل
الحسن وموسى بن جعفر الصادق أو تركها يموتان بعلقة ما . وهذا ما لم
يفعله قبل نكبة البرامكة . تغير إذاً بعد تلك النكبة ، وأمسك بزمام الأمور

بيده ، وصار لا يعتمد إلا على نفسه . ويراقب كل شيء وبدت نزواته .
خفّ إلى قتال الروم مرتين ، وخفّ بنفسه إلى قتال الخارجين عليه . سرى
في البحث القادم ما حصل خلال عصره ، وكيف اتجهت الأمور . نستطيع
أن نقول منذ الآن إن للرشيّد شخصيتين ، تطفئ إحداهما على الأخرى .
وهما شخصيتان متناقضتان كل واحدة منها قوية شديدة طبعته أعماله
بطابعها الخاص .

العهد الأول للرشيّد

ابتدأ هذا العهد عام ١٧٠ هـ باستيلاء الرشيّد على الحكم بعد أخيه موسى
الهادي ، وانتهى بنكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ .

نكبة البرامكة

رأينا أن الرشيّد في هذا العهد ترك الحكم للبرامكة وتخلّى لهم عنه . فقد
قلد يحيى بن خالد البرمكي الوزارة وخوّله فيها كل سلطان ، يفعل
ما يريد ، يعزل ويعين ويجمع ويفرق كيفما شاء . فالعهد الأول للرشيّد
يتسم بحكم البرامكة ويأخذ صفاته منهم ، لأنّ لهم التحكم به وهم أصحاب
أمره ؛ وهارون الرشيّد إنّما يجاريهم فيه ويوافقهم على ما يتخذونه من
أعمال . نعم ، إن ما حدث في هذا العهد يوافق طبع الرشيّد ويوافق ميوله
في الفرق بالناس ومحبتهم والعفو عنهم والرغبة في إرضائهم . كل ذلك
صحيح لكن ما فعل في هذا العهد ، إنّما هو عمل البرامكة بالذات ، فهم
الذين يحلّون المشاكل ، وهم الذين يتصدون للأعمال ، وهم الذين يسيّرون
الملك .

وانتهى العهد بزوالهم . لكن زوالهم إنما سببه الأساسي هو عهدهم بالذات ، إنه سياستهم نفسها ، وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول أسباب نكبة البرامكة - وسنذكر ما قالوه في ذلك - لكننا نرى بادئ ذي بدء أن تفسير النكبة مرتبط بـ سياسة البرامكة نفسها ، وإذا بحثنا هذه السياسة وجعلنا نواحيها ، يمكننا أن نفهم كيف آل الأمر بالرشيد إلى أن ينكب البرامكة وإلى أن يفعل فيهم ما فعل..

سياسة البرامكة مع آل علي

وتتناول سياسة البرامكة في جوانبها المتعددة ، فنتكلم أول ما نتكلم عن سياستهم مع آل علي ، تلك السياسة كانت سياسة رفق وشفقة ولين وعدم شدة . ففي أول الأمر في سنة ١٧١ للهجرة أمر هارون الرشيد بإخراج من كان في بغداد من آل علي وإعادةهم إلى المدينة إلا عدداً يسيراً منهم (الطبري ٦ / ٤٤٥) والمؤرخون عندما يقولون (أمر هارون الرشيد) إنما يريدون القول إن البرامكة هم الذين قضوا بالأمر . هذا الرفق بآل علي تبعه عمل آخر فيه اللين الكثير ، فقد خرج يحيى بن عبد الله ، [وكان قد فرّ من موقعة فخ] ، فسار إلى بلاد الديلم ، وهنالك اجتمع حوله عدد من الأصحاب والشيعة ، فصار يدعو لنفسه حتى تمكن من الأمر ؛ واشتدت شوكته وقوي أمره ، فأعلن عصيانه وخرج على الدولة ، فسار إليه الفضل بن يحيى البرمكي بأمر الرشيد مزوداً بالأموال والسلاح ، فسار إلى يحيى وصار يرأسه ويتفرق به ، ولم يحدث اصطدام كبير بين الطرفين ، بل آل الأمر إلى أن اقتنع يحيى بن عبد الله بأن يطلب الأمان من الخليفة ، وضمن الفضل ليحيى ذلك الأمان من الرشيد بأيمان مغلفة أداها الرشيد ليحيى ، فسلم يحيى نفسه ، فاستقبله الرشيد استقبالا حسنا ، وأكرمه إكراماً جليلاً . وقع ذلك

عام ١٧٦ هـ . وفي عام ١٧٩ للهجرة ألقى هارون الرشيد القبض على موسى الكاظم بن جعفر الصادق . وكان قد سمع أنه يتلقى من شيعته خمس المال وأنه يهيئ نفسه للخروج . فألقى القبض عليه ، وأتى به إلى بغداد ، وسأله إلى البرامكة ، فاحتفى به البرامكة ، وأكرموه إكراماً جزيلاً ، فلقي عندهم أحسن ما يتمنى . وهكذا نرى أن سياسة البرامكة مع آل عليّ سياسة رفق ولين ، ولعلها سياسة محبة وميل ؛ إلا أننا لا نقطع بذلك .

سياسة البرامكة مع العصبية العربية

أما سياستهم مع العصبية العربية ، فهي سياسة إخماد للفتنة ، إلا أنها لم تستطع أن تقضي عليها قضاء مبرما ، فهذه فتنة بين المضرية واليمانية في الشام . قيل إنها من أجل بطيخة ، فقد تعدى أحد المضريين على بستان يماي وأخذ بطيخة منه ، فتقاتل الاثنان ، وأدى ذلك إلى فتنة استمرت حيناً من الزمن ، وجهاز الرشيد جعفر بن يحيى لتسوية الأمور فسواها ، لكن الفتنة لم يقض عليها تماماً . وعادت مرة أخرى بعد ذلك .

سياسة البرامكة في المال والتنظيم

هذا والسياسة المالية للبرامكة تعطينا فكرة واضحة عن العمل الذي قاموا به وعن اتجاههم ، فهي سياسة جمع للمال لا ريب . وهي سياسة تنظيم للدواوين وجمع المال .

والبرامكة أحسنوا إدارة المال ، لكنهم كانوا ينفقونه إنفاقاً واسعاً جداً ، بحيث كان المال يأتي إليهم ثم يخرج منهم ، ويكاد أن يتم ذلك في ساعة واحدة . والذي يقع تحت أيديهم من المال كان أكثر مما يقع تحت يد الخليفة نفسه ، وكان مال الدولة مالهم ، وكان ضياع الدولة ضياعهم ، والبرامكة لم

يكونوا أصحاب ثروة طائلة قبل الحصول على الوزارة ، وإذا بهم في عهد حكمهم يمتلكون أحسن الضياع ويعمرون أجمل البناء ، وهذا جعفر يعمر قصرًا في بغداد لم يدخل في نائيه لبنة واحدة . ومعنى ذلك أنه لم يستعمل مادة البناء التي كانت تستعمل في العراق ، وأنفق على بيته هذا أموالاً هائلة لا تعدّ ولا تحصى ، وكأنّ لسان حاله يقول فيه : إن كل شيء في هذا البيت حسن إلا أن صاحبه زال من الوجود . وتقصّ علينا الأفايص عن كرم البرامكة وعن بذلهم المال ، والمتأمل في بغداد كان يستطيع أن يرى أكثر محاسن بغداد من عمل البرامكة . وأن الخليفة وأبناءه وأقاربه ليس لهم في بغداد إلا القليل من الكثير الذي يعود للبرامكة .

سياسة البرامكة القومية

هذا والسياسة القومية التي اتبعتها البرامكة في هذا العهد سياسة لها معناها عند من يختبر الأمور ، فقد كان لهم الأمر في التعيين - كما قلنا - ، فعينوا أقاربهم وأصحابهم وأبناء جلدتهم من العنصر الفارسي ، وكانوا يحيطون أنفسهم بالفرس ، ومن الفرس من كانوا من الشعوبية كسهل بن هارون ، وكان كاتبهم ، ثم أدخلوه في خدمة الرشيد في بيت الحكمة . وكان يكتب وينتقد العرب وهو في خدمة الرشيد ؛ ثم هذا هو الفضل بن يحيى يذهب إلى خراسان سنة مئة وثمان وسبعين للهجرة ويكون عاملاً عليها للرشيد ، فيتخذ - على ما يقوله الطبري (٦ / ٤٦٤) - جنوداً من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءه له - أو للبرامكة - وبلغت عدتهم خمسمئة ألف رجل . وأحضر منهم إلى بغداد عشرين ألفاً . وهو جيش يدين للبرامكة ، ويعيش لهم ولأجلهم . بل قيل إن موسى بن يحيى كانت له شيعة في خراسان يرأسهم من بغداد نفسها . ويعلم بذلك الرشيد فيوقفه ويعزّره ،

ولا يطلقه إلا بعد أن تتوسط والدته ، وكانت عزيزة على الرشيد لأنها والدته من الرضاع . ولعل الرشيد شعر أن البرامكة يقومون بأمر في خراسان فاستبعده منها ، وأرسل إليها والياً هو علي بن عيسى بن ماهان حوالي عام ١٧٨ للهجرة ، وكان هذا الوالي خصماً للبرامكة ، ولو أنه فارسي مثلهم ، وكان البرامكة يعطفون على خراسان ، ويخفون الضرائب عنها . وبذلك يقل الوارد منها ، وفي هذا ميل ظاهر وتفضيل لذلك القطر ، وبالتالي للعصبية الفارسية .

سياسة البرامكة الداخلية

خلاصة سياستهم الداخلية في هذا العهد أنها ميل إلى، العنصر الفارسي ، ورفق بآل علي ، وإشفاق على خراسان وتقرب من أهلها ، وهي أكثر من كل ذلك استبداد البرامكة بالدولة وبأموالها . استمروا على هذه السياسة من سنة ١٧٠ إلى سنة ١٨٧ هـ أي سبعة عشر عاماً كانوا هم فيها أصحاب الأمر في الدولة الإسلامية . والخليفة يصدر عن رأيهم ، ويعقدون الأولوية باسمه ، ويكتبون الرسائل باسمهم ، وكل شيء يتم بعرفتهم ويتوجههم . كل ذلك والرشيد يراقب الأمور وهو ساكت أو لعله راض ، إن لم يكن في الباطن ففي الظاهر . وقد حمد لهم أنهم وقفوا إلى جانبه ، ولا سيما منهم يحيى عندما أراد أخوه الهادي إزاحته عن الحكم وتولية ابنه مكانه ، فاستمر في لطفه وحبه لهم سبعة عشر عاماً ، لكن من الطبيعي والعادي والبديهي ألا تستمر الأحوال على ذلك فالرشيد مهما طال به الأمر ، فلا بد أن يأتي عليه يوم يفكر فيه في حاله ويشعر أنه بلا سلطان ، وأنه خاضع لهؤلاء الوزراء . ولا بد أن يسمع من ألسنة الناس شيئاً يدل على الوضع . وحساد البرامكة كثيرون . فلا بد من أن يذكروا للرشيد ما استتر من أعمالهم ، وإن لم يكن

قد قيل له شعر يحرك فيه عنصر القسوة : « إنما العاجز من لا يستيد » فقد قيل له مثل هذا وما حدث في عصر المنصور كان لا بد من أن يحدث في عصر الرشيد . فالمنصور تحمل أبا مسلم الخراساني ، ورأى أن الأمر سيخرج من يده إلى أبي مسلم ، وخشي على الخلافة منه ، وكذا كان الأمر عند الرشيد ، فكان لا بد من أن يزيح هذه الأسرة يوما . ويبحث المؤرخون عن أسباب نكبة البرامكة ... وأسبابها هي ما تقدم من القول في سياستهم نفسها ، فقد كانت حرية بأن تؤدي إلى النكبة ، وإلا ظل الرشيد مغلوباً على أمره . وكان السبب في حدوثه هو السبب البعيد غير المباشر الذي ذكرناه .

ليست النكبة تعني أن الرشيد قد فقد عاطفته نحوهم ، وأنه أنكر جيلهم . لا ، وإنما كان الحادث إنقاذاً للموقف المتدهور .

السبب المباشر

ومع ذلك فإن هناك سبباً مباشراً أدى إلى الحادثة نفسها ، فما هو هذا السبب المباشر ؟ - راح المؤرخون يفسرون هذا السبب ويستخرجون خفاياه ، وقالوا أقوالاً كثيرة : فمنهم من ادعى بأن الأصل زواج جعفر بن يحيى بالعباسة أخت الرشيد ؛ فادعوا أن الرشيد لا يستطيع أن يفارق أخته ، ولا يستطيع أن يفارق جعفرا ، فعقد الزواج بينهما على ألا يكون بينهما ما يكون بين الزوجين ، لكنها - على ما تقول الرواية - خالفا هذا الشرط ، فكان ذلك سببا في مقتل جعفر . هذا السبب غير حقيقي ، حتى ولو صح أن العباسية كانت قد خالفت وصية الرشيد بأن لا يكون الزواج حقيقياً .

يذهب مؤرخون آخرون إلى ذكر أسباب أخرى يعددونها فيقولون :

كانت وشاية الفضل بن الربيع لدى الرشيد في قضية إطلاق سراح يحيى بن عبد الله من آل علي ، لها الأثر الأكبر ، وكانت أموال البرامكة وضياعهم سبباً أيضاً ، وكانت قصائد المديح التي تقال في حقهم سبباً .. ويعدون الكثير من الأسباب الأخرى .

وقد يكون كل ما ذكره ذا أثر في النكبة ، وقد تكون تضافرت جميع الأسباب فأدت إلى النكبة ، لكننا لا نعلم بالضبط والتأكيد كيف فكر الرشيد بقتل جعفر ؟ وكيف انتهى به الأمر إلى ذلك ؟ إن هنالك صعوبة ولا ريب في كشف الأمر ، فهارون قد استمر بقية حياته وهو غير نادم على نكبتهم ، فهو لم يطلق سراحهم حتى بعد أن قتل جعفرأ بزمن بعيد ، وأبقاهم في الحبس وصادر أموالهم إلى آخر عهده ، فتصميمه على إنزال النكبة فيهم لم يكن نزوة أو طيشاً ، وإنما كان صادراً عن سبب عميق ، لم يشأ أن ييوح به الرشيد لإنسان^(١) ، بل أخفاه حتى عن ولديه الأمين والمأمون ، فلم يكن إنسان يدري لماذا قتل الرشيد جعفر بن يحيى ؟ ولماذا نكب البرامكة ؟ مهمة المؤرخ إذاً صعبة في اجتلاء الأمر ، وكان يكفيننا أن نقول إن الأسباب غير المباشرة هي التي دعت إلى ذلك - وقد ذكرناها من قبل - لكن التاريخ يتطلب منا في حادثة كهذه أن نبذل جهدنا في استجلاء الحقيقة ، وأن ندلي بدلونا بين دلاء من حاولوا التعرف على الأسباب الأصلية ؛ ومع ذلك فإنني مع علمي بأنه من الصعب اجتلاء الأمر سأحاول محاولة في ذلك ، لعلها تنير بعض الشيء سبيل الباحث إلى ما حصل

قد يكون في الظروف التي حدثت فيها النكبة دليل على ما كان يخامر

(١) يورد ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠ : ١٨٩) رواية عن تكتم الرشيد في هذا الأمر مفادها : « لو أعلم أن قيصي يعلم ذلك لأحرقتة » - المنقح .

الرشيذ من أفكار وما يواجهه من مشاكل . والمؤرخون بأجمعهم لم يدرسوا هذه الظروف ، ولم يرجعوا إلى الحادثة التاريخية نفسها وما سبقها^(١) من أمور . ولو درسنا حادثة النكبة في مكانها من حوادث عصر هارون لوجدنا أن لها صلة بحادثة أخرى ، وهذه الصلة قد تكون صلة المسبب بالسبب .

كتابة العهد وتعليقه في الكعبة .

نحن الآن في عام مئة وستة وثمانين للهجرة ، وفي هذا العام يحج هارون الرشيد ، وفي مكة يكتب ثلاثة عهود لأبنائه ، أو بالأحرى ثلاثة عهود بأساء أبنائه ، وكان الرشيد قبل ذلك قد عهد بولاية العهد بعد الأمين إلى المأمون ثم إلى القاسم بعد المأمون ، حتى إذا حج عام ١٨٦ هـ جعل كلا من الأمين والمأمون يكتب عهداً على نفسه في قيامه بواجبات عهده وفي قبوله بما اشترط عليه ، وعلق هذه العهود في الكعبة بعد أن أشهد عليها القضاة والقواد والعمال .

أحد هذين العقدين بتوقيع محمد الأمين وبلسانه ، والآخر بتوقيع المأمون ، يشهد كل منها على نفسه أمام الشهود العدول والقضاة والقواد بوفائهما لما في الكتابين . وأول هذين الكتابين يرد في الطبري (١/ ٤٧٦) ونقتطف منه بعض الأقوال ، يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه محمد^(٢) بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره ، طائعاً غير مكره ، أن أمير المؤمنين ولآني العهد من بعده وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولي عبد الله^(٣) بن

(١) أرى أيضاً أن ينتبه الباحث إلى ما تلاها من الحوادث - المنقح .

(٢) أي الأمين .

(٣) أي المأمون .

هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي برضى مني وتسليم طائعا غير مكره ، وولاه خراسان وثغورها وكورها وحررها وجندها وخارجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وجميع أعمالها في حياته وبعده ...^(١) فإن حدث بأمر المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون ... ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحول عنه (عن أخيه المأمون) قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن انضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ؛ ولا يحول عبد الله عن ولايته التي ولاه إياها هارون من ثغور خراسان وأعمالها كلها .. ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ، ولا يولي عليه أحداً . ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره ، بندارا (مقتشأ) ولا محاسباً ، ولا عاملاً ، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً ... فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلع عبد الله بن أمير المؤمنين ولاية العهد من بعده ، أو عزل عبد الله بن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها ... أو صرف أحد من قواده .. أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله له أمير المؤمنين ... فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين و [له] الطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين ، وأنتم في حيل من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون ... » إلى آخر ما ورد في هذا الكتاب .

ويظهر من هذا النص واضحاً التشديد على الأمين في القيام بالوفاء

(١) النقاط المتتالية تشير إلى انقطاع في النص . لم يثبت هنا من النص إلا ما له علاقة وثيقة بالموضوع .

للمأمون ، وذلك التشديد يذهب إلى درجة يجعل فيها الأمين خارجاً على الخلافة بعيداً عنها إن هو انتقص شيئاً مما في الكتاب . أما الكتاب الآخر ، ففيه التشديد أيضاً ، إلا أنه مبني على قيام الأمين بوفاء عهده ، يقول في الكتاب (الطبري ٦ / ٤٧٩) عن لسان عبد الله المأمون : « فشرطت لأمر المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع .. وأنفذ كتبه وأموره ، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ، ما وفي لي بما شرط لأمر المؤمنين من أمري .. فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه .. فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه .. الخ » هذا ملخص ما كتبه المأمون للأمين . وظاهر أن الرشيد شدد البيعة لكلا الأخوين على الصورة التي ذكرناها ، وكتب كتاباً بعد ذلك عندما عاد إلى الأنبار . كتبه إلى الولاة والعمال يخبرهم بما تم . ويذكر فيه أنه عمل هذا ، لينع كيد الحاسدين ، وليوقف حقد وسعاية من يحرك بين الأخوين ، وليحد من أثر الشغب الذي قد يثيره بعض الناس .

ما هو غرض الرشيد من كتابة العهد ؟

والسؤال الآن : ما الذي دعا الرشيد إلى عمل هذين الكتابين ، وإلى الوقوف هذا الموقف ؟ إن الحوادث التي جرت قبل ذلك تفسر لنا الأمر . ففي عام ١٧٣ هـ كان الرشيد قد اشتهر من بعض بني العباس رغبتهم في أن تكون الخلافة لهم من بعده ، وكان بنو العباس قد بلغوا في عهد الرشيد عدداً كبيراً ، وليس بين أيدينا إحصاءات عنهم في هذا العهد . إلا أن المأمون أحصاهم بعد ذلك . فكان عددهم جميعاً ثلاثة وثلاثين ألف شخص بين ذكر وأنثى ، ولو أن عددهم في عصر الرشيد كان نصف هذا العدد ولكن مع ذلك فهم كثيرون وذوو بأس . وأراد الرشيد أن يوقف اجتماعهم فبحث عن ولي

للعهد ، فأقبلوا عليه مع زبيدة يرجونه بأن تكون ولاية العهد للأمين دون
 المأمون . وكان الأمين في الخامسة من العمر ، ثم تفاقم بعد ذلك أمر البرامكة
 كما نعرف . وأصبحت الدولة في أيديهم وصار كل شيء لهم ، فثارت ثائرة
 العباسيين ، إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً ، فكونوا لأنفسهم نوعاً من
 العصبية ، والتفوا حول زبيدة امرأة الرشيد ، والتفوا حول الأمين . ففيه
 أملهم ، فهو ابن هاشمي من الأب والأم ، وزبيدة ما كانت تحب البرامكة .
 شعر البرامكة بهذا الخطر ، فوسوسوا للرشيد بأن يولي ولاية العهد من بعد
 الأمين للمأمون ، أخذ الرشيد برأيهم . فولاه ذلك سنة مئة وثلاث وثمانين
 للهجرة ، وصار كل من الحزبين يجتمع حول ولي العهد ، ويوجهه وجهته ،
 فالعباسيون ومعهم زبيدة التفوا حول الأمين ، ومعهم الفضل بن الربيع عدو
 البرامكة ؛ أما المأمون فحول جعفر بن يحيى البرمكي ، وحوله البرامكة .
 تفاقم الأمر بين الحزبين وأضر الشر كل منها لصاحبه ، وشعر بذلك
 الرشيد ، والحزبان هما أولاً : حزب عباسي ، وثانياً حزب برمكي . غير أن
 الحزب البرمكي له ميول خاصة ، ظهرت ميوله للرشيد في شأن آل عليّ ،
 فالبرامكة كانوا يعطفون عليهم ، وقد ذكرنا من قبل قصة خروج يحيى بن
 عبد الله في الديلم ، وموقف الفضل وأخيه جعفر البرمكي منه ، وموقفهم مرة
 أخرى من موسى بن جعفر الذي أسلمه الرشيد إليهم ، فإن هذا الحزب إذاً
 حزب (برمكي - علوي) إن صحّ هذا التعبير . شعر الرشيد بتغلبهم على
 الدولة كما ذكرنا ، وشعر بميلهم العلوي ، وشعر بأنهم يوجهون المأمون
 وجهتهم ، حتى تشرب بحب آل علي ونقل ولاية العهد إليهم ، كما سئرى ذلك
 في عهده . لقد اعتمد الرشيد عليهم اعتقاداً كبيراً وماذا يفعل ؟ إن أمامه
 أمرين لتحقيق رغبته : أولاً : أن يزيح من الطريق عوامل الفساد بين
 الأخوين ، وهو لا يستطيع أن يزيح العباسيين ، وإمرأته من حزبهم ، وهم

لم يبدوا نحوه أي عمل سيئ ، لكنه يستطيع أن يزيح البرامكة وقلبه ممتلئ
منهم ، فإذا أزاحهم ، فلن يكون هناك من يوغر صدر المأمون على الأمين ،
ولا يجد حزب الأمين في المأمون عدواً ، وبإزاحتهم أيضاً يبعد السيل
العلوي ، وبإزاحتهم أيضاً يعود الأمر إلى يديه . فيصبح الخليفة الفعلي بعد
أن غدا الخليفة الاسمي . وثاني الأمرين أت من أن المأمون سيبقى وحيداً
أمام أخيه دون حزب يعاضده إذا أزيح البرامكة ، فعلى الرشيد (إذا قوي
المأمون بأخذ عهد شديد وإيمان موثقة على الأمين) أن يوازن بين
الأخوين ، ويكون ذلك بعدم إعطاء المأمون قوة يواجه بها الأمين .

كان الرشيد قد ولّى المأمون خراسان ، لكن ماذا يستطيع المأمون أن
يفعل بخراسان إذا استولى أخوه الأمين على الخلافة ؟ فكر الرشيد فرأى أن
يضم إليه جيشه ، وهو في معظمه جيش خراساني ، ورأى أن يؤكد على
الأمين أن هذا الجيش بكامله (قواده وأمواله) للمأمون ، ولا يستطيع الأمين
أن يأخذ منه شيئاً ، وبذلك تتساوى الكفتان ولا ترجح إحداها على
الأخرى ، فللأمين العراق إلى المغرب ، وللمأمون خراسان وجيش خراسان ،
فكر الرشيد بذلك وحققه وأكد العهد على الأمين والمأمون .

ينتهي من كل ذلك ثم يعود إلى العراق فلا يدخل بغداد ، بل يسير
إلى ناحية الأنبار ، وهناك يرسل كتباً إلى عماله في أقطار دولته يعلمهم فيها
بما فعل في مكة . ويؤرخ هذه الكتب ليلة السبت لسبع بقين من المحرم سنة
مئة وسبع وثمانين ، ويضمن هذه الكتب الإشارة إلى كيد الأعداء وتخريب
آمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها ، فيقول : « ويستخير الله أمير
المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لها ولجميع الأمة والقوة
في أمر الله وحقه ، وإئتلاف أهوائها وصلاح ذات بينها ، وتحصينها من كيد

أعداء النعم ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بيتها » (الطبري ٦ : ٤٨١) من هم هؤلاء الحاسدون المكيدون الذين يوقعون بين الأخوين ؟ - الذي يخطر بالبال أنهم البرامكة ، ويظهر ذلك من الظروف التي أحاطت بإرسال الكتب إلى العمال . فلنذكر أن هذه الكتب وفيها التنديد بالأعداء الذين يتربصون الفرص قد أرسلت دون أن تحمل اسم جعفر البرمكي مع أن الكتب كانت تصدر دوماً باسمه . ولنضف إلى أنه لم يمس على إرسال هذه الكتب أسبوع واحد حتى قتل جعفر وذلك يوم السبت أول ليلة من صفر سنة ١٨٧ هـ

ليس كل ذلك يبين الاتجاه ، واضح المغزى ، في أن البرامكة من الحاسدين الساعين بالفساد بين الأمين والمأمون . ولنا في نكبة أخرى مشابهة وقعت في الزمن نفسه تقريراً بيان ودليل على ذلك الاتجاه . فهذا هو الرشيد ينكب ابن عمه عبد الملك بن صالح . ولما سئل لماذا نكبه قال : « بلغني عنه ما أوحشني ، ولم آمنه أن يضرب بين ابني هذين » (الطبري ٦ / ٤٩٨) فإذا كان لابد من سبب مباشر لنكبة البرامكة ، فأحرى أن يكون الخوف من سعي البرامكة في الإيقاع بين الأخوين كما خيف من عبد الملك بن صالح . ويظهر لنا موقف الرشيد من البرامكة في شأن أولاده وخوفه منهم عليهم في قوله عن البرامكة : « أغنيانهم وأفقرنا أولادنا ، ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضيع البرامكة » .

وحين تقابل هذه الكلمة ذات الدلالة بتنديده بالبرامكة في كتابه للعمال بقوله : « كيد أعداء النعم » فإننا نجد الصلة بين الرأيين واضحة .

فالرشيد لا يأمن على أولاده من البرامكة ، ويعتقد أنهم يريدون إفقارهم ، وهم أعداء نعمتهم ، ولئن نكب ابن عمه عبد الملك بن صالح لأنه

خشي أن يوقع بين أولاده ، وكان عبد الملك بن صالح هو القائم بأمر ابنه القاسم صاحب العهد الثالث ، فحريّ به أن يدفعه خوفه على أولاده من التفرقة إلى أن يحقق رغبة كامنة في نفسه منذ أمد بعيد ، وهي إزاحة البرامكة ، ولعله خيل إليه في أعماق ضميره وأمام الله أن نكبتهم هي لصالح خلافة المسلمين ، فأقدم عليها بحزم ، وفي كتابه إلى العمال قول يستفاد منه لذلك حين يقول : « ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ، ويسأله العزيمة على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه » . يقول هذا القول ويرسل الكتاب ثم يقتل جعفرًا في الأسبوع نفسه . أقدم على القتل إذاً بعد أن نظم ولاية العهد تنظيمًا يمنع الفساد ، ومن أسباب الفساد أعداء النعم (البرامكة) .

وغني عن البيان أننا حين نورد هذا السبب المباشر والظروف المحيطة به لا نقصد أن نجعله الأصل ، ولا نميل إلى أن نعتد عليه دون غيره في تفسير نكبة البرامكة . لا ، فالأسباب غير المباشرة التي ذكرناها في الأصل هي التي جعلت فكرة النكبة تختبر في نفس الرشيد ، لكنه هو الذي يشكل الإطار الزمني الذي حدثت فيه النكبة ، وهو إطار يتصل بها ، ويفسر كيف حدثت وكيف نظمت .

ولنتصور الآن حادث النكبة كيف حصل فنقول : كان في نفس هارون نقمة من البرامكة لأسباب عديدة شرحناها ؛ لكن هذه الأسباب لم تكن تحوّل قتلهم أو نكبتهم ، فهم لم تبدر منهم بادرة خيانة ظاهرة نحوه ، أو نحو ملكه ، ولم يغشوه في أمر ما غشاً يستطيع أن يؤاخذهم عليه ، ويحاسبهم به ؛ وكل ما يأخذهم عليهم تخروصات واتجاهات لم يحمدها لهم ، لكنها لا تحمل على محمل الجرم أو الغش أو الخيانة ؛ ولو أنه أخذهم عليها وجهاً

لوجه لأحسنوا التخلص منها والدفاع عن أنفسهم فيها . ثم مضت الأيام وإذا به يتبين (أويوسوس له) أنهم يوقعون بين الأمين والمأمون ، ولا يقصدون الخير بالاثنتين ، ويعملون على الكيد لهما ويجدون في إفقارهما . فإذا يحصل لو توفي الرشيد ووقعت الواقعة بين الأمين والمأمون ؟ أفلا تسوء حال المسلمين وحال الأمة جميعاً ؟ إذا فقد أصبح من واجبه أن يوقف كيدهم ويمنع فسادهم ، فيستخير الله ويسأله العزيمة له على ما فيه الخير لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه ، ويلهمه الله سبيل تحصين الأمة من كيد أعداء النعم ورد حسدكم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينها . فيسير إلى مكة فيعقد عهوده على كل من الأخوين بحيث يمنعها من التفكير بالغدر فيما بينهما ، ويعود إلى العراق ليستأصل شأفة أولئك الكائدين الماكرين الحاسدين المفسدين ، ويرسل كتبه بالعهود إلى عماله على الأمصار - ويؤكد عليهم المبايعة بولاية العهد قبل أن يصل إليهم أخبار النكبة ، ولا يضي على ذلك أيام ، حتى يرسل في طلب جعفر ، وجعفر لا يهمل عن مصائب الزمان ، ويأمر بقتله دون انتظار ، ولا يقبل أن يراه لئلا يستحي منه فيوقف قتله . ويحتاط. خلال ذلك ، فيلقي القبض على البرامكة كلهم إلا واحداً^(١) منهم لا خطر منه . ويظل مصمماً على عزمه ، لا يقبل فيهم شفاعة شفيع ، فهو يرى أنهم إذا أطلقوا أوقعوا بين أولاده ، وعادوا إلى سيرتهم الأولى . ويزعم ألا يشيع ما دفعه إلى نكبتهم ، لأن أسبابها يجب ألا تعرف ، فهي مسائل شخصية تجرحه وتجرح أولاده في عزتهم وكبريائهم .

(١) يظن أن هذا الواحد هو يحيى بن خالد البرمكي لكن ابن كثير ذكر في « البداية والنهاية » (١٠ / ٢٥٥) فقال : « وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله في الحبس في الرافقة لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة (١٩٠ هـ) عن سبعين سنة » .
ذكر في الحاشية (٦) من كتاب « معجم الأنساب والأسرات الحاكمة » لزمباور (المغرب) ص ١٣ ، وهي المتعلقة بمحمد بن خالد بن برمك مايلي : « نجا من مذبة أسرته » - المنقح .

والأمر الذي يصعب تفسيره في كل ذلك هو مقتل جعفر ، وكان من الممكن سجنه أو نفيه ، ولعله قتله لأنه يعرف سراً يجب أن يبقى في طيّ الكتمان ، أو لأنه أراد أن يقضي على كل إمكان في الصلح أو الندم أو التراجع ، مع اعتقاده أن قتله واجب لينقذ الأمة من فتنة .

* * *

العهد الثاني للرشيد

سياسته في حكم الأطراف :

بعد نكبة البرامكة دخل الرشيد وحكمه في طور جديد ، طور يظهر فيه الخليفة قوته ونشاطه وحماسته وإقباله على الأمر إقبالاً كلياً ، على أن هذا الطور أيضاً يظهر نظر الرشيد إلى الأمور نظرة سريعة ، لا تحقيق فيها ولا تبصر في المستقبل ، ففي هذا العهد يستقل المغرب ^(١) بعض الاستقلال عن مركز الدولة ، ويبان ذلك أن ثورات الخوارج ومن انتهى إليهم كانت لا تزال مستمرة ، وكان الولاة يحاولون إيقاف هذه الثورات ، فيوقفونها حيناً ، ويعجزون عنها حيناً آخر . تستمر هذه الولاية البعيدة تقلق بال الخليفة وبال ذوي الأمر ، حتى أن ثورة اتقدت في المغرب ^(١) فاضطر الخليفة إلى إرسال قائد من أحسن قواده هو هرثمة بن أعين ، فسار وأخذ الثورة مؤقتاً ، ثم إن الخليفة كان بحاجة إليه ، فاستدعاه من المغرب ^(١) سنة ١٨٠ ، فعاد وعادت الثورة تارة أخرى ، وانتهى الأمر بأن

(١) المغرب (يعني المغرب الأقصى) وقد استقل عن الدولة العباسية حين شكل فيه الأدارسة دولتهم .
القصد هنا إقليم إفريقية وهو يتألف من تونس والجزائر وبعض أراضي ليبيا ، فقد سمح الرشيد بأن تقوم فيه دولة بني الأغلب - المنعج .

ظهر للخليفة صعوبة ربط الأصقاع البعيدة بمركز الدولة ، وعجز الوالي عن تسوية الأمور بالمغرب ، حتى أتاه يوماً كتاب من إبراهيم بن الأغلب^(١) يطلب فيه أن يسميه والياً على إفريقية ، وأن يدعه يسوي الأمر بنفسه ؛ ويعاهده على أن يستغني عن المال الذي كان يرسل إليه من خراج مصر ومقداره مئة ألف دينار كل عام . فهو باستطاعته أن يقوم بالأمر دون ذلك المال ويطلب مقابل ذلك مكافأة ، وهي أن يصبح العامل الدائم الذي لا يعزل ، وأن يطلق يده في الحكم ، ويجعل لأبنائه حق وراثته الأمر من بعده . في هذا - كما هو بيّن - استقلال واضح عن مركز الدولة ، مها قيل إن التبعية لا تزال باقية فيه . شاور الرشيد هرثة بن أعين ، فنصح له بالإجابة إلى طلب إبراهيم ؛ فأجابه إلى ما أراد ، وبذلك مهد الأمور لأن يستقل المغرب عن مركز الدولة في بغداد ، وكان ذلك خطأ من الأخطاء ، وقع فيه الرشيد ، لأنه كان عاجزاً عن الإشراف عليه لبعده^(٢)

علاقاته مع البيزنطيين :

أظهر الرشيد في علاقاته مع الروم قوة بأس شديدة . نعم إن الفتوح في بلاد الروم كانت غير منظمة ، ولم يكن الخلفاء العباسيون يسعون إلى زحزحة الروم عن مراكزهم وفتح بلادهم ، وإنما كانوا يقصدون أن تثبت

(١) كان شمالي إفريقية مضطرباً باستمرار في العهد العباسي ، أكثر الولاة قتلوا قتلًا . وكان آخرهم الوالي محمد المكي (وهو أخو الرشيد من الرضاع) اضطر أن يغادر القيروان قهراً سنة ١٨٣ هـ . انتهر إبراهيم بن الأغلب هذه الفرصة ، فأعاد المكي إلى مركزه ، ووطد إبراهيم أمور الدولة ، ثم أفصح عن رغبته بالولاية ، وأعدا الخليفة بالاستقرار وإرسال الأموال بانتظام ، وطلب قطع المعونة عنه ، تلك المعونة التي كانت ترسل لتقوية مركز الوالي - المنتقم .

(٢) هناك سبب آخر جعله يسمح بقيام دولة بني الأغلب وهو إنشاء دولة قوية موالية للمركز تكون له درءاً من الدعوة العلوية المتفشية في المغرب تحت لواء دولة الأدارسة - المنتقم .

العواصم والثغور في حدود الروم . كان على الخليفة أن يغزو ، ولكن الغزو اقتصر على تقدم قليل في أرض العدو ثم العودة إلى الثغور . يقال إن الرشيد كان يحج سنة ويغزو سنة ، فهو إذا لم يتقاعس ، عن الغزو وعن الفتوح ، ولا سيما في الفترة الثانية من حكمه ولكن بالشكل الذي ذكرناه . وفي السنة التي ابتدأ فيها الدور الجديد أي من عام ١٨٧ هـ خفّ هارون للسير مظهرأ البأس الشديد ، فقد كانت « إيريني »^(١) ملكة الروم تدفع الجزية للرشيد ، وكانت تقرّ بأنه أقدّر منها ، وأنها تحت طاعته ، ولكن انقلاباً أقيم عليها ، فتولى الحكم في بلاد بيزنطة تقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١ م) ؛ ويقال إن تقفور كان أصله عربياً من قبيلة بني جفنة ، وكان ذا بأس شديد وقوة وحماة ، فكتب إلى الرشيد كتاباً أقامه وأقعده . الطبري (٦ / ٥٠١) قال في الكتاب : « من تقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً أن تحمل أمثالها إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحققهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وأتخذ نفسك بما يقع به للمصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزّه الغضب ، حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه ، وتفرّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم ، واستعجم الرأي على الوزير بين أن يشير عليه ، أو يتركه يستبد برأيه دونه . فدعا الرشيد بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » ثم هيا الرشيد نفسه للشخوص إلى بلاد الروم .

(١) يسميها الطبري (ريني) - للنقح .

ويقال إنه شخص من يومه آنذاك . وسار إلى هرقله واستولى عليها . ثم بلغ أنقرة ، وغلب تقفور في صدام وقع بينها ؛ وجد تقفور نفسه مهزوماً فطلب الصلح ، وكان قد حلّ الشتاء ، فقبل هارون بالصلح على أن يؤدي ملك الروم عن كل إنسان بلغ الحلم ديناراً ، إلا عن تقفور^(١) وابنه ، وعاد الرشيد إلى عاصمته .

نقض تقفور الصلح بعد ذلك . ولم يستطع القواد والأتباع أن يعلموا الرشيد عن نقضه الصلح . فبقي مدة يجهل ذلك حتى أعلمه الأمر شاعر من الشعراء ببيتين من الشعر ، فغضب غضبة شديدة ، وجمع جيشاً كثيفاً ، بلغ عدد المرتزقة فيه خمسة وثلاثين ألفاً ومئة ألف شخص ، وذلك سوى المتطوعة والأتباع ، وسار ذلك الجيش وضرب الروم ضربة شديدة ، فاضطر تقفور مرة أخرى إلى طلب الصلح فصالحه الرشيد . لكنه في هذه المرة طلب ثلاثمئة ألف دينار ، وجزية عن تقفور وابنه بحيث وقعت رقبة تقفور في صغار أهل الجزية . كذا كانت علاقات الرشيد مع الروم علاقات قوة وبأس شديدين . ظهر من هارون في هذه الفترة نوع من التحمس والقوة فكان يخشاه أتباعه ووزرائه والمقربون إليه .

علاقاته مع الفرنجة :

وتقول لنا المصادر الغربية إن الرشيد كان له موقف آخر مع ملك الفرنجة شارلمان حسبما يدعي مؤلفان : أولها « إرنهارد » في كتاب له يقول فيه : « إن هارون الرشيد استقبل سفراء من شارلمان أتوه بهدايا ، فأجاب عنها بأن أرسل سفراء بهدايا أيضاً ، ومن جملتها ساعة مائية

(١) لم يذكر الطبري ولا ابن الأثير هذا الاستثناء - المتحج .

دقاقة ، أعجب بها الفرنجة بل طرأت عليهم الدهشة منها » . ويعلمنا المصدر الآخر وهو القسيس سان غال saint - Gall : « إن بطريرك القدس تلقى سفراء من شارلمان بهداياهم ، فأرسل هو بدوره هدايا ، ومعها مفتاح بيت المقدس ومفتاح كنيسة القيامة إلى شارلمان ، وذلك سنة ٨٠٠ م » هذان خبران يأتينا من المصادر الأجنبية القديمة ، لكن المصادر العربية لا تذكر عنها شيئاً ، وتعلق التواريخ الأجنبية الفرنسية على هذين الخبرين تعليقات شتى ، فتنسب إلى الرشيد رغبته في أن يضع أمام الخليفة الأموي الأندلسي عدواً حليفاً لبني العباس ، وتنسب إلى الحكم العباسي أيضاً الرضاء بأن يكون الإشراف على بيت المقدس لفرنسة وملك الفرنجة ؛ ويتوسع المؤرخون في الاستنتاج وفي البحث . لكننا إن نظرنا إلى هذين الخبرين وجدناهما ضعيفين ، فصاحبهما أولاً غير موثقين ، يخلطان في مسائل التاريخ ، ولا سيما القسيس سان غال ، فهو يخطئ في تاريخه خبط عشواء . ولعلنا إن أردنا أن نستخلص من الخبرين شيئاً ، فإننا نقول ما قاله بروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية من أن الخبر الأول عن سفراء هارون لا يعدو أن يكون خبراً عن عدد من التجار اليهود الذين كانوا يحملون الهدايا ويدخلون إلى بلاط الخليفة . ولئن كانت هدايا ذهبت من الرشيد إلى شارلمان ، فهي أيضاً على أيدي تجار عاديين . أما خبر مفاتيح بيت المقدس وكنيسة القيامة ، فالظاهر فيه الوضع ، ولا يعقل بحال من الأحوال أن يعطي الرشيد وهو الخليفة الدين التقى مفاتيح بلدة مقدسة إلى رجل غير مسلم . ومن الغريب الذي لا يصدق أن يعهد الرشيد وهو في أعظم سلطانه وأقوى سطوته لرجل مسيحي بحماية الأماكن المقدسة في بيت المقدس .

الشورات الداخلية :

ومن آخر الحوادث التي حدثت في الفترة الثانية من عهد الرشيد خروج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بمرقند ، خرج مخالفاً لهارون ، وخلع طاعة الخلافة ، وأعلن عصيانه . بيان ذلك أن رافعاً زَيْن لاحدى المتزوجات أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترتد عن الإسلام ، ثم تعلن توبتها فيتزوجها هو ، وهذا ما فعلته ، فعلم بذلك الرشيد فاشتد غضبه وأرسل إلى عامله علي بن عيسى بن ماهان بأن يقيم الحدّ على رافع بن الليث وأن يشهر به بحيث يكون مثلاً لغيره ، فوضعه على حمار وطوّف بالحمار في خراسان ، ثم أطلقه بعد أن حبسه زمناً ، فسار إلى سمرقند ، واجتمع الناس حوله من في نفوسهم شيء ، فوثب على عامل المدينة . وأعلن خروجه ، وعلم بذلك الرشيد فلم يشأ إلا أن يذهب إليه بنفسه ، فجهز الجيش وأعد عدته وخرج ، فكانت منيته في الطريق ، في مدينة طوس ، توفي فيها سنة ١٩٣ هـ . وبذلك انتهى عصر مجيد من عصور الحضارة العربية الإسلامية .



الصراع بين الأمين والمأمون

نظرة عامة :

يذهب أكثر المؤرخين إلى أن الصراع بين الأمين والمأمون صراع بين العرب والفرس ، ويقولون إن العرب كانوا إلى جانب الأمين ، والفرس كانوا إلى جانب المأمون ، ويدعون أن الأمر انتهى بتغلب الفرس على العرب وتمكنهم من الحكم . هذا القول مضعف من جهات مختلفة : وإنه لم يكن الصراع بين العرب والفرس ، وإنما كان بين حزيين . نعم إننا نجد أيضاً مع المأمون - كما يقولون - عدداً من الفرس كالفضل بن سهل ، لكننا نجد أيضاً مع الأمين الفضل بن الربيع وهو مولى ، كان جده عند عثمان بن عفان واسمه أبو فروة كيسان « ابن خلكان ٢ / ١٥١ » . ونجد مع الأمين أيضاً علي بن عيسى بن ماهان ، وهو فارسي كما يدل عليه اسمه . وإذا كان إلى جانب المأمون عدد من الفرس ، فإن بين قواده هرثمة بن أعين ، واسمه يدل على أنه عربي ، هذا والحوادث نفسها تدل على أن العرب لم يكن لهم شأن خاص أكيد بالصراع . والصراع إنما كان بين طائفتين أو حزيين : أحدهما حزب العباسيين الهاشميين مع الأمين ، وثانيهما حزب الخراسانيين ذوي العلاقة العلوية مع المأمون . حصل التطاحن بين الحزيين وأدى إلى النزاع بين الأخوين ، وانتهت بقتل الأمين . لكننا نجد أنفسنا على خلاف مع ما يقوله بعض المؤرخين . في رأينا أن النزاع لم ينته بانتصار الفرس ذوي النزعة العلوية ، بل كان النصر الأخير إلى جانب العباسيين الهاشميين الذين

خذلوا مع الأمين أولاً ، ثم عاد الأمر^(١) إليهم أخيراً . والتطاحن بين الحزبين يظهر واضحاً في الحوادث التي جرت ، ويظهر واضحاً بين الأخوين ، وما الكتابان اللذان علقهما هارون الرشيد في الكعبة عهداً على كل من الأخوين إلا دليلين واضحين على هذا التطاحن كما رأينا .

وأياً كان السبب فالغلطة فيما حصل تقع على عاتق الرشيد ، فهو قد بذر بذور انشقاق المملكة ، فقسمها بذلك إلى خراسان وغير خراسان ، ولعل الرشيد كان قد نسي أن خراسان طامحة إلى الاستقلال في الحكم ، فإنها تعتقد اعتقاداً جازماً أن ما فعلته مع العباسيين للوصول إلى الحكم ذهب هدراً ، وأن عليها أن تعيد حقها إلى نفسها ، ونسي أيضاً أن حول المأمون شخصاً خطراً ، هو الفضل بن سهل ، وهو رجل من صنائع البرامكة ، ومن يقولون بقولهم ، ويذهبون مذهبه ؛ وهكذا رصف الرشيد الطريق بدون قصد إلى الخصام بين الأخوين وإلى تشتت المملكة ؛ وما كان يريد إلا الخير لولديه .

أسباب النزاع بين الأخوين :

١ - لم يُخلص^(٢) الحزبان أحدهما للآخر ، ولم يخلص الأخوان النية في تنفيذ العهد : إذا نظرنا فيما فعل الرشيد وفي الحوادث التي جرت قبل ذلك ، فإننا لا نجد أثراً للخصام بين العرب والفرس . لعله حدث خصام بين الفرس والعباسيين ، بين خراسان والعراق بعد ذلك ، لكن الأمور حتى ذلك الوقت كانت تفسر باختلاف حزبين : حزب عباسي وحزب فارسي يميل إلى

(١) يقصد المرحوم الدكتور يوسف العش أن الأمر عاد إلى العباسيين أخيراً عندما أفاق المأمون إلى نفسه وإلى مستقبل الخلافة ، وصحح الأوضاع ، وعاد يتألف العباسيين ، وأعاد مركز عمله إلى بغداد - المنقح .

(٢) ليس متوقفاً أن يخلص حزب لحزب منافس ، وإنما المرتقب من الأحزاب أن يكون خصامهم محدوداً بحيث لا يمس الصلحة العامة - المنقح .

آل علي - كما رأينا - . وبعد أن وضعت العهود ، وأزيح البرامكة لم يُخلَص كل حزب للحزب الآخر ، ولم يتهادن معه ، بل بقي الشقاق بين الأخوين ، يثيره من جهة ، الفضل بن الربيع ، ومن جهة الفضل بن سهل ، وكان المأمون خائفاً على نفسه من أخيه .

٢ - دور الفضل بن الربيع في تعزيز العلاقة :

توفي الرشيد وكان المأمون في خراسان وأراد الفضل بن الربيع - وهو من حزب الأمين - أن يقوّي الأمين على أخيه ، فطلب من المأمون إرسال الجيش الذي كان مع هارون الرشيد - وكان ينبغي أن يعود هذا الجيش إلى المأمون حسب العهد - طلبه الفضل بن الربيع ووجّهه إلى بغداد ، وكان ذلك أول نقض للعهد .

٣ - تمادي ابن الربيع :

وبعد أن فعل الفضل بن الربيع ما فعل ، وجد أنه بذلك أعلن عداؤه للمأمون ، فكان عليه أن يسير في خط ذلك العداء ، وإلا وقع بين فكي الأسد حين ينتقل الأمر إلى المأمون . فصار يوغر صدر الأمين على أخيه ، ويحسّن له أن يعفي أخاه من ولاية العهد ، وأن يوليها ابنه موسى .

٤ - دور الفضل بن سهل :

وكان الفضل بن سهل يوغر صدر المأمون أيضاً على أخيه ، ويظهر له نقضه للعهد ؛ وصار الأمين يرسل المأمون ليخلع نفسه وكاد المأمون أن يرضى بخلع نفسه لولا أن الفضل بن سهل ضمن له الخلافة . وكيف يضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون والجيش ليس بين يديه ، والأمين هو الخليفة وصاحب الأمر ؟ ليس بين أيدينا عن الفضل بن سهل قول يفيدنا بالكشف عن رأيه في ذلك الضمان ، لكننا نستطيع أن نستشف فكرته في

ذلك من مجرى الحوادث ؛ لعله أقنع المأمون برأيه على الوجه الآتي : إذا أقدم الأمين على محاربة المأمون ، فإن جيش خراسان الموجود عند الأمين لن يخلص له بأي حال ، فهو ميّال إلى شيعة المأمون ، لأن المأمون في خراسان بين أحواله ، وهو يحسن معاملة الشعب وله منزلة كبيرة عندهم . لذا فإن الجيش الخراساني في العراق لن يفيد الأمين ، وسيكون سنداً للمأمون في المستقبل . إن الأمين من جهة أخرى ليس صاحب سياسة وحنكة ، فهو رجل لعوب منطلق إلى لذاته ، فلا يستطيع أن يضمن الجيش إلى جانبه ، وسيضطرب أمره حتماً إذا حاول المأمون وأصحابه إفساد الجيش عليه . إن الأمين ليس محبوباً في الكوفة والبصرة والمدينة ، ففي هذه البلاد عدد كبير من أشياع آل عليّ . هؤلاء الأشياع هم أقرب إلى المأمون منهم إلى الأمين ، لأن حزب الأمين من العباسيين ، أما حزب المأمون فهم أهل خراسان ، نعم إن أهل خراسان ليسوا شيعة ، ولكنهم يستطيعون أن يلتفتوا حول الشيعة . وإن يتقربوا إليهم . وبهذا الاتفاق يضمن المأمون إلى طرفه عدداً كبيراً ؛ ويجعل موقف الأمين حرجاً . هذا العرض للأمور مقنع للمأمون . لا سيما أن المأمون يعتمد على عهد صحيح أقامه له أخوه في عهد والده ، وهو ينصّ صراحة أن الأمر يكون للمأمون إذا أخلّ الأمين به .

٥ - امتنع المأمون من خلع نفسه ، وكتب كتاباً فيه تذكير للأمين بعهوده وموآثيقه . إن الأمين لم يتبصر عواقب الأمر ، بل وجد الوسيلة إلى نقض العهد وتمزيق الكتابين ، وإلى تولية ابنه موسى . يعني هذا أن الأمين والمأمون أعداء نفسيهما للحرب .

المعركة بين الأمين والمأمون :

أخطأ الأمين خطأ كبيراً ، فإنه - بدلاً من أن يولي جيشه رجلاً قديراً

فاهماً عارفاً بالأمر - ولّى علي بن عيسى بن ماهان ، وهو قائد مكروه عند الخراسانيين الذين أقام عندهم والياً أمداً من الزمن ، وكان قد ظلمهم ، وجمع الأموال الكثيرة منهم . . هذا الرجل الفاشل المرتكب ولأه الأمين قيادة الجيش ، وكان الجيش خراسانياً في معظمه ؛ وكان عدده يقرب من خمسين ألف مقاتل . أما المأمون فقد ولّى القيادة طاهر بن الحسين ، وكان من أعظم القواد أرسل معه جيشاً عدته أربعة آلاف : يلاحظ أن الفرق بين الجيشين كبير جداً ، حتى إن بعض مؤرخينا المحدثين يشكون في صحة هذه الأرقام . التقى الجيشان وكان علي بن عيسى محتقراً طاهراً وجيشه ، معتزاً بعدد أفراد جيشه . وقع القتال وانتهى الأمر بمقتل علي بن عيسى . لا يذكر لنا المؤرخون كيف تمّ هذا النصر ، لكننا نستطيع أن نفهم أن جيش الأمين لم يكن يحارب عن قناعة مع علي بن عيسى ، بل قاتل قتالاً رخواً ، الأمر الذي مكّن جيش طاهر من التغلب عليه .

إن المأمون بعد أن ظفر جيشه بجيش الأمين ، جمع جيشاً كبيراً ووجّهه إلى بغداد لضرب الأمين والقبض عليه ، ولم يكن يدري الأمين أن ما حدث خطير للغاية . بل اضطرب أمره ، واقتصر على توزيع المال الكثير على الجيش ، لكن الجيش لم يكن مخلصاً له ، حتى أن الحسين بن علي بن ماهان ، وثب على الأمين وألقى القبض عليه ووضعه في السجن ، وكاد ينتهي أمره ، لولا أن أنصاراً له أنقذوه ، وألقوا القبض على الحسين . عاد الأمر للأمين مرة أخرى لكنه كان فاقد الإرادة ، مضطرباً ، لا حول له ولا قوة . . . وطبيعي في هذه الحال أن يستطيع جيش المأمون ، وعلى رأسه هرثة بن أعين وطاهر بن الحسين ، دخول بغداد ، وإلقاء القبض على الأمين . انتهت الفتنة بمقتل الأمين على أيدي رجال أرسلهم طاهر بن الحسين ، وكان ذلك عام مئة وثمانية وتسعين للهجرة .

عصر المأمون

سيرة المأمون في عهده تشابه بعض الشيء سيرة والده هارون الرشيد ، يمكن أن نُميّز في عهده دورين مختلفين : الدور الأول كان فيه المأمون تحت سلطان وزيره الفضل بن سهل ؛ يوجه الفضل بن سهل السياسة كما يريد ، ويُطلع المأمون من الأمور على ما يريد ، ويخفي عنه ما يشاء . هذا الدور ينتهي عام مئتين واثنين للهجرة . فنذ عام مئتين وثلاثة يبدأ دور آخر كان المأمون فيه سيّد أمره ، قائماً بأُمور الخلافة يوجهها كما ينبغي .

شخصية المأمون وأسلوبه في الحكم :

يشبه المأمون والده أيضاً في بعض طبعه ومزاجه ويخالفه في بعضه الآخر : المأمون حيي ، وفيّ ، كريم ، يحب الناس ، ويحب من الناس أن يحبوه . وهو في هذا يشبه والده . ولكنه إلى جانب الحياء والوفاء حلیم متروّ في الأمور ، بعيد النظر كل البعد وهو في هذا يخالف والده . كان الرشيد يحلّ الأمور في ساعتها . أما المأمون فيبلغ منه التروّي أنه يؤجل حلّها حتى يستقر على رأي صحيح فيها ؛ وهو عميق في تفكيره عمق العالم ، وقد كان عالماً بالفعل ، كان ينظر إلى الأمور من القريب والبعيد ، وإن حلّت الآن فماذا ينتج عن ذلك ؟ وإن تأخر الحل فماذا يحدث ؟ فما كان يستقر على أمر إلا بعد أن يرى ظروفه وأبعد ما فيها ؛ وكان إذا فاجأته حادثة ، أخر حلّها حتى يستقيم له الرأي فيها ، وهو على كل حال يحلّ المسائل هادئاً ، دون أن يكون في الأمر إثارة أو استشارة ، ليس فيه عنف

ولا قسوة ، يرغب في أن يكون حلاً هادئاً ناعماً لطيفاً^(١) . لعل الناس في عصره ما كانوا يشعرون بأهمية الحل ، ولا يقدرّون قيمته قد يلجأ في هذا الحل إلى السم أو إلى قتل الناس . ولعله كان يفعل ذلك لصالح الدولة ، ولعله كان يفضل الحلول الهادئة هذه على إرسال الجيوش وقتال الناس . وكان بعد أن يوعز بالسم ويقتل من يقتل ، يتبرأ من هذا الفعل ، ويعلمن سخطه عليه ، بل يحاول أن يخفي تدبيره وراء ترتيب جديد : ينعم على أهل الشخص المقتول ، ويضفي عطفه على اسم المسموم واسم ذويه . وفي هذا يخالف المأمون سيرة أبيه ، فالرشيد قتل جعفر بن يحيى البرمكي جهراً ، وألقى أهله في السجن ، وتركهم فيه حتى وفاتهم . الرشيد لم يذكر في لحظة من لحظات حياته بعد مقتل البرامكة أنه نادم على ما فعل . وكان يتتبع البرامكة وأصدقاءهم حتى آخر عمره . أما المأمون فلا تبدو منه رغبة في فجيعة أيّ إنسان ، ولا يظهر من وراء أولئك الذين يدسون السم ، أو الذين يقتلون ، وإذا رأى أنه سينكشف أمره ، فإنه لا يتردد أن يتخلص أيضاً من صنيعته الذي لعب دوراً في المؤامرة .

القضاء على الفضل بن سهل^(٢) :

بعد أن عهد المأمون إلى علي بن موسى الرضا بولاية العهد وليس الخصرة ، ثار العباسيون في بغداد ، واستطاعوا بعد نقاش طويل أن يخلعوا طاعة المأمون ، وأن يؤلّوا إبراهيم بن المهدي خليفة . لم تستقر الأمور في العراق ، بل حصلت مؤامرات وانقسامات واضطرابات لم يعلم بها المأمون ؛ لأن الفضل بن سهل كان يخفي عنه حقائق الأخبار .

(١) إلا أنه لا يشترط بالجل أن يكون أخلاقياً - المنقح .

(٢) وضعت هذه الفقرة من أجل المحافظة على تسلسل الحوادث - المنقح .

عندما استفحل الأمر في بغداد ، أخبر علي الرضا المأمون بواقع الحال .
ولما تأكد المأمون من الحقيقة ، جهّز نفسه للخروج من مرو يريد بغداد .
لكنه قبل المباشرة رتبّ مؤامرة بأن أوعز إلى مماليكه أن يقتلوا الفضل بن
سهل .

تظاهر المأمون بحزنه على الفضل بعد مقتله ، وكتب إلى أخيه والي
العراق الحسن بن سهل يعزيه ؛ وأنعم عليه وتزوج ابنته إكراماً له . وفي
الوقت نفسه أمر بالقبض على الفاعلين ، ولما تجرّؤا بأن قالوا : « إنا فعلنا
هذا بأمرك » قتلهم .

استمر المأمون متوجهاً نحو بغداد ، ومرّ في طريقه بمدينة طوس حيث
توفي الرشيد . وهناك دبّر أمراً آخر .

القضاء على عليّ الرضا والعودة إلى بغداد :

ولعله كان من خطته أيضاً أن يفتدي نفسه بعلي الرضا بن موسى .
فإنه ما مضى على وفاة الفضل بن سهل عدد من الأشهر حتى تناول عليّ
الرضا بن موسى كمية كبيرة من العنب ، وكان يحبه ، فمات . لعلنا لا نصدق
أن إنساناً يموت من أكل العنب ، إذا لم يكن في العنب ما يؤثر في الحياة
كالسّم مثلاً . أعلن المأمون حزنه على وفاة الرضا ، ولم يغيّر سياسته في
الأمر ، بل استمر على لبس الخضرة ، ثم أرسل إلى أهل العراق يقول : « إن
علي الرضا بن موسى قد توفي ، فما كان حاجزاً بيني وبينكم قد زال ، فعودوا
إلى بيعتكم » فعادوا وسار إلى بغداد ليمّ أموره فيها ، وهو يلبس الخضرة
ودخلها . . . فأقبل عليه بعض العباسيين . وطلبوا منه أن يرفع الخضرة ،
فأجابهم إلى مطلبهم دون تردد .

الدور الثاني من حكم المأمون .

ننتقل الآن إلى الدور الثاني من عصر المأمون ، وهو الدور الذي كان فيه الخليفة هو المتسلط الحقيقي ، والمدير لأُمُور الدولة . سار في هذا الدور على سياسة الدهاء والحكمة والمعرفة والخبرة ، إلا أنه كانت أمامه صعوبات كثيرة ، وعهده ليس كعهد والده هارون الرشيد ، فالدور الثاني من حياة الرشيد كان عهداً سلساً بعض السلاسة ، أما الدور الثاني للمأمون فقد كان صعباً : فهذه هي الثورات والقلقل لا تزال مستمرة منذ مقتل أخيه الأمين ، وقد كانت للثأر له ، فكان على المأمون أن يجابهها ويقضي عليها .

(١) هذا نصر بن سيار بن شبيب يخرج في جهات حلب ويستولي عليها وينشر أمره في جهاتها سنة ثمان وتسعين ومئة . لم يستطع الفضل بن سهل أن يوقف هذه الحركة . تمكن المأمون بعد القضاء على الفضل من إدارة دفعة الدولة ؛ ثم أرسل إلى الثائر عبد الله بن طاهر ، فلوح له بالصلح ، ومنّاه بالعفو عنه ، وأعطاه الأمان ، فرضي واستسلم سنة ٢٠٩ هـ^(١) .

(٢) خرج ابن بيهس^(٢) الكلبي في جهات دمشق ، فأرسل إليه المأمون عبد الله بن طاهر فسوّى الأمور في هذه المنطقة وقضى على الثورة ، وأمن ابن بيهس^(٣) .

(١) |من ذيول ثورة نصر بن شبيب (وهي ثورة عباسية على انحراف المأمون وميله إلى الفرس) حركة (ابن عائشة) وهو إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام العباسي ، فقد كان وصحبه يريدون قطع الجسر إذا هاجم نصر بغداد وخرج الجند لمحاربتة . قبض عليه المأمون وسجنه ثم قتله سنة ٢١٠ هـ . المنتقى .

(٢) ورد اسم ابن بيهس سنة ٢٢٧ هـ عند الكلام عن ثورة المبرقع في الأردن - الطبري (الحسينية) - (١١ / ٥) ولم يرد اسمه في عهد المأمون ، لكن الدراهم المضروبة بدمشق في عصر المأمون تحمل اسمه حتى سنة ٢٠٩ هـ . لعل المذكور في الطبري شخص آخر - المنتقى .

(٣) |وصحبه معه إلى المأمون في بغداد ، وقتل هناك سنة ٢١٠ هـ على الأرجح - المنتقى .

٣) ثارت في مصر ثورة أخرى ، وقامت فتنة بين القيسية واليانية ، فالقيسية إلى جانب الأمين ، واليانية إلى جانب المأمون . وهذا يدلنا على أن العرب أنفسهم كانوا منقسمين إلى شطرين : شطر مع الأمين وقد قيل إنه إلى جانب العرب ، وقسم إلى جانب المأمون ، وامتدت الفتنة إلى مصر ، ففضى عليها عبد الله بن طاهر قائد المأمون .

٤) نشبت فتنة في الاسكندرية : ذلك أن عدداً من الأندلسيين طردوا من الأندلس ، فحلّوا في الاسكندرية ، وأثاروا الفتنة فيها ، فطاردهم عبد الله بن طاهر ، وأخرجهم منها .

٥) ثورة الزط في الخليج العربي وامتدادها حتى البصرة سنة ٢٠٥ هـ . ظلت هذه الثورة مستفحلة حتى أخذت في عهد المعتصم على يد عَجِيف بن عنبسة سنة ٢١٩ هـ .

أسلوب المأمون في إخماد الفتن :

هذه الثورات جابهها المأمون بالجيش إلا أنه كان يفضل أن تنتهي دون سفك دماء . خرج عليه في الحجاز^(١) ، مرة ومرتين ، علويان ووفق في أن يوقف خروجها بالتي هي أحسن ، ويعنفو عنها ، ويحاول في كل أمر أن تكون سياسته اللين والدهاء ؛ فما يفعله اللين لا تفعله القسوة ، ويجب أن يكون وراء اللين دهاء ليستتب الأمر ، وإلا أفلت من يد صاحبه ؛ والمأمون داهية ولّين في الوقت نفسه .

(١) وجه أبو السرايا شخصاً إلى مكة اسمه حسين بن حسن الأظفـس . بعد مقتل أبي السرايا اتفق الأظفـس مع محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، ونادى به أميراً للمؤمنين . لكن الأظفـس وعلي بن محمد أساء معاملة الناس واضطرب الأمر ؛ فدخل إسحاق بن موسى بن عيسو ، (الذي كان والياً على الين) مكة . الطبري - الحسينية (١٠ / ٢٢٢ - ٢٢٥) - الملحق :

الثورات المحلية ونشوء الدويلات :

وتكثر الثورات فيدفعها :

(١) قامت ثورة في اليمن واشتعلت بزعامة إبراهيم بن موسى بن جعفر ، فأهل اليمن كانوا غير راضين عن عماله . أرسل المأمون محمد بن إبراهيم الزيادي ليقمعه عام ٢٠٦ هـ^(١) فقمعه ، لكن استولى على الأمر فيها . وأصبح هو الحاكم ، وخلفه من بعده أبنائه يتداولون عليها ، ولا يفعل هو إلا الدعاء للخليفة على المنابر فقط ، وهو في غير ذلك صاحب الأمر المطلق . على هذا النحو تشكلت في اليمن الدولة الزيادية التي دامت حتى سنة ٤١٢ هـ (حسب ما جاء في كتاب زمباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة) .

ذكر الطبري (الحسينية ١٠ / ٢٦٤) خروج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عكّ من اليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد سنة ٢٠٧ هـ . فأرسل إليه المأمون دينار بن عبد الله ، فاستأله ، وأمنه المأمون .

(٢) تمكنت في خراسان أيضاً السلالة الطاهرية فهذا طاهر بن الحسين قائد مجرب محنك ، خدم المأمون في مصر ، وثار خراسان بعد أن تركها المأمون ، فأرسله إليها بناء على نصيح وزيره أحمد بن أبي خالد وضمانه

(١) لم أجد هذا الخبر في الطبري ولا ابن الأثير . إنما ذكره الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتاب « تاريخ الإسلام » ج ٢ ص ٧٢ وقال إن المأمون أرسل عمداً الزياتي سنة ٢٠٢ هـ لقمع حركة المشيعين في تهامة .
ذكر زمباور في كتابه المغرب « معجم الأنساب » ص ١٧٩ أن محمد بن إبراهيم (وهو سليل زياد بن أبيه) أسس هذه الدولة في زييد سنة ٢٠٤ هـ وذلك اعتقاداً على ابن خلدون (ج ٤ - ص ٢١٤) الذي يسميه محمد زياد - المنتقى .

للأمر له . ويقال : إن أحمد أرسل مع طاهر خادماً له أعطاه السم وقال له : إن حاول طاهر أن يستقل بالأمر ، وأن يخلع طاعة المأمون فاوله السم في الطعام ؛ والذي وقع هو أن طاهراً بعد أن قضى على الفتنة في خراسان واستمر والياً عليها ، انتهى به الأمر إلى أن أوقف الخطبة للمأمون ، فدسّ له السم ومات به سنة ٢٠٧ هـ . ولما مات طاهر جاء المأمون بلطفه وظرفه ، فعين طلحة بن طاهر والياً على خراسان ، ولما توفي طلحة سنة ٢١٤ هـ ، عين الخليفة أخاه عبد الله بن طاهر قائده والياً على خراسان . وبعد المأمون استقل الطاهريون بخراسان ، لكنهم ظلوا مواليين للخلافة .

٣) ومن الصعوبات الكبرى التي بدت أمام المأمون ثورة البابكية ، أو الحرّمية ، وبابك - على ما يقال - من أولاد فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني ، والحرّمية هي مزدكية في الأصل . وهم يبيحون النساء والمحرمات ، ويعتقدون أن الأرواح تنتقل بالتناسخ ، وأن بابك انتقلت إليه روح أحد الحرّمية . ومن رأي البابكيين أن توزع أموال الإقطاعيين على الفقراء . أما غايتهم الأساسية فهي التخلص من حكم بني العباس . اجتمع حول بابك عدد كبير من الناس وظهر في الجبال ، في منطقة يصعب فيها القتال كل الصعوبة . والواقع أن بابك أقض مضجع المأمون ، فما أرسل إليه جيشاً إلا مُني بالهزيمة ، وخسرت جيوش المأمون خسارة شديدة . وقيل إن بابك قتل من جند المأمون وحزبه ما ينوف على خمسين ومائتي ألف شخص . ولم يتمكن المأمون من بابك^(١) إلا بعد أن جهز له جيشاً هائلاً بقيادة إسحق بن إبراهيم ، أنفق عليه المال الكثير فشئت هذا الجيش أصحاب بابك في منطقة همدان عام ٢١٨ هـ - ودفع بابك إلى الجبال ،

(١) اشتد ساعد بابك وعصابته بسبب مساعدة الأفشين الخفية له - للنجاح .

وحصره في أذربيجان ، وقضى على بابك بشدة وبصعوبة بعد ذلك في عهد المعتصم .

محاربة الروم :

والذي كان يقوّي من شأن بابك هم الروم ، فقد كان بينه وبينهم حلف على أن يساعدوا برجاله ، وعلى أن يساعدوه حين حاجته إليهم . وشعر المأمون أن عدوه الأكبر هم الروم . وكان حتى عام ٢١٤ هـ لا يلقي إليهم بالاً كثيراً ، لكنه بعد أن رأى الثورات في مصر والشام وفي الجبال قرّر أن يزيح الروم عن مراكزهم المتقدمة ، فسار إليهم بنفسه بجيش كثيف ودخل بلادهم واستولى فيها على بعض الحصون . ثم عرض له عارض من خروج عليه في مصر وفي الشام ، فذهب وترك الروم في الشتاء ، وإذا بالروم يغدرون بجيشه ، فيأسرون خمسة وعشرين ألف إنسان ، ويسفكون الدم الكثير ، فعاد إليهم . وصمم على أن يقضي عليهم القضاء المبرم فسار في بلادهم ، وأحس ملكهم بأن المأمون جادّ في أمره ، فطلب منه الصلح على أن يدفع مئة ألف دينار ، وأن يعيد الأسرى الذين بين يديه ، لكن المأمون لم يرض بهذا واستقر قراره على أن يجلب الأعراب البدو ، ويدفعهم معه في بلاد الروم ، فما استولى على مكان إلا أقامهم فيه وجعله موطنهم ، وهكذا وضع خطة أراد أن ينفذها إلى أن يصل إلى القسطنطينية ، ويقضي فيها على الروم قضاء نهائياً ؛ لكن المنية عاجلته سنة ٢١٨ هـ فمات دون أن يحقق هدفه ، وعاد المعتصم أخوه بالجيش وقد أفضت الخلافة إليه من بعده .



تقلص سلطة الخلفاء العباسيين

محاولة الفرس السيطرة على الحكم :

تقدم معنا البحث عن الخلفاء العباسيين الأوائل حتى المأمون ، صنفناهم في دور مستقل هو عزّ الدولة العباسية وقوتها . ننتقل إلى دور تقلص قوة الخلافة العباسية وتمكّن الأتراك من السلطان في هذه الفترة . هذا الموضوع تمتد جذوره إلى القسم الأول السابق من البحث ، فلننظر في النتائج التي انتهينا إليها من البحث السابق ، ولنعط الخطوط الرئيسية العامة عن هذا العهد . رأينا أن الفرس أرادوا أن يكون لهم مركز في الدولة وأن يكون السلطان في أيديهم ، حاولوا ذلك أولاً قاصدين جعل الخليفة العباسي تحت سلطانهم ، فساعدوا العباسيين على الاستيلاء على الحكم ووزروا لهم ، وتولوا أمورهم ؛ لكن العباسيين لم يشاؤوا أن يستسلموا للفرس فكانوا من حين إلى آخر يقتلون وزراءهم الفرس ، وينكّلون بهم ؛ إنَّ جُلَّ ما استطاع الفرس الوصول إليه هو الإشراف على المرافق الأساسية للدولة ، لكن إشرافهم هذا كان يضطرب مع نكبة وزرائهم ، فيتقلص نفوذهم إلى حين . وكانت آخر محاولة حاولوها هي الالتفاف حول المأمون والتأثير عليه ، فقد ظنوا أن الأمر استتب لهم معه ؛ لكنه كان كأمثاله من الخلفاء العباسيين ، ضربهم ضربة قضت على نفوذهم ، ولو أنه مالاأهم في ظواهر الأمور على عادته ،

وانتهى الأمر بالفرس إلى أن فكروا أنه لا محالفة لهم مع العباسيين ، وأنهم إن حالفوهم فلن يصلوا إلى شيء كبير ، وستكون القضية معهم شخصية ، يستفيد الوزير منها إلى حين ؛ فكروا ووصلوا إلى قرار : هو أن يستقلوا عن الحكم العباسي شيئاً فشيئاً ، فساروا في هذا الطريق ، وتشكلت الدولة الطاهرية في خراسان ، وتبعتها دول فارسية أخرى .

رد الفعل عند العرب :

أما العرب فقد رأيناهم غلبوا على أمرهم في أول الحكم العباسي ، لكنهم حاولوا الرجوع إلى الحكم بمؤازرة الخليفة مثل الأمين ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى الحكم ، والذي استقر عليه أمرهم هو العراق ، فكان في أيديهم لكن العامة من جهة ، ورجال الدين من جهة أخرى كانوا يشغبون ، وكان عليهم أن يقبلوا بهذا الوضع الخطير ، فلعلّ الحظّ يدعهم في يوم من الأيام ، فيسيطرون على الموقف . هذا وضعهم في العراق ، أما في الشام ، فهم يثورون على الحكم العباسي المرة بعد المرة ، لكنهم يضربون ، وتتوقف ثورتهم . أما الأعراب البدو ، فهؤلاء على شدتهم ومقدرتهم على القتال ، مما كانوا يستطيعون شيئاً كبيراً ، بل أنهكت قواهم الحزازات القديّة ، فهم يتقاتلون قتالاً قليلاً باستمرار ؛ فلم يكن إذاً للعباسيين أن يتحالفوا مع العرب ، وأن يعتمدوا عليهم اعتماداً كاملاً ليكنوا سلطانهم بهم .

حركات آل علي :

أما العنصر الثالث ، وهو آل علي فإنه لا بد أن يكون ذا شأن في الأمور . فالعباسيون قد حاربوه وحاولوا أن يقضوا على حركاته بقوة جيوشهم ، واستعانوا عليه أيضاً بتحالفهم مع رجال الدين الذين استطاعوا

أن يجعلوهم إلى جانبهم بأن اتخذوا سياسة دينية ، فلم يكن لآل علي مجال في النفوذ إليهم ؛ وكانوا قبل ذلك ينفذون إلى بني أمية عن طريق الدين والمتدينين . ولما رأى آل علي أنه ليس باستطاعتهم فعل شيء كبير ، أدخلوا رأيهم إلى قصور الخلفاء مع المعتزلة ، فالمعتزلة^(١) ميالون إلى آل علي ، وإن لم يكونوا شيعي المذهب ، وقد رأينا المأمون يقف إلى جانب آل علي والمعتزلة ، وسنرى أن من يتبعه من الخلفاء لا سيما المعتصم والواثق ، يتبعون السياسة نفسها .

خلافة المعتصم والعنصر التركي :

لم يكن للخليفة العباسي إذاً حليف قوي يستند عليه في تمكين سلطانه ، والمأمون في الدور الثاني من عهده استطاع أن يمكن ذلك السلطان بدهائه وقوته وحسن تفكيره : أما المعتصم الذي حلّ بعده فلم يستطع أن يفعل شيئاً من ذلك ، وقد خيل إليه أنه سيكون في مهب الريح إن بقي بعيداً عن التحالف ، وكان ابن أم تركية ، فوجد حلفاء الطبيعيين بين الأتراك ، فاتخذهم خدماً له وعبداً وجيشاً وقواداً^(٢) .

(١) نشأت فرقة المعتزلة في أواخر العهد الأموي ، وهي تتبنى فلسفة دينية تقوم على فكرة الاعتقاد بمعدل الله الذي منح الإنسان إرادة شخصية ، فهو - في رأيهم - مختار في عمله : يعمل الخير ويعمل الشر في حدود إمكانه . يستدلون على ذلك بأيات قرآنية ، بينما كان كثير من الناس يعتقدون أن الإنسان مسير ، لا يسيطر على أفعاله . أما القضية الكبرى التي شغلت الناس هي قضية خلق القرآن ، فهم يعتقدون أن القرآن نقله جبريل إلى الرسول ﷺ فهو إذاً منقول ومخلوق ، بينما أهل السنة يعتبرون القرآن صفة من صفات الله ويزهونه عن الخلق - المنقح .

(٢) لم يكن للمعتصم أول من اشترى الغلمان الأتراك واستخدمهم في الحرس والجيش ، بل إن المأمون سبقه إلى ذلك ، ولكن على نطاق ضيق ، وذلك بعد عودته إلى بغداد - المنقح .

وهنا ندخل في دور جديد من أدوار الخلافة العباسية ، وعلينا أن نبحث قليلاً في الأتراك ، فهم عنصر كان في ذلك العهد قوي الشكّية كل القوة ، وكانوا متمرّنين على أعمال الغزو ، وعلى ركوب الخيل ، وعلى الأسلحة والفروسية . أصلهم من شمالي الصين ، أتوا إلى ما وراء النهر ، فكانت لهم حصونهم وقلاعهم ، وقد أتوا إليها للكسب مهاجرين من الأمكنة التي لا يستطيعون أن يعيشوا فيها . هؤلاء الأتراك لم يكونوا مثقفين أبداً ؛ بل كانوا شبه أميين وكانت مقدرتهم الفكرية ضعيفة ، ولم يكونوا متحضرين كما كان العرب والفرس ، وجلُّ شأنهم السلاح والمقدرة الحربية ، فظن المعتصم أنهم مخالفون غير خطرين ، فاستقدمهم وأكثر من شرائهم ، وأرسل في طلبهم ، حتى كان له - على ما يقال - سبعون ألف فارس تركي في خدمته . وهكذا تخيل المعتصم أنه ركّز قوته على عنصر مهمّ ، وأن الأمر سيستقيم له بهذا العنصر .

وكان المعتصم قويّ الشكّية ، قوي الجسم قوة هائلة ، بحيث كان يحمل الأبطال الهائلة ، وكان يقاتل بأحسن أنواع القتال ، وكان يمسك بالعود من الحديد ، فيثنيه مرات إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي اشتهر بها في ميدان القوة .

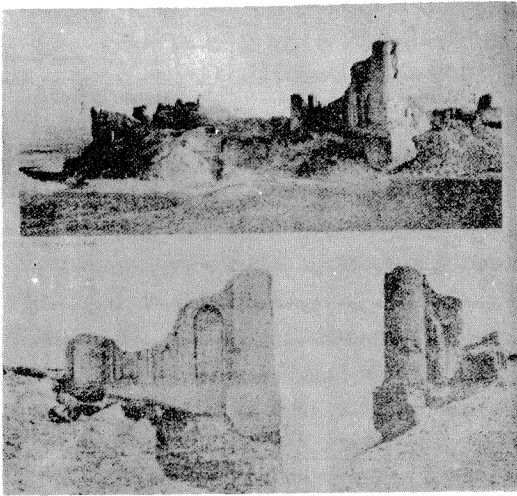
كان يحب الترك لقوتهم أيضاً ، لكنه لم يكن يدع لهم مجالاً في السيطرة عليه ، وبقي هو المسيطر عليهم ، إنما هم عنده عبيد وخدم ؛ غير أنه شعر بخطرهم عندما أخذ أهل بغداد يتذمرون منهم ، فقد كانوا ينزلون بخيولهم إلى الأسواق فيطؤون الصبيان والعجزة ، فيثور عليهم العامة ، ويقتلون منهم ، ويذهب دم المقتولين هدرًا . زاد استياء الناس منهم حتى

وجد المعتصم أن الحالة لا يمكن أن تستمر ففكر ، وأدى به تفكيره إلى أمر خضير وهو أنه رأى أن من واجبه أن ينتقل من بغداد إلى مدينة أخرى يقرّ فيها أتباعه ، فيكون قد أبعد جنده عن كافة الناس وتحصن هو من الفرس ، وتحصن من آل علي .

بناء مدينة سُرّ من رأى :

شرع في بناء مدينة سُرّ من رأى (سامراء ^(١)) . بناها على مسافة من بغداد (على بُعد مئة وأربعين كيلو متراً تقريباً) ، وانتخب لها مكاناً عالياً حصيناً ، أوصل إليه الماء وزوّده بأسباب الدفاع والصدود . وسع المدينة وعرّض طرقاتها ، كيلا يصطدم الجيش بالشعب ، وجعل في سامراء شارعاً (اسمه الشارع العظيم) ، وهو طويل جداً وعريض جداً ، وبنى في سامراء القصور ، وأقطعها لأصحابه وجيشه وأتراكه ، فصار للأتراك أراض يقيمون فيها وبيوت ومساكن ، وتمكنوا من المكان الذي هم فيه ، فأصبحوا أسياد المدينة ، وأصبحت المدينة لهم ، فلاجلهم عمرت وبهم تقوم . من الطبيعي أنهم في عهد المعتصم لا يقدرّون أن ينقلبوا على الخليفة ، لكنهم في سامراء في بلدهم ، والزمن يتقدم وسلطانهم يتقدم أيضاً .

(١) يقال إن اسم المدينة تحوّر إلى (ساء من رأى) بعد خرابها ، فأصبحت الكلمة (سامراء) - المنقح .

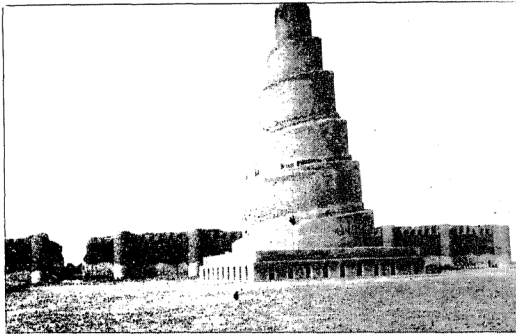


جوانب من أطلال مدينة سامرا عن (كرزويل)

خلافة الواثق ثم المتوكل :

توفي المعتصم عام سبعة وعشرين ومئتين للهجرة ، قام بالأمر من بعده ابنه الواثق . سار الواثق على خطة أبيه وعمه المأمون ، فحالف المعتزلة ، وحالف الأتراك وكان الواثق يشبه المأمون بمعرفته العلمية ، حتى كان يسمى المأمون الأصغر ، لكنه لم يكن بدهاء المأمون ، ولم يكن في ميدان السياسة بمعرفته ، فألقى بمقاليده أموره لوزرائه ولقواده الأتراك ، فترك لأشخاص إدارة غربي الدولة ولأيتاخ إدارة شرقيها ، فتقسمت المملكة بين الاثنين ،

وأصبحا سيدي الأمر فيها . وغلط الواثق غلطة أخرى : وهي أنه لم يعهد بولاية العهد من بعده لإنسان ، بل توفي ، ولم يكن للدولة وليّ للعهد ، فضرب بذلك التقليد الذي سار عليه الخلفاء منذ عصر معاوية ، وترك الأمور تضطرب بين أيدي الأتراك وبين أيدي وزرائه ، ومدّ الأتراك يدهم ، فبحثوا مع الوزراء فين يولونه الخلافة ، فوجدوا ابناً للواثق ، ألبسوه ثوب الخلافة ، فوجدوه كبيراً عليه ، فخلعوه عنه ، والتجؤوا إلى المتوكل أخي الواثق ، فجعلوه خليفة ، وهكذا أصبح الأتراك هم الذين يولون الخليفة . توالى الأغلاط السياسية من الخلفاء العباسيين ، ففتحت للأتراك أبواب استجلاب أبناء جلدتهم مما وراء النهر ، على مقياس واسع ، الأمر الذي جعلهم أصحاب عاصمة الخلافة ، وأسياد البلاد ، يولون الخليفة نفسه ، أليس كل هذا بكاف ليشتطوا ، فيظنوا أن الأمر وصل إلى أيديهم ولن يخرج منها .



المئذنة الملوية في سامرا (تصوير المديرية العامة للأثار العراقية)

سياسة المتوكل المناهضة للترك :

جاء المتوكل إلى الخلافة فوجد أن الأمر على ما وصفنا ، حاول أن يوقف ذلك التيار ، ووضع خطة لذلك ، وظن أنه قادر على تنفيذها ، ذلك أنه أبعد نفسه عن الأتراك ، وبحث عن حليف جديد ، فوجد حليفه في أهل العراق من أهل بغداد . وأهل بغداد - كما قلنا - عرب أكثرهم سنّيون على طريقة أهل السلف ، ولا يقبلون بالاعتزال ، فكان على الخليفة المتوكل أن يحارب الاعتزال ليرضيهم ، ف ضرب الاعتزال ضربة شديدة ، وأطلق المسجونين من أهل السنة الذين كانوا قد أوقفوا لعدم قولهم بخلق القرآن ، وأطلق سراحهم وقربهم إليه . وأبعد المعتزلة واضطهدهم ، بل كان يشترط في فداء الأسرى المحجوزين عند الروم أن يقرّ الأسير بأن القرآن غير مخلوق ، وأن يقرّ بمخالفته لأهل العدل والتوحيد . وقد ذكرنا أن المعتزلة كانوا ميالين بعض الميل إلى الفكرة العلوية . حارب المتوكل تلك الفكرة بحاربه المعتزلة ، واضطهد آل علي باضطهاده للمعتزلة ، وتشدّد وتزمت في تعصبه للدين ، فاضطهد أهل الذمة اضطهاداً شديداً ، وهدم كنائسهم المحدثه ، وأبعدهم عن دواوينه ، ولم يقبل بتعيين أحد منهم فيها ، وفرقهم عن الشعب والمسلمين ، فجعلهم لا يركبون إلا البراذين والبغال ، دون الحمير والخيول ، وألزمهم بأن يضعوا على أبواب بيوتهم صوراً وتمائيل للشياطين ، وألزمهم بأن يقتصروا على السروج الخشبية . وهكذا ضيق عليهم كل الضيق ، وهو في ذلك يحاول أن يتقرب من عامّة الناس الذين كانوا يضيقون صدرأ بأهل الذمة . قرب المتوكل التجار والصناع والفلاحين وأغدق عليهم الأموال ، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنية ، بل تقرب من الناس بشيء عزيز على نفوسهم ، هو أنه أجّل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر ، لكن هذا الإصلاح لم يدم ، فقد عاجلته المنية قبل تنفيذه .

فالمتوكل إذا تقرب من الشعب ، وجعل الشعب حليفه ، وحالف أيضاً العرب ، بل إنه استقدم إلى بغداد من العرب عدداً كبيراً ، أدخلهم في جيشه أو بالأحرى في جيش ابنه المعتز ، وقصد أن يرجح بهم على كفة الأتراك ... كل هذا ليوقف أمام الأتراك وليضربهم . حاول أيضاً أن يوقع بين الأتراك أنفسهم ، فجعلهم يتفرقون شيعاً وأحزاباً ، وضرب بعضهم ببعض ، بل ضرب أحدهم ضربة شديدة . بعد أن تمكن من الأمر ، وهو أيتاخ فإنه حسن له أن يذهب إلى الحج ، ولما سار إلى الحج عيّن بُغا مكانه ، ولما رجع إلى بغداد ألقى القبض عليه ، وسجنه وبقي في السجن إلى أن مات .

ثم إن المتوكل أراد أن يبتعد كل البعد عن الأتراك ، وأن يسيطر عليهم من بعيد ، فنقل عاصمته إلى دمشق^(١) بين العرب وأقام فيها ؛ واتخذ حزبه من أهلها . غير أنه لم يفلح في هذا ، فالأتراك ثاروا عليه في العراق وطالبوا بأرزاقهم ، وكادت تحصل فتنة لولا أن بُغا وقف إلى جانبه ، وأصلح الأمور . ووجد المتوكل أنه أطلق زمام الأمر في العراق إلى الأتراك ، ولبث بعيداً عنهم ؛ فعاد إليهم ليراقبهم منها ، لكنه لم يرض بأن يعود إلى سامراء ، وأن يكون رهينة بين أيديهم ، بل عمر مدينة لنفسه قريبة من سامراء وسماها باسمه المتوكلية ، وأقام فيها جنده وحاشيته .

أخطاء المتوكل :

بكل ذلك تخيل المتوكل أنه يستطيع القضاء على سلطان الأتراك ، وهو ما كان باستطاعته أن يقضي عليهم قضاء نهائياً ؛ لأنهم كانوا في جدران عاصمته بالذات ، وكانوا أقوياء ، وكانوا ينتظرون منه الخطأ القليل لينقضوا عليه . أخطأ هو كما أخطأ من سبقه كالوائق والمعتم فبدد أموال الدولة

(١) حاول أن ينقل عاصمته إلى دمشق لكنه لم يوفق - المنقح .

ببناء القصور وإكمال بناء سامراء وبناء المتوكلية حتى أنه كان يعجز بعض العجز عن تأدية أعطيائهم . وجد الأتراك عندئذ أن مصلحتهم أن يجتمعوا بعد أن يكون المتوكل قد فرّقهم ، ويتألبوا عليه بعد أن يكون قد ظن أنه أوقع بهم في الخصاص .

ثم أخطأ خطأ كبيراً ، ففعل كما فعل جدّه الرشيد ، وعهد بولاية العهد من بعده لأبنائه الثلاثة القصر الصغار ، واحد بعد الآخر : المنتصر فالمعتز فالمؤيد . وقسم الدولة بينهم ، وأعطى المنتصر أكبرهم حصة الأسد . وهكذا أوقع أولاده في الخلاف فيما بينهم ، وسار هو بعد ذلك مع ميوله وعاطفته ، فوقف إلى جانب المعتز ، وصار يصدق عليه الأموال ، وأهل ابنه المنتصر ، وعهد للمعتز بخزن بيوت الأموال ودور الضرب ، وكان يتهم على المنتصر ويستبعده ، فاضطرب المنتصر لذلك ، ووجد الأتراك بغيتهم فتقربوا إلى المنتصر ، وتحالفوا معه ، وأوغروا صدره على والده ؛ وكان موغراً قبل ذلك ؛ ولما تبين لهم أن المتوكل يريد أن يقتل وصيفاً وبغا وهما رئيساهم المفضلان ، تجمعوا وأقبلوا على المنتصر يحرضونه على والده ، وساروا إلى المتوكل جميعاً ، فوجدوه يشرب ، فقتلوه وهو على مائدة الشراب .

الأتراك يستبدون بالأمر :

وهكذا أصبح الأتراك قتلة الخلفاء ، وأصبح الخلفاء يخشون شرهم ومن أتى من الخلفاء من بعد ذلك ساروا حسب إرادتهم ، وانضوا إلى لوائهم ، فلم يُجد ما فعله المتوكل معهم ، ولم تنفعه شخصيته القوية ومهارته وحكمته لأنهم قد تمكنوا في العراق ، وأصبحوا أصحاب الأمر فيه .



الثورات :

أصبح الأتراك في هذا العهد أسيادا ، يخلعون الخلفاء ، ويقومون غيرهم مكانهم . إن العهد الذي يتسم بتقلص سلطة الخلافة من عهد المعتمد والواثق والمتوكل ، لا يحوي فقط أثر الأتراك وتسلمتهم على الدولة ، فهو عهد يتلو ما قبله ، ويكمل ما فيه ، ويرث ما عنده ، وليس هو عهداً حديثاً ، بل إنه يكمل عهداً قديماً . إذن ينبغي علينا أن نتكلم عن آثار العهد السابق فيه وامتدادها إليه ، فنستعرض في سبيل ذلك الثورات الداخلية والحروب ، والحالة الاقتصادية وما تبعها .

ثورة بابك الخرمي :

أما الثورات ، فطبيعي أن يكون هذا العهد قد ورث عن العهد السابق امتداد الثورات التي كانت تقلق راحة الخلفاء فيه . كانت أول ثورة امتدت إلى هذا العصر هي ثورة (بابك) وقد بحثنا في هذه الثورة في عصر المأمون ، ورأينا أنها أنهكت جيشه مدة من الزمن ، مع أنه استطاع أن يدفعها بعيدا ، وتوفي قبل أن يقضي عليها ؛ أتى المعتمد فكان عليه أن يحو أثرها فجهز إليها الجيوش الكبيرة الضخمة ، وعمل غاية جهده فحياها عن بكرة أبيها .

ثورة المازيار :

غير أن ثورة جديدة ظهرت في الجو ، وهي شبه ثورة بابك ، ألا وهي ثورة المازيار . فالمازيار خرمي إباحي ، ظهر في طبرستان ، وامتدت قوته ؛ واضطر المعتمد إلى أن يطلب العون من عبد الله بن طاهر ليقضي على فتنته . هاتان الثورتان ، ثورة بابك وثورة المازيار ، تدلان

على جَيّشان عند الفرس ، ورغبة منهم في الابتعاد عن الخلافة ، وفي الوصول إلى مطالب خاصة . بعض الفرس قد اعتنقوا الحرّمية ليفتدوا أنفسهم من حكم العرب ، وليفتدوا أنفسهم أيضاً من حكم أصحاب الإقطاع الفرس ، الأغنياء ، المتحكين . ليس غريباً أن نرى الفرس ذوي الزعرة الدينية الإسلامية الصحيحة يحاربون هذا الاتجاه بأثر من التدين ، وأن نرى ذوي المصلحة يحاربونه أيضاً ، كما فعل عبد الله بن طاهر .

الثورات العربية :

هذه القبائل العربية في الجزيرة تثور ، لكن ثورتها ليست موجهة ضد الدولة ، فهي اختلاف بين القبائل ، وهي ثورة نفسية تتطلب شيئاً لا تدرك ما هو على الضبط : ثار بنو سليم ثم ثار بنو فزارة ثم بنو نمير ، لكن ثوراتها هذه ظلت ثورات محلية محدودة . قضى عليها بُعَا قائد المعتمم قضاءً سريعاً . واثارت القبائل العربية في أذربيجان ، وحضت غيرها من الناس على الثورة ، وهي قبائل في معظمها مشكّلة من بني ربيعة بن وائل ، ثارت في عهد المتوكل ، فأرسل إليها بُعا أيضاً ، فأخذ فتنتها .

تربّص آل علي :

إذن يأخذ هذا العهد من العهد السابق ثوراته ، ونرى أن بعض آل علي يحاولون أيضاً محاولات لا تظهر واضحة إلا في العصر اللاحق .



العلاقات مع الروم البيزنطيين :

والأمر الخطير في حوادث هذا العهد هو الحرب مع الروم ، فقد ظهر شيء جديد في جو هذه الحرب : ذلك أن الروم بعد أن كانوا مغلوبين ،

أصبحوا الآن يغيرون على البلاد العربية : ويفتحون ثغرات في أرض المسلمين وأصقاعهم ، وأصبحوا الآن أقوياء . يعتبر هذا العصر بداية انقلاب في اتجاههم ، ينتهي بإقامة دولة بيزنطية جديدة سنة ٢٥٦ هـ = ٨٦٧ م اسمها الدولة المقدونية ، دولة قوّت الحكم البيزنطي ، وبعثته من جديد ، وسارت في طرائق اليونان القديمة ، وبنت وأقامت وسائل الحضارة . شرع البيزنطيون في هذا العهد يظهر قوتهم ، ومارست تلك القوة نشاطها في محاربة العرب ؛ فبعد أن كان الروم يتلقون الهجمات العربية أصبحوا هم المهاجمين . ولا ريب أن العرب المسلمين استطاعوا أن يوقفوا هذا التيار وذلك الاندفاع ؛ وكانوا يؤدّبون الروم في بعض الأحيان تأديباً قوياً ؛ لكن هذا الاتجاه الجديد يعتبر حادثة من الحوادث الكبرى في هذا العصر ، وقد تغيّر فيه ميزان القوى ، وأصبح الروم يحسب حسابهم . وكان على المسلمين أن يقفوا أنفسهم في الداخل ليستطيعوا مقاومة الروم مقاومة مُجدية ، غير أنهم مع الأسف لم يفعلوا ذلك ؛ فكان أن اشتط الروم في العهود التالية اشتطاطاً كبيراً ، حتى وصلوا إلى حلب وما بعد حلب .

أما في هذا العهد الذي ندرسه ، فإن الروم - كما قلت - كانوا يغيرون على بلاد المسلمين وثغورهم. هذا هو تيوفيل يغزو زُبْطَرَة من ملك الإسلام ، ويأسر الأسرى ، ويأخذ الأطفال والنساء بعدد كبير ، وتصيح امرأة هاشمية من بين الأسرى « وامعتصاه » ، فينتقل هذا الخبر إلى المعتصم في مجلس ملكه وخلافته ، فيهب واقفاً ، ويستدعي آلة حربه ، فيشدّها على ظهره ، ويخرج من قصره إلى مخيمه بعد أن يقول : « لبيك » ، ويأبى أن يرفع آلة الحرب من على جسمه إلا بعد أن يلبي نداء تلك الهاشمية . وبعد مدة يسيرة ينطلق هو وجيش عظيم هائل - لم ير مثله - إلى بلاد الروم .

ويلقي القبض في أثناء الطريق على أحد الأسرى الروم ، ويسأله عن بلد ملكهم ، فيعرف أن تيوفيل ولد في عمورية ، وأنها البلدة الحصينة العظيمة التي يعلق عليها الروم الشأن العظيم ، فيقرّ قراره على أن يغزو هذه المدينة ، وأن يهدمها انتقاماً لما فعله ملك الروم ، ويسير إليها فيحاصرها محاصرة أجدت في آخر الأمر ، فدخل المدينة وهدمها ، ونقل باباً من أبوابها إلى بغداد . بقي هذا الباب في بغداد حتى عصر التتار .

اقتص المعتصم للهاشمية من الروم الغزاة ، لكن الروم لم يروعوا ، بل عادوا بعد عصره إلى الغزو أيضاً على بلاد المسلمين ، ففي سنة مئتين وإحدى وأربعين للهجرة أغاروا على عين زربه وقبضوا فيها على أسرى كثيرين ، وكانت ملكتهم تيودورة^(١) / فقتلت اثني عشر ألف مسلم رفضوا أن يتنصروا . قاتلها المسلمون ، ثم آل الأمر إلى نوع من الصلح المؤقت ، اقتدي به الأسرى من الطرفين .

من هذه الحوادث يظهر لنا أن الروم قد نشؤوا نشأة جديدة ، وأن خطرهم أصبح جسيماً ، ولم يستطع المسلمون في العصور السابقة أن يقضوا على الروم ، وأن يحتلوا القسطنطينية بسبب مشاكلهم الداخلية . وعندما بدأ نجم المسلمين بالأفول ، أخذ يعلو حظ الروم وطمعوا بالبلاد الإسلامية .

الحالة الاقتصادية :

أما الحالة الاقتصادية ، فهي اتصال بالحالة الاقتصادية في العهد السابق ، إلا أن الموارد بدأت تجفّ ، والنفقات أخذت تزيد ، فالعهد السابق كان عهد غنى كبير وثروة هائلة ، ودخل عظيم . استمر هذا العصر في أوله

(١) يذكر اسمها المؤرخون العرب (تدورة) - النقع .

على هذا النحو ، لكن المعتمد ، وقد اتخذ الأتراك حلفاء له ، اضطر - كما رأينا - إلى أن يعمر مدينة جديدة ، ويحصنها وهي مدينة سامراء ، وعمر المتوكل قسماً كبيراً من المدينة أيضاً ، وعمر أيضاً مدينة المتوكلية وعدداً هائلاً من القصور ، حتى أنه بلغ ما أنفقه على البناء تسعين ومئتي مليون درهم ، أي ما يقارب اثني عشر مليون دينار ، وهو مبلغ ضخم ؛ وكانت حالة الدولة لا تتحمل كل هذه النفقات ، بل كان يحدث في أثناء البناء أخطاء تنفق الدولة على إصلاحها المال الكثير ، فيذهب هذا المال هدرًا ، ومثال ذلك ، أن المتوكل حاول شق فرع من نهر الدجلة ، يصل إلى الأماكن العالية من سامراء ، ثم تبين أن المهندسين أخطؤوا خطأ فاحشاً في التقدير ، فالماء لا يبلغ ارتفاعه ارتفاع الأماكن التي كان مقدرًا له أن يصل إليها ، وهكذا ذهب كل عمل علموه في سبيل ذلك هدرًا وبطلاً . هذا وكانت النفقات كثيرة في غير ذلك من الأمور : نفقات الحلفاء والحاشية والبلاط ، فحاشية الخلفاء واسعة والنفقة عليها واجبة ، وجيش الترك يتطلب الرواتب الضخمة ، وهو لا ينتظر طويلاً لقبضها . لذا كان الخليفة دوماً بحاجة إلى المال . أما الدخل فلم يكن كما كان عليه سابقاً في عهد الرشيد ؛ فالرشيد كان هو المتولي على المال في عهده الثاني ، وكان البرامكة هم المتوكلين على المال في العهد الأول . أما في الفترة التي ندرسها ، فالولاة المنتشرون في أنحاء الدولة قد شعروا بشيء من الاستقلال والقوة ، فهم لا يؤدون كل ما عليهم بكامله ؛ والذي يصل إلى بغداد ، فإن دار الخلافة لا تستفيد إلا من قسم يسير منه . ثم إن الخلفاء اعتادوا في هذا العهد على إقطاع الأتراك ورجال الدولة إقطاعاً واسعاً ، فأصبحت معظم الأراضي في يد هؤلاء الكبار من رجال الدولة ، وهم لا يؤدون منها ما عليهم من ضرائب ، بل هم طامعون في أكثر مما بأيديهم . ثم إنهم لا يلتفتون إلى أملاكهم وإلى تحسين زراعتها ، فكانوا

يتركون أمر إقطاعاتهم إلى وكلائهم . وهي إقطاعات واسعة لا يهتم بها الوكلاء كل الاهتمام . والأرض إن لم يكن صاحبها مهتماً بها ، وإن لم يكن محتاجاً إلى ثمرتها ، فإنها لا تدرّ عليه الثمرة كما ينبغي .

كذا كانت الحالة المادية في آخر العهد الذي نتكلم عنه ، حالة سيئة بعد أن كانت في أوله مزدهرة . وهي حالة ورثها هذا العهد وأورثها للذي بعده ، فزاد الاضطراب ، وقوي الشغب من الأتراك بالمطالبة برواتبهم ، وخفّ دُخْل الخليفة ، وقصرت يده عن المال .

السعي لإيجاد موارد جديدة :

وفي عهدنا هذا سعى الخلفاء كي يجدوا أبواباً جديدة من الدخل ، فوجدوا ذلك عند كُتّاب الخراج ، وكانت لا ترد إلى خزانة الخلافة الضرائب التي كانت تجبي ؛ لأن كُتّاب الخراج كانوا يستولون على هذه الضرائب ويتقاسمونها فيما بينهم قبل أن يودعوها ببيت المال . والذي يدخل منها خزانة المال قسم ضئيل . من هذا كله حصلت الرشوة ، وحصل اضطهاد المكلفين لأداء الضريبة ؛ وذلك ليصل الكُتّاب إلى أكبر حظ من الكسب والربح والمال . ووجد الخلفاء الحاجة إلى الأموال ، يؤدونها إلى الأتراك والحاشية ، ويسيرّون بها أمور الدولة ، إلى جانب ما يعمرّون بها من بناء ، ووجدوا هؤلاء الكُتّاب قد أثروا ثراء فاحشاً ، فدّوا أيديهم إليهم ، وأخذوا بحاسبونهم على المال الذي عندهم ، وصاروا يصادرون تلك الأموال بعد نكبة كبيرة ينكبونها بها : فيضربون الكاتب ضرباً مبرحاً ، ويستنطقونه على ما أخذ من أموال ، وعلى ما كتب لنفسه من ضياع ، ثم يصادرون كل ذلك ، ويضعون كاتباً جديداً . وقد يكون الكاتب الجديد هو الذي سعى بفضح الكاتب القديم ليحلّ محله ، فيأخذ الكاتب الجديد بجميع الأموال جمعاً

كبيراً ، ثم بنكب هو بدوره ، ثم يأتي من بعده كاتب آخر ، تحلّ به النكبة فيما بعد .. وعلى هذا النحو، فقد أصبحت عادة المصادرة هي عادة الدولة في هذا العهد ، وأورثها العهد الذي بعده ، وأصبحت سنة عند الخلفاء، لكنها سنة سيئة للغاية ، فالكاتب كان عليه أن يثري بسرعة ، حتى لا تأتية يد الخليفة بسرعة ، فتقف، على ما عنده ، والخليفة كان بحاجة إلى المال ، ويتطلب تأمينه بسرعة ، وكان يطلب أكثر مما يستطيع الكاتب أن يعطي خوفاً من التهريب ، وينتهي كل ذلك بنكبة هائلة للكاتب يتبع ذلك تشويش واضطراب لأعمال الدولة ومصالحها . أما دافع الضريبة فكان يئن تحت الأعباء الثقيلة . قد حاول بعض الخلفاء أن يرفعوا الجور عن الشعب ، وفهموا أن تشجيع التجارة يزيد في دخل الدولة ، فشجعوا التجارة تشجيعاً كبيراً ، وألقوا عن كاهل التجار بعض الضرائب التي كانت توضع عليهم . مثال ذلك أن التجار الذين كانوا يتاجرون مع الصين ، رفع عنهم العُشر الذي كان يؤخذ منهم كرسوم دخول .

محاولة إصلاح نظام الضرائب :

حاول المتوكل أن يقوم بالإصلاح الزراعي لرفع الغبن عن الناس في الضرائب ، فقد كان المزارعون يدفعون الضرائب قبل خروج الثمر فيتضايقون من ذلك ، فأجلّ دفع الضرائب عنهم حتى بعد الحصول على الثمر ، لكن الخليفة قتل قبل أن يأخذ ذلك مجرى العادة ، وعادت الأمور بعده إلى مجراها السابق .

تدهور النظام المالي :

وبالجملة ساءت الأحوال سوءاً شديداً اعتباراً من هذا العهد ، وأصبحت المصادرة من أهم وسائل دخل الخليفة . هذا هو الواثق يصادر في عهده ألفي

ألف دينار ؛ أما المتوكل فقد نُمي إليه أن عدداً من كُتّابه جمعوا الأموال ، فألقى القبض عليهم . رضي كاتبان منهم أن يقدموا ألفي ألف دينار دون أن يعذبا ، فقبل منهما ذلك ، وأطلق سراحهما . أضف إلى ذلك كله أن شؤون الوزارة اضطربت ، والخليفة لا يستطيع القيام بالأمر ، لأنه مشغول البال ؛ لذا كان يلقي مقاليد أمره إلى وزرائه ، إلا أن هؤلاء كانوا غير صالحين ، وكان معظم وزراء هذا العهد أميين أو شبه أميين ، لا يعرفون كيف يتصرفون في شؤونهم الخاصة ، فكيف وقد أسند إليهم التصرف بالشؤون العامة ؟ أتى من الوزراء وزير عارف هو عبد الملك بن الزيات ، لكنه كان شديداً قاسياً ظالماً ، فسارت الأمور على بعض النظام في عهده ، لكن هذا التنظيم كان تنظيم القوة والشدة ، حتى أنه أحدث تنوراً ليضع فيه من يريد أن يعذبه ؛ إلا أنه أخيراً وضع هو في التنور وقتل فيه .

أخيراً نرى أن هذا العهد ، ورث عن العهود السابقة عواقب الثورات وحروب الروم ؛ لكنه أورث العهود التي تلتها حالة مادية ضيقة واضطراباً في شؤون الخلافة . ولعل ذلك كله يرجع إلى ما أحدثه الانقلاب الذي صنعه المعتصم في جلبه الأتراك من بلادهم وتقريبهم وإتاحة الفرصة أمامهم ليستبدوا بالسلطة .



تضعف الخلافة العباسية

(٢٤٧ - ٢٥٦ هـ)

رأينا في البحث الماضي تقلص الخلافة العباسية ، وتدهور نفوذها وإمساك الأتراك بزمام الأمر يديرونه بسلطانهم وقوتهم ، وسرى في هذا البحث كيف أدى ذلك إلى تضعف الخلافة العباسية حتى كاد أن يقضي عليها . ولا ريب أن الأحداث السيئة إذا أملت بإنسان أو جماعة أو دولة ، تراكت عليه وأخذت بأطرافه جميعها ، فإنه ينوء بحمله ويخرج الأمر من يده ؛ وهذا ما حصل للخلافة العباسية ؛ فقد اجتمعت حوادث الأتراك وتراكت وأخذت تسيء إلى تلك الدولة ، فكادت تنقض أركانها .

تلخيص أحوال الخلافة في هذه الفترة :

أحدثت تلك الحوادث مظاهر في تلك الخلافة ، يمكن تلخيصها بثلاثة أمور : أولها : إن الخلفاء أصبحوا في أيدي الأتراك كالدمى ، يحركونهم كما يشاؤون ، ويلقبونهم على الأرض متى يشاؤون . وثانيها : (وقد أتى من أولها) إن الأمصار أخذت تستقل عن الخلافة العباسية وتبتعد ، وأخذ الأمراء يديرون إماراتهم بأنفسهم ، منتهزين وضع الخلافة السيء . وثالثها : إن ثورة جاححة في العراق وثبت فجأة أمام عيون الناس ، فكادت تلتهم الأخضر واليابس ، وهي ثورة الزنج .

إن هذه الحوادث وتلك الفتن والمظاهر السيئة لم تنقض تماماً على الدولة

العباسية ، إنما خرجت الخلافة منها تحمل آثار الخذلان ، ومع ذلك خرجت منها وهي لا تزال دولة وخلافة ، بعد أن انتشلت نفسها من الردى ، وتخلصت من الأتراك ، وقضت على ثورة الزنج . إن خلاصها هذا أسباباً تأتي في مكانها من البحث . وتتناول قبل كل شيء الفتن الثلاث ، الواحدة بعد الأخرى ، ندرسها دراسة يتم لنا بها معرفة ما تم في عصور تعتبر عصوراً مظلمة ، بالنسبة لبني العباس .

مقتل المتوكل ثم ابنه المنتصر :

بلغ الأتراك بعد قتلهم المتوكل أعلى درجات القوة والسلطان ، فقد أصبحوا قتلة الخلفاء ، ولم يكن من الصعب عليهم أن يجتمعوا على المنتصر ابنه الذي أصبح خليفة ، وأن يرغموه على أن يبعد أخويه عن ولاية العهد . وكان المتوكل - كما رأينا - قد عهد إلى ثلاثة من أولاده بولاية العهد . أما المنتصر هذا فقد حاول أن يتخلص من سلطان الأتراك ، وكان يجهر بذلك فيقول : « إن الأتراك قتلة الخلفاء » يقول ذلك بنوع من الحقد ؛ إلا أن الأتراك لم يهملوه ؛ فإنه ما انقضى على حكمه ستة أشهر حتى مات ، وهو آسف على ما فعله مع والده ، نادم على أنه كان أول خليفة يقتل أباه . وبديهي أن موته هذا ليس طبيعياً ، فقد كان في نضرة الشباب ، ولا بد أن يداً قد تناولته بالقتل أو بالسّم أو بما يوجب الموت .

خلافة المستعين :

ولما مات المنتصر نظر الأتراك في شأنهم ، فاستبعدوا ابني المتوكل عن الحكم ، وعادوا إلى ابن للمعتصم ، فقالوا : المعتصم أستاذنا ومولانا ، فنحن نرى أن ابنه أجدر أن يكون خليفة ، فقلدوا المستعين خليفة ، لكنهم لم يَدَعُوا هذا الخليفة يقوم بأمر الخلافة على ما ينبغي ، بل تمكن من السلطان

فيها أحدهم أتماش ؛ ولم يكن الأتراك الآخرون يريدون أن يتمكن أحدهم من الحكم ، فاجتمع على أتماش وصيف وبُغا وقتلاه ، لكنها لم يتمكن من السلطان ، بل كان صاحب السلطان هو باغر ، وحاول باغر قتل المستعين ؛ فاتفق المستعين مع وصيف وبغا وهرب إلى بغداد . فندم باغر وأصحابه حين هرب الخليفة منهم ، وكتبوا إليه يستعطفونه ، ويطلبون إليه العودة إلى سامراء ، لكنه لم يستجب إلى مطلبهم ؛ فبحثوا عن خليفة لهم ورجعوا إلى أولاد المتوكل فاختراروا المعتز وولّوه الخلافة .

خلافة المعتز :

وقعت الحرب بين المعتز وبين المستعين ؛ والمستعين في بغداد مع أهلها وقائدها محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وقد التحم بقوة المستعين عيَّارو بغداد وشطَّارها ؛ وكان المعتز مع الأتراك في سامراء . كان أهل بغداد أكثر عدداً من الأتراك ، لكنهم كانوا غير منظمين . حاول المستعين أن يقطع التوطين عن سامراء ، وحاول كل من المعتز والمستعين الحصول على الأموال التي ترد من الأمصار ، لكنَّ المستعين غلب على أمره ، وأحيطت بغداد وحوصرت ، وامتدَّ أمد الحصار ؛ فلم يقدر الشعب على الاستمرار ، وبحث عن مخرج للأمر ، فاتصل قائد بغداد وقاضيهما بالأتراك ، وفأوضحهم بالأمر لإنهاء الحرب ، وتم الاتفاق على أن يتنازل المستعين للمعتز عن الخلافة ، فضمن حياة المستعين . اضطر هذا لقبول الصلح ، فأنتقد بذلك حياته .

أما المعتز الخليفة الثالث في هذه الظروف فإنه لم يستطع العمل أيضاً مع الأتراك ، فقد انقسموا عليه ، ومال هو إلى الفراغنة^(١) والمغاربة من

(١) أهل فرغانة وهم من وراء النهر شرقاً - للنقح .

الجيش ، فاضطرب أمر الأتراك لهذا الميل ، وطنوا السوء بالمعتز فحضروا إليه وطالبوه بالرواتب ، وكان بيت المال فارغاً ، فلم يستطع أن يؤدي الأموال المطلوبة ، ولجأ إلى والدته قبيحة وطلب منها أن تعينه بخمسين ألف دينار ، فادعت أنها لا تملك هذا المبلغ ، وهجم الأتراك على القصر ، وأخذوا الخليفة ، ووضعوه في الشمس فوق الرمل ، يرفع رجله تارة ، وينزلها مرة أخرى من الحر ، وأخذوا يضربونه بدبايسهم ، ثم أرغموه على أن يتنازل عن الخلافة لابن للوائق الذي لقبوه بالمهتدي ثم قتلوا المعتز بعد ذلك .

خلافة المهتدي :

هذا المهتدي رجل تقي محب للخيرات ، حاول أن يفعل شيئاً في عهده بمقدرة وحكمة ، أحبه خواص الناس وعامتهم ، لتقاه وتقشفه وجهه للعدل ؛ فقد فتح أبوابه للنظر في المظالم ، وقَلَّ من نفقاته الخاصة ، فلم يكن يأكل إلا القليل ، واقتدى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وكان يقول : « إني أكره ألا يكون لخلفاء بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز » ؛ وأقبل على الأتراك يضرب بعضهم ببعض ، ويوقع بينهم ، وقبض على بايكباك^(١) زعيمهم وقتله . ولم يكن ليتجاسر الأتراك عليه في أول الأمر ، إلا أنه بعد أن قتل بايكباك ، هجموا عليه ، وقتلوه ، وأحضروا أحمد بن المتوكل ، فعهدوا إليه بالخلافة باسم المعتد فبوع له بذلك ، وفي عهده حصلت ثورة الزنج .

(١) هكذا ذكر الطبري (الحسينية ج ١١ : ص ١٥٦ وغيرها) : أما ابن الأثير (٧ : ٦٠) فإنه يذكر اسمه

(بايكبال) - المنقح .

خلافة المعتمد ونفوذ أخيه الموفق :

ماذا يستخلص من هذه الحوادث المتشابكة الكثيرة التعقيد : خلاصتها أن الأتراك كانوا يعبثون بالخلفاء دون نظام ودون فكرة تقوهم إلى غاية معينة ولا خطة واضحة . هم طبعاً كانوا يبغيون المال والسلطان ، وكان كل منهم يسعى إلى المال والسلطان ؛ ولما لم تكن لهم خطة مرتبة ، فإن الأمر انتهى إلى الاضطراب والقلق . في الواقع إن الأتراك كانوا حين يغضبون على السلطان لا يعرفون ماذا يفعلون ، ولم يكونوا على وفاق فيما بينهم ، فكان من يصل منهم إلى القوة يبغضه زملاؤه ويحاربونه ويقضون عليه . وكانت الغيرة تأكل من أكبادهم ، فلا يستقرّ لهم حال ؛ كانوا متخالفين متخاصمين دائماً . يرى الخليفة ذلك فيطمع فيهم ، ويزيد في شقة الخلاف بينهم ، لكنهم كانوا يصبحون يوماً ، فيجدون أن الأمر سيخرج من أيديهم ، فيتكاتفون مرة أخرى ، ثم لا يجدون أحسن من قتل الخليفة ، ثم لا يعرفون بعد ذلك من هو الخليفة الذي يلائمهم ويلئم أحوالهم .

وكانوا لا يعرفون من هم الوزراء الذين يسرون حسب رغباتهم ، فكانوا يتركون للخليفة أمر تعيين الوزراء ويسرون هم خبط عشواء . وهكذا اضطرب الحكم بوجودهم واضطربوا هم به ، وتقاتلوا فيما بينهم وأدى قتالهم إلى تشتت أمرهم ، فتضاءل شأنهم وقُلت قيمتهم ، وامتدت هذه الفوضى تسع سنوات حتى إذا انضم الموفق إلى أخيه الخليفة المعتمد ؛ واستطاع أن يكون له الأمر دون الخليفة ، أرغم الأتراك على الطاعة ، وجعلهم بين يديه كالحاتم ، متخذاً لذلك الطريق الصالح .



ثورة الزنج

في هذه الأحوال المضطربة ، وفي هذا الوضع من التضعف في سلطان الخلفاء ، ظهرت ثورة كبرى دعيت بثورة الزنج ، هددت كيان الدولة العباسية أكثر مما هدها الأتراك . ثورة الزنج حصلت في العراق ، وامتدت من البصرة حتى أبواب بغداد ، واستولت على جزء كبير من العراق ، وقطعت التكوين عن عاصمة الخلافة ، وفتكت بالناس ، واستعبدت العرب وغير العرب ، وجرت الدماء أنهاراً في بقاع كثيرة .

أسباب الثورة :

ما هو سبب هذه الثورة ؟ سببها البعيد تضعف الخلافة العباسية الذي جعل للنوار مجالاً يعملون فيه ، لكن هنالك أسباباً اقتصادية أساسية أدت إلى حدوث هذه الثورة ، فقد حصل تطور اقتصادي في عهد الخلافة العباسية ، ذلك أن العراق أصبح في عهد الرشيد مركز العالم ، تأتيه ثمراته وأمواله ، وتنصبّ عليه بضائعه المختلفة وجواهره وزهبه . غني العراق من ذلك غناءً فاحشاً ، وكثر المثلثون فيه ، ومعظمهم من التجار ، وتضخمت الثروة بين أيديهم ، فأقبلوا على الأراضي يشترونها ، وصاروا يحاولون الحصول على ثروة أكبر ، ففكروا في شراء تلك المستنقعات التي تقع بين البصرة وواسط ، وهي أراض فيها مياه يستخرج منها الملح ، وهي مغطاة بالأعشاب والآجام ، فاشتروا العبيد من الصومال وزنجبار بأسعار رخيصة ، ووضعوه في تلك الأراضي يجففونها فيستخرجون منها الأملاح ، ويزرعونها

فتعطيهم الثمرات ويستخدمون الزنج دون تكاليف ، اللهم إلا ما يأكله هؤلاء الزنوج من سوق وتمر بأسعار بخسة .

وحال أمر هؤلاء الزنوج إلى حالة سوء شديدة ، وقد كثر عددهم ، فصاروا جماعات جماعات يقومون بهذه الأعمال ، بعضها يتألف من خمسة آلاف شخص ، ويصل العدد إلى خمسة عشر ألفاً ، يجتمع هؤلاء ، ويكون أمرهم ويندبون حظهم ، دون أن يسمع إليهم أحد . لقد كانوا جماعة أشداء أقوياء ، يدل على قوتهم قيامهم بالعمل في أراضٍ مستنقعة وفي أجواء موبوءة ، واستطاعتهم تحمل قساوة العيش بالرغم من ذلك . أما تجمعهم جماعات ، فإن ذلك يمهّد لهم بأن يتفقوا ويتفاهوا ، فكانت ريح الثورة مهيأة بينهم ؛ إلا أنهم أشخاص أميون ، لا يعرفون من الثقافة والعلم شيئاً ، فكان لا بدّ لهم من قائد يقودهم ، وهو يهيئهم إلى العمل الثوري ، إن الأرض التي يعملون عليها تساعد على الاختفاء والظهور ، وهي أرض يصعب الاستيلاء عليها من قبل جيش منظم مدرب . إن نشر الدعوة الثورية بين هؤلاء العبيد المتذمرين سهل ، وإن إدخال فكرة المقاومة في أذهانهم وفكرة الحصول على المال الذي يستحقونه سهل أيضاً .

صاحب الزنج :

ظهر ذلك الزعيم الذي استطاع أن يجمعهم وأن يقودهم ، وأن يحدد لهم أهدافهم ، وقد سمي في التاريخ صاحب الزنج ، واسمه الأصلي « هبوذ » وتسمّى بمحمد بن علي ، وانتسب أولاً إلى بني عبد القيس ، ثم انتسب إلى الزيدية من أولاد علي ، وكان صاحب فكر ونظر ، يعمل عقله كثيراً أكثر مما يعمل سلاحه . وكان فناناً في تحاييله ووسائله التي يستعملها . وضع أهداف الثورة ، ودعا إلى تلك الأهداف ، فإذا هي أولاً : تحرير الزنوج

ورفع مستواهم . ثانياً : تمكينهم من الحصول على الأموال والأرقاء والعبيد . ثالثاً : تمكينهم من الوصول إلى السلطان والقوة والملك . وادعى أنه يسير على طريقة الخوارج ، والخليفة لبس هو العربي فقط ، بل يصح أن يكون العبد خليفة ، وكتب على رايته الآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ... ﴾ وهي الآية التي اتخذها الخوارج والأزارقة شعاراً لهم .

ليس في دعوة صاحب الزنج أية فكرة شيوعية اشتراكية ، فالتحرير ليس فكرة شيوعية محضة بل هو فكرة عامة ، والأموال لم تكن تقسم بينهم على طريقة الاشتراكية ، فلكل ماله ؛ وإن الرق موجود في هذه الدعوة ومشروع ، وما أكثر الأرقاء الذين وقعوا في قبضة الزنج ، حتى كان الزنجي الواحد يمتلك عشرات من النساء العربيات ، وامتلك بعضهم عشرأ وأكثر من العلويات أنفسهن ، ولم يتشيع صاحب الزنج بالرغم من أنه انتسب إلى زيد ابن علي ، فبذوه - كما قلنا - مبدأ الخوارج والأزارقة ، وقد اشتطّ به الأمر ، فادعى النبوة ، وادعى معرفة الغيب ، وانتحل الوحي والمقدرة على ما ليس لغيره من الناس .

تفاقم أمر الزنج :

ابتدأ أمر صاحب الزنج عام ٢٥٤ هـ ، ففي هذا العام خطب في الزنوج خطبة ، قال الطبري عنها إنه : « ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وإن الله قد استنقذهم به من ذلك ، وإنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ، ويبلغ بهم أعلى الأمور » . أقبل الزنوج على الدعوة زمراً زمراً ، تتكون الزمرة من الخمسين إلى الخمسة شخص ، والتفوا حوله وكثر عددهم عنده . ثم التفت إلى غيرهم ، فصار ينشر دعوته

بين الفلاحين وسكان القرى ، يجتذبهم بما اجتذب به الزنوج ؛ وألقى بدعوته أيضاً إلى بعض الأعراب المتذمرين من الحكم العباسي ، والذين يحبون النهب والسلب ؛ فأطمعهم في ذلك ، وكان لا يعدم وسيلة في تبليغ دعوته إلى السود من الجنود الذين يعملون في جيش الحكومة ، فينتسبون إليه انتصاراً لأهل لوهم ، وتتوسع الحلقة والأتباع ، فيتم لصاحب الزنج جيش لم يجتمع للخليفة نفسه مثله .

وسائل صاحب الزنج :

وقد ذكرنا أن صاحب الزنج كان قديراً فاهماً وذكياً متروياً في أموره ، وكان قد فكر زمناً طويلاً في تنظيم أمره ، وتنظيم دعوته ، وتنظيم خططه الحربية ، وفكر في قوة خصومه وفي مقدرتهم الحربية ، فوجد أنه لا يستطيع أن يقاومهم وجهاً لوجه ، وأن يدحر جيوشهم في موقعة واسعة ؛ فأتباعه ليسوا من أهل السلاح والفروسية كجيش الخلفاء . أدى تفكيره الجديد إلى وضع خطة سار عليها ، ووفق في تنفيذها كل التوفيق ، ونستطيع أن نستخلصها من أعماله ومن حروبه نفسها ، وهي تشمل الوسائل التالية :

أولاً : الانقضاض السريع على العدو والإغارة عليه مفاجأة ، والإغارة على القرى والداكر لإلقاء الرعب وكسب المال والتويل ؛ غارات سريعة ، وانقضاض يتلاحق بحيث يتعب العدو ، ويلقي الرعب في نفوس السكان .

ثانياً : غزو المدن الكبيرة ، يدخل جيش الزنج فيها ، فيأخذون ما يشاءون ويسترقون من الأولاد والنساء ما يشاءون ، ويقتلون ويسفكون الدم ؛ ولكن يترتب على الجيش ألا يبقى في تلك المدن الكبيرة ، وأن يخليها بعد أيام إذا كانت قريبة من جيوش السلطان .

والقاعدة في ذلك أنه ينبغي ألا يلتحم جيش الزنج مع جيش الخليفة في مكان معين غير محصّن .

ثالثاً : توزيع جيش الزنج في الطرقات وفي الأماكن المأهولة وغير المأهولة وبين الأحرار والأشجار والمستنقعات توزيعاً يستطيع به هذا الجيش أن يضرب جيوش الخليفة في كل وقت ، وأن يلعب دور الكمين ، فيربع جيش الدولة ويقضّ مضجعه ، ويجعله دوماً في هلع وفزع مستمرّ ، ويقطع التووين عن قطعات الجيش ويفصل طلائعه عنه . ويقطع صلته بالعاصمة.

رابعاً : يجب أن يكون لجيش الزنج مكان ، أو أمكنة حصينة يلتجئ إليها إذا هوجم وهزم ؛ ويجب أن تكون هذه الأماكن محصنة كل التحصين ، لا تصل إليها يد السلطان إلا بصعوبة هائلة ، وأن تكون محاطة بالمستنقعات وبالأشجار والأدغال والترع ، بحيث يتعذر على جيش الدولة الوصول إليها . وقد بنى صاحب الزنج حصوناً من هذا النوع ، وجعل خلفها حصناً كبيراً سماه المختارة أقامه على الضفة الغربية لنهر أبي الخصيب ، بحيث لا يستطيع جيش الخليفة أن يصل في آخر الأمر إلى هذه المدينة إلا بعد أن يجتاز النهر ، فيجد أمامه حصناً هائلاً ، بني أولاً من اللبن ثم أدخلت الحجارة إليه ، وفيه قصر صاحب الزنج ، وفيه يقيم ، ويوجّه الأمور .

هذه هي خطط صاحب الزنج التي واجه بها الدولة وحارب بها حرباً عنيدة واسعة ، ولعب فيها دور السفاك الخيف المرعب ، ووصل بها إلى أبواب بغداد ؛ وقطع الطرقات ، واستولى على مدن مختلفة كما سنرى ، هذه الأساليب قد ندعوها اليوم حرب العصابات ، وكانت حريّة بأن تعطي

صاحبها النصر أمداً طويلاً من الزمن ، وهذا ما قصده صاحب الزنج لتمكين أمره عسى أن يسعفه الزمن بالهجوم على بغداد أخيراً والتكّن منها .

حروب الزنج :

بعد أن انتهينا من وصف خطط صاحب الزنج ووصف دعوته وكيف اتجهت تلك الدعوة ، لا بدّ لنا من أن نرى وصف الحروب التي قام بها ، وحسبنا أن نأخذ فكرة عامة موجزة عن هذه الحرب ، لنستطيع أن نتصور خطر هذه الحرب وامتدادها وبعدها أثرها .

أول ما فعله صاحب الزنج أنه ضرب جيش البصرة ، وكان للبصرة عامل من قبل الخليفة ، وعنده جيش ، فظن أنه بإمكانه أن ينهي حرب الزنج بجيشه ، لكنه هزم هزيمة شنيعة . كانت البصرة منقسمة على نفسها ، فيها حزبان ، فما استطاع الوالي أن يقوي أمره ، وأن يضرب الزنج ضربة قاضية ، بل استنجد بالخليفة ، فأمدّه بقائد تركي اسمه **جعلان** وسار هذا القائد بجيش كثيف مرتب ؛ ووطن نفسه في ساحة حرب كبيرة ، فإذا به يفاجأ بالكلاء والمستنقعات أمامه . ويفاجأ بحرب ما كان له عهد بها ، فانكسر جيشه ، وهزم شرّ هزيمة ، وخلا المكان لصاحب الزنج ، فاتجه هذا إلى شرقي المختارة ، ودخل مدينة الأهواز ، واستولى عليها ، وبقي فيها مدة من الزمن ، غير خائف بل مطمئناً ، لأن النجدة لا تصل إليها ، إلا بعد أن تجتاز مراحل صعبة ، وأهوالاً كبيرة لم تكن مهيأة لها . امتد نفوذه في جهات البصرة حتى واسط وحتى طرقات بغداد ، وكاد يبلغ بغداد ، فتفاقم شرّه واتسع .

ثم دار الزمن دورته فاستولى على الخلافة المعتمد كما رأينا ، وكان الحاکم الفعلي في عهد المعتمد أخوه **الموفق** ، وهو القائد وفي يد الجيش ، وهو

الذي يعين الوزراء والعمال ، أما الخليفة فكان منطلقاً إلى لذاته وشهواته ، والموفق كان رجلاً قوياً حازماً مدبراً للأمور ؛ بعيد النظر قوي السياسة والحكمة ، وجد أمامه خطر الزنج ، فحاول القضاء عليهم ، وأرسل قائداً لمحاربتهم ، لكن هذا القائد لم يفلح ، وهزم أمامهم ، وعاث الزنج بالبلاد فساداً كبيراً ، وتمكنوا من دخول البصرة هذه المرة ، واستبدوا بها قتلاً وسفكاً وفعلوا أفعالاً منكراً ، وقيل إنهم قتلوا أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان في البصرة وحدها ، وأعطبوا أعداداً أكبر من ذلك بكثير ، (هذا العدد مقارب للحقيقة) ، وأسروا من أهل البصرة عدداً كبيراً من النساء والأطفال ، حتى كان للواحد منهم عشرين نساء رقيقات بين يديه ؛ ثم انسحبوا من البصرة بعد أن ساموها سوء العذاب ، ونهبوا ثروتها ، وكانت من أعز مدن العالم قوة وثروة . وهنا رأى الموفق أنه لا بد له من أن يتقدم بنفسه فسار لحرب الزنج على رأس جيشه ، فهزم أمامهم بعض الهزيمة ، ولكن لم تفت هذه الهزيمة في عضده ، وعزم على ملاحقتهم ، فاعترضه مانع منعه من ذلك ، وهو أن يعقوب الصقار ، وكان قد استقل في سجستان ، سار إلى بغداد يريد دخولها ، والاستيلاء عليها ، فكان على الموفق أن ينسحب من حرب الزنج ، ويوكل مكانه إلى قائد ويعود إلى بغداد لمحاربة يعقوب . حاربه كما سنرى - ثم بعد أن توفي يعقوب ، استطاع الموفق أن يعقد الصلح مع خلف يعقوب ، وأن يتفرغ لحرب الزنج . من محاسن يعقوب أنه لم يرض أن يتحالف مع الزنج ، فقد كان يعدّهم مارقين متزندقين .

عاد الزنج إلى عيشهم وإلى سفك الدماء والاستيلاء على المدن وسلبها كالأهواز وواسط ، فلما عقد الموفق الصلح ، قرر أن يقضي نهائياً عليهم ، ووضع خطة لذلك فقد أصبح يعرف الزنج معرفة طيبة ، ويعرف من أين تأتي قوتهم ، فهو قد اطلع على طريقتهم في الحرب ، وأنهم لا يحسنون

حمل السلاح والتدرب على القتال كما يحسنه جيش الخليفة ، فوضع خطة لمحاربتهم ، تمنع كل وسيلة من وسائل نجاحهم . وإليكم بيانها فيما يلي :

علم خطورة التووين وأهميته ، فكان عليه أن يعد العدة لتووين جيشه توويناً دائماً ، واتخذ لذلك السفن ، يحملها بالمواد ، وتخوض باستمرار في الأنهار . ثم إنه كان عليه أن يفعل كما فعل الزنج ، فينشئ الحصون للجيش يأوي إليها ، لئلا يباغت من قبل صاحب الزنج ؛ فأنشأ حصوناً في طرف واسط وبعض جهات البصرة ، وأنشأ مدينة حصينة سماها **الموفقية** ، فكان الجيش يعسكر في هذه المدينة ، وينطلق منها لمحاربة الزنج . يجب أن يكون الانطلاق رويداً ، وأن يكون مرحلة بعد مرحلة ، وأن تسوى الأراضي التي يستولي عليها ، وأن تمهد ، وأن يستولي الجيش على مركز يقيم فيه في تلك الأرض لئلا يباغت ثانية .

توّج كل هذه الأمور والخطط بأسلوب كان له أثره في إنهاء الحرب ، وهو أنه بعد أن عرف الطرقات والمسالك ، وعرف كيف يتجه في ضرب العدو ، اتخذ السبيل ليثبط عزيمة عدوّه ، وليس خيراً لذلك من أن يؤمن الأعداء على حياتهم ، وأن يمينهم بالوعود الكثيرة ، وأن يؤمن العربان والسود من الخارجين عليه ، وأن يؤمن الزنج أنفسهم ، فكان إذا وقع في يده أسير منهم ، أحسن معاملته وأكرمه أمام أصحابه ، وكان يعلن أمانه لكل من يغادر جيش الزنج ، ويكفّ عن القتال ؛ أخذ يكتب أصحاب الزنج ، فيدخلون في طائفته ، ويجمعهم حوله حتى كثروا ، وجعل سيطرة الخليفة وهيئته رهية قائمة ، فظن الزنج أنهم لا قبل لهم بالخليفة وجنوده ، فأتوه أفواجاً أفواجاً يلتسون أمانه .

هذه الأساليب جميعاً استطاع أن يتغلب على صاحب الزنج وعلى

حيله وكثرة جنوده وكثرة الأموال بين يديه ، هذه الخطة وضعها الموفق لابنه أحمد (الذي أصبح خليفة فيما بعد وسمي بالمعتضد) فسار أحمد إلى محاربة الزنج ، وأخذ ينشئ الحصون ، وأخذ يفرق أصحابه ، ثم تقدم الموفق لمساعدة ابنه في تلك الحرب ، واستلم القيادة بنفسه ، فاستطاع أن يقضي على أول حصن لصاحب الزنج ، وأن يتقدم في أرضه ، وتقدم خطوة خطوة حتى بلغ المختارة ، وضرب المختارة بمنجنيقاته وعراداته فأصاب أسوارها وأنزل بها ضرراً بالغاً ، إلا أنه لم يستطع الاستمرار ، لأن أحمد بن طولون أخذ يغري المعتد الخليفة ، فيحاول هذا أن ينتقل بالحكم ودار الخلافة إلى أحمد بن طولون ، عاد الموفق إلى بغداد ، وعمل على إعادة أخيه إليها ، وبعد أن تم له ذلك ، واطمأن باله عاد إلى المختارة لمحاربتها ، لكن صاحب الزنج كان في هذه الأثناء قد أعاد تحصين المختارة من جديد ، فعادت الحرب مرة أخرى بشدها الأولى ، وساعد الموفق في تلك الحرب أن لأولاً من أصحاب أحمد بن طولون خرج عليه ، وتقرّب من الموفق ، والتحق بجيشه ، فتم بذلك للموفق جيش كبير ، ولكن دون أن يبلغ عدد جيش صاحب الزنج . وهاجم الموفق المختارة ، فنقض حصونها . ثم استحضر من انتقل إليه من قواد الزنج ومن أصحابهم ، فذكر لهم أمانه لهم ورعايته لأموارهم ، وأنه يقصد بهم الخير . وحسبهم ، وطلب إليهم أن يدلّوا جيشه على مواقع المدينة ليدخلوها ، ففعلوا ذلك ، واستطاع جيشه أن يدخل المختارة وأن يستولي عليها وعلى كنوزها ، وكان قد اجتمع فيها ثروة هائلة من الكنوز والأموال . هرب صاحب الزنج من المختارة ثم لوحق في مكان آخر ، حتى أخذ وقتل . وبذلك انتهت حرب ضروس كادت أن تؤدي بحياة الخلافة العباسية ، وكادت أن تمكن صاحب الزنج من تدمير بغداد : الأمر الذي تمكن منه صاحب التتار هولوكو وجنكيز خان .

نتائج حروب الزنج :

الذي يستخلص من حرب الزنج أنها كانت حرباً تعتمد على التويه وقطع الطرقات وإقامة الكمين ، وقد تجلّى فيها تفكير صاحبهم وتنظيمه للأمور ومعرفته بنفسية الجماعة التي يحكمها وبمقدرتها . وهي تدلّ أيضاً على ضعف الخلافة العباسية وتضعف حالها ، حتى كادت أن تتفكك أمام هذه الحركة التي هي بالأصل حركة جزئية .

ساعدت حرب الزنج الخلافة العباسية على أمر هام ، هو أنها قضت على حكم الأتراك ، أولئك الذين رأيناهم يلعبون بالدولة العباسية كما يشاؤون ، ويلعبون بالدولة والخلفاء ؛ ذلك لأن الأمور كانت مستتبة ، ولأنهم أصحاب الشأن في بغداد وسامراء ، أما الآن فقد ثارت في وجههم حرب هائلة حرقت الأخضر واليابس ، حرب ما استطاعوا بجيوشهم وتدريبهم وعنادهم على القتال التغلب عليها ، ونجح العباسيون حين أخفق الأتراك ، فكان من ذلك أن قوي سلطانهم ، وتبين أنهم هم المسؤولون عن الدولة أولاً وآخرأ ؛ وهكذا جعلوا الأتراك تحت أيديهم ، يعطونهم القيادة حيناً ، ويأخذونها منهم حيناً آخر ، وأخيراً كسبوا النصر عن جدارة .



النزعات الاستقلالية عن الدولة العباسية

كلمة عامة في ظهور هذه النزعات وتعليل ظهورها :

ظهرت في القرن الثالث^(١) الهجري حركات استقلالية عن مركز الدولة العباسية في العراق ، وذلك في بلاد إيران بأجمعها من خراسان إلى سجستان إلى جرجان ، وفي مصر^(٢) وفي جنوبي بلاد اليمن^(٣) هذه الحركات الاستقلالية تشعبت في هذا العصر ، وأخذت شكلاً واضحاً ، وخيل للناس أن الخلافة العباسية قد تفككت ، وأن هذه النزعات الاستقلالية ستضيّق رقعة الخلافة العباسية ، بل تكاد تقضي عليها . يحاول المؤرخون تفسير هذه النزعات ولا يجدون صعوبة في ذلك ، فأمامهم أمر واقع واضح : هو أن الدولة العباسية ضعيفة في مستقرّها في بغداد أو في سامراء بسبب تسلط الأتراك وبسبب الفوضى التي أحدثوها ، وكان الخلفاء العباسيون لا حول لهم ولا قوة أمام هذه الفوضى . فإذا كان الأمر كذلك في مركز الحكم ، فإنه من الأحرى ألا يكون لهم حول ولا قوة أمام تلك النزعات الاستقلالية البعيدة . يضيف المؤرخون إلى ذلك أن حرب الزنج كان لها أثر كبير في تطور حوادث الاستقلال ، وأن الذي بعث نزعة الاستقلال هو الميول العنصرية ، لاسيما

(١) يجب ألا ننسى قيام الدولة الأموية في الأندلس ، ونشوء دولة الأدارسة في المغرب قبل القرن الثالث ، وهما مستقلتان تماماً عن الخلافة العباسية ؛ كما ينبغي أن نذكر إحداهما دولة بني الأغلب في إفريقية سنة ١٨٤ هـ تابعة للخلافة - المنقح .

(٢) قامت أولاً الدولة الطولونية ثم الدولة الإخشيدية - المنقح .

(٣) الدولة الزيادية في اليمن قامت على يد محمد بن إبراهيم الزيادي - المنقح .

منها الميول القومية عند الفرس . هذا التعليل يوضح لنا جانباً من المسائل ، لكنه لا يوضح لنا كل شيء في أمر استقلال أصحاب هذه النزعات .

نحن نريد في التاريخ أن نبسط الحقائق بسطاً واضحاً ، وأن نرى جميع جوانب القضية ، وأن نصنف عللها ، وأن نجعل لكل علة مكانها ووزنها وقيمتها ، وأن نكون من كل ذلك مزيجاً صالحاً صافياً من الأدلة يبين لنا واقع الأمور ، كما يبين لنا متناقضاتها . من الصعب أن نتخيل أن دولة العباسيين ودولة الإسلام تتفكك وتتجزأ بسبب الاضطرابات الداخلية في بغداد أو سامراء فقط ، ومن الصعب أن نتخيل أن النزعة الفارسية الاستقلالية التي لم تنجح قبل ذلك في عهد المأمون وقبله في عهد السفاح أن تكون سبباً أساسياً ؛ ومن الصعب أن نتخيل كيف نجحت في القرن الثالث دون صعوبة . لابد من أن يكون لحركة الاستقلال والتوسع أسباب عديدة متضافرة متكاثفة توضح الأمر من جميع جوانبه . سنحاول فيما يلي أن نبين بالترتيب شكل الاستقلال وطرقه وما انتهى إليه .

حركات آل علي :

نعلم مما تقدم معنا من أبحاث أن العباسيين استطاعوا أن يوقفوا حركة آل علي وأن يمنعوه من الظهور والمطالبة بحقهم في الخلافة . حدث هذا المنع في الدور الأول من نشوء الدولة العباسية ، لكنها تضاءلت مطالبة آل علي في الدور الثاني وخفت . سبب ذلك - كما رأينا - أن العباسيين التزموا مظاهر التقى والسنة والجماعة ، فهم منذ نشأتهم تمسكوا بمظاهر التدئين ، وتمسكوا إجمالاً بالسنة والجماعة أمام عامة الناس . نعم ، كان بينهم من يختلس الوقت للشرب أو للتهتك أو لغير ذلك ، لكن أمره لا يظهر واضحاً أمام الناس ، والناس يعرفون فقط المظاهر الخارجية . والخليفة العباسي

إجمالاً يبدو تقياً في الظاهر مدافعاً عن الدين وعن السنّة خاصّة . إذاً الخلفاء العباسيون استطاعوا أن يوقفوا استقلال الأقطار بالتزام أهل السنة والجماعة ، ثم إنهم قضوا بهذه الوسيلة على كل أمل في الاستقلال بنزعة دينية غير إسلامية ، فهم قد ضربوا الزندقة بدون هوادة ، بحيث لم تقم لها قائمة ، على هذا النحو أوقفوا تلك التيارات التي كانت قد تضر بحكمهم وسلطانهم .

أثر الأمويين :

ثم هم منذ أول دولتهم قضوا قضاءً مبرماً على الأمويين بحيث لم تقم لهم قائمة أبداً ، فتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، فلم يبقوا على أموي إلا واحداً هرب إلى الأندلس ، فأقام دولة هناك خرجت عليهم . ثم أقام عبد الرحمن الثالث خلافة انتصبت أمامهم بشبحها ، ولكنهم في المشرق ومصر قضوا على كل مطالبة بالخلافة من أموي . من هذا يظهر أن الاستقلال لم يكن سهلاً كما قد يتصوره المرء ، وأن له شروطاً ، وأن أمامه موانع تحول دونه .

اتساع المملكة والاضطرار إلى التجزيء :

غدت المملكة متسعة اتساعاً هائلاً ، فرقة الخلافة العباسية تمتد آلاف الكيلو مترات ، ووسائل النقل ليست ملائمة في ذلك العصر لتلك المسافة الواسعة . جاء هارون الرشيد فهدّ إلى نزعة الاستقلال ، فهو قد قسم مملكته كما نعلم بين ولديه الأمين والمأمون ، فشارت المنازعات بين الأخوين ، ونبئت الفكرة الاستقلالية عند الشعوب وخاصة الشعب الفارسي . ثم إن الخلفاء الذين أتوا بعد هارون الرشيد اتبعوا سياسة التجزيء .

طريقة حكم الولايات النائية :

لعلهم لم يكونوا يشعرون بهذه التجزئة فقد عهدوا إلى قوادهم أو إلى

المقربين منهم بحكم بعض الولايات النائية ، دون أن يطلبوا إليهم الذهاب إلى تلك الولايات . بل تركوهم يضعون نواباً عنهم يقومون بالأمر بدلاً منهم . والولاة مقيمون في بغداد أو في سامراء . جرى هذا الأمر بصورة خاصة في عهد الفوضى الذي خلقه الأتراك : فوضى السنوات التسع التي مرت معنا . فالقائد التركي يأخذ الولايات ، ويرسل مندوبيه ونوابه إليها ليحكموها باسمه ، ويبقى هو في مركز الخلافة ليشارك غيره في المؤامرات ، وليعتزّ بحياة البلاط ، وتأتيه من الولايات الضرائب والأموال إلى أحضانه ، دون أن يسعى إليها . من الطبيعي في حالة كهذه أن يسعى النواب (الذين هم ليسوا أصليين في الولاية) إلى المال وإلى السلطان والجاه ، وإلى إرضاء الوالي القابع في العراق ، وإرضاء الخليفة بإرسال أكثر ما يمكن من الأموال ، ومن الطبيعي أيضاً أن يسعوا ليحصلوا على المال لأنفسهم أولاً ، ولا يتم لهم هذا الأمر إلا بمبالاة القائمين على الأمر معهم وبالضغط على الشعب وظلمه .

النظام الإقطاعي :

كان الخليفة يقطع الأراضي لنوابه ووزرائه وقوّاده والمقربين منه ، يكتفي هؤلاء أيضاً بإرسال الوكلاء لإدارة هذه الإقطاعات ، فيسوء الاقتصاد ، ويخفّ الدخل ، وتزداد الرشوة ، ويكثر الظلم ، ويئن الشعب .

سوء الحالة الاقتصادية في الولايات :

الشعب في فارس وفي مصر وفي الين كان يرى العراق وهو في حالة من الازدهار الاقتصادي لاتماثلها حالته ، ويسمع عن مدخول العراق ، ويسمع عن الأموال التي تذهب إلى العراق وتنفق في غير سبيلها ، فتقوى النزعة الاستقلالية عنده ، ويرى أنه لن يخلّصه من جور نوابه ومن دفع الأموال

التي تذهب إلى العراق إلا حاكم مستقل يصلح حالته الاقتصادية ، ويرفع عنه الظلم ويسوي بينه وبين غيره .

الفوضى والاضطراب :

هذه الحالة ، وذلك الاتجاه ، وهذا التطور حدث كله في القرن الثالث ، حدث في وقت قام فيه الأتراك في بغداد وسامراء بما قاموا به من فوضى وعدوان ، حدث أيضاً في وقت قامت فيه حركة الزنج ، وامتدت على الصورة التي رأيناها ، وقد بحثنا في أسباب هاتين الحركتين ضمن إطارهما هنا وفي علاقاتها بالبحث مرة أخرى .

ضعف العصبية التي يجب أن يعتمد عليها الخليفة :

الخليفة العباسي - كما ذكرنا - تسلّح بالدين والسنة منذ أول أمر الخلافة العباسية ، لكنه لم يتخذ لنفسه عصبية معينة وجيشاً يستند إليه ، استند إلى الجيش الخراساني الذي تقض أركان الدولة الأموية ، لكن هذا الجيش لا يمكن أن يبقى مخلصاً للخلافة بسبب نزعات قومية أو محلية كانت تستثار من حين إلى آخر في خراسان وفي الجيش نفسه . كان العباسيون يعملون أن هذا الجيش لا يمكن الركون إليه تماماً ، لكنهم في أول الأمر كانوا مسيطرين على كل شيء ، فاستطاعوا أن يسيطروا على الجيش . وأين كانوا يستطيعون أن يجدوا تحالفاً من غير الخراسانيين ؟. لاشك أن هناك طرفاً مؤيداً لهم كل التأييد ، وهم أهل العراق ، وهذا ما حاول أبو العباس السفاح أن يقوله في أوّل خطبة له بالكوفة ، لكن العباسيين لم يحالفوا أهل العراق بنزعتهم العربية ، ولا ندري ما هو السبب الذي جعلهم يبتعدون عن النزعة العربية في العراق ؟ أهو لأن الكوفيين غير مخلصين لايؤمن جانبهم أم لأن قوتهم ضعيفة لا يمكن أن يعتمد عليها ، أم هو شيء آخر ؟ الذي يظهر من خلال

تاريخ الخلافة العباسية هو أن الخليفة العباسي يحالف العراقيين عامة لا العرب من العراقيين ، يحالف أهل السواد وأهل العراق النبطيين والعرب . قد أسس أبو جعفر عاصمته بغداد ، فأحضر إليها سكاناً من العرب وغير العرب ، ولو أن العنصر العربي ظاهر فيها كل الظهور . عمد الخلفاء العباسيون إلى محالفة العراقيين بهذا المزيج من الشعب بكامله ، لكنهم لم يحالفوا هذا الشعب المزيج بإحداث جيش منه يعتمدون عليه . وهذا أيضاً أمر غريب لا أستطيع تفسيره كل التفسير ، أهو أيضاً لأن العراقيين لم يكن بالإمكان أن يكون بينهم جيش قوي يحمي الخلافة بقوته الحربية ؟ أم لأن المزيج من العراقيين لم يكن قد اختر ولم يكن بالإمكان أن يشكل منه عصبية معينة ؟ لانعلم ذلك كما ينبغي ، ونترك أمره للدراسات المقبلة^(١) الذي كان يفعله بنو العباس في ساعات الشدة أنهم كانوا يلتجئون إلى شعب

(١) لا بأس من أن أذكر بعض النقاط التي تكمل الموضوع في هذه النقطة (المتفق) :

١ - إن أهل العراق وخاصة أبناء المدن في ذلك العصر كانوا خليطاً غير متجانس من الشعوب لا يمكن أن يشكلوا عصبية .

٢ - كان هم أهل العراق الأمور الاقتصادية وخاصة الصناعة والتجارة ؛ لأن وفرة الأموال الواردة إلى العراق وخاصة إلى المدن توجد قوة استهلاكية وشرائية كبيرة . لذا كان أغلب الشعب منهمكاً في أموره المعاشية ، وقد ضعف فيهم روح الجهاد .

٣ - العراق مركز ثقافي علمي تتقافه التيارات الفكرية والفلسفية . إن المجالس العلمية والثقافية تمتص أكبر عدد ممكن من الطبقة الراقية ، وتشغلها عن الأحداث السياسية بالدراسات الفكرية .

٤ - رفاة العيش في العراق تجعل الناس يحبون الحياة ويكرهون الموت ؛ لذا تركوا الأمور العسكرية إلى تلك العصابات الغريبة المغامرة التي كانت في الأصل فقيرة بل مملوكة . واستطاعت هذه الأقلية أن تستبد بالحكم بسبب قوتها وضعف الشعب .

٥ - تكون فئة طفيلية من الشعب تعيش على السرقة والاعتقال وقطع الطرقات . وهي فئة العيارين والشارط . لقد كانت هذه الفئة كبيرة جداً ، وقد روعت الأمنين ، وفرضت الأنواء على الناس . ومع ذلك أتى وقت أراد الخليفة أن يستعين بهذه الفئة ضد أعدائه الأتراك ، لكنه لم يستفد منها إلا كقوة ضد النظام . وليست قوة يمكن أن تسند الحاكم .

العراق ، ويتحالفون معه ، مثيرين فيه عنصر الدين أكثر مما يثيرون فيه عنصر القومية ، يكلمونه بالسنة والجماعة أكثر من العصبية العربية ، فكأن الخلفاء العباسيين أرادوا أن يتحالفوا مع السنيّة ، وأن يجعلوا العراق مركزاً لها ، دون عصبية معينة ، اللهم إلا جهوراً يتكلم اللغة العربية ويتحلى بالثقافة العربية ، ذلك الجمهور الذي كانوا متمسكين به كل التمسك .

خلاصة الموقف في الولايات :

في هذه الظروف التي كانت في القرن الثالث الهجري : نزعات استقلالية تأخذ معينها من أن الشعب مظلوم ، ومن أن الحياة الاقتصادية سيئة ، وهي تتذرع من جهة بإهمال كبير من قبل الخلافة نفسها بشؤون الولايات ومن قبل الولاة والنواب وغيرهم من الموظفين ، ومن جهة أخرى تدرك ضعف الخلافة العباسية وظروفها السيئة بسبب تسلط الأتراك وثورة الزنج ، ثم إنها تعرف أن لا وجود لعصبية قومية معينة تتمثل في جيش معين يحمي الخليفة ويدافع عن السلطة المركزية .

إذا ظهر رجل قوي في ولاية من الولايات الإيرانية ، فإنه لاشك يستفيد من هذه الظروف فيضع برنامجاً يلائمها ، ومن السهل أن يتجه إلى الشعب ، ويعلن له أنه سيرفع عنه الظلم ، وسيصلح الحالة الاقتصادية عنده ، وسيرفعه إلى مصاف العراق ، وسيجعله مستقلاً في أموره عن دار الخلافة ونظامها السيئ وفوضاها . لا بدّ من أنه يضيف إلى كل ذلك أنه لا ينبغي بذلك العمل الخلافة لنفسه ، وإنما نهض ليحارب جميع النزعات غير السنية من زندقة وخوارج وتشيع علوي وغير ذلك ، وأنه يدعو للخلافة العباسية . إذا ظهر رجل يعلن خطة كهذه ، فإنه بالإمكان أن يؤمن النجاح .

إن فرصة استمرار هذا النجاح ليست كبيرة ، لأن سلطة الخليفة التي كانت تضيع في تيارات الفوضى التركية ، وفي حرب الزنج ، عادت قوية بعد أن انتهت من هذه الغمرة ، وخرجت منها شبه سليمة ، ثم حاولت أن تكبح جماح هذه النزعة الاستقلالية ، واستطاعت أن تقضي عليها أحياناً . والسبب في نجاحها بالقضاء عليها هذه المرة ، أنها لم تستطع أن تحقق استقلالاً فعلياً تاماً . فالظروف التي نشأت فيها هي التي أعطتها ذلك اللون من الاستقلال وجعلته يتحقق . ولندكر أن الأمراء المستقلين عن المملكة كان لابد لهم من أن يعترفوا بالخلافة العباسية ، ومظاهر هذا الاعتراف ثلاثة :

أولها : الدعوة للخليفة على المنابر ، فهو لا يزال إمام المسلمين ولا يزال ممثل السلطة الروحية .

ثانيها : وضع اسم الخليفة على النقود قبل اسم الأمير المستقل . هذا مظهر من مظاهر الخلافة ، وهو مظهر يجمع بين أقطار البلاد الإسلامية ، مادام اسم الخليفة مثبتاً على النقد الذي ينتقل من بلد إلى آخر ، فإن الوحدة^(١) بذلك حاصلة .

والمظهر الثالث : من مظاهر الخلافة الدينية هو إرسال قسم من الخراج^(٢) إلى بيت مال الخلافة . فالخليفة ممثل المسلمين ، وحقه ينبغي أن يصل إليه من الخراج ، ولم يخرج الأمراء المستقلون على هذه القاعدة إلا في فترات يسيرة .

(١) أعتقد أن هذه الوحدة اسمية ، ما دام الخليفة لا يستطيع أن يفرضها بنفذه المادي إلى جانب نفوذه المعنوي . لذا يلاحظ أن البحث هنا في المظاهر لا في الحقائق - المنتق .

(٢) إرسال الخراج لم يكن منتظماً . وإن الخراج المرسل يساء استعماله ، ويذهب نهياً بين الأمير المستقل والمتسلط في بغداد والوزراء والكتاب ... أرى وقت كان فيه الكتاب أغنى من الخليفة وهذا ما جعل بعض الأمراء يجمعون عن إرسال أي شيء إلى المركز فيما بعد - المنتق

يظهر لنا من كل ذلك أن وسائل الوحدة وإعادة الدولة إلى سابق عهدها كانت لاتزال ممكنة ، ولكن لايمكن أن يتم ذلك إلا بأن تعود الخلافة إلى سلطانها الزمني وإلى قوتها العسكرية ، وتستند^(١) إلى عصبية متينة ، عندئذ يمكن أن تظل الوحدة قائمة . وإذا حصل تجاوز على ذلك من الأمراء المستقلين ، فإنه بمقدور الخليفة أن يردع المنشقين بما يملك من قوة . فإذا لم يستطع الخليفة أن يضمن هذه القوة ، فإن الأمر يخرج من يده ، والنزعة الاستقلالية تنمو وتستفحل .

إن حركة الاستقلال ذات ثلاث صفات متميزة :

أولاً - عاصر حركة الاستقلال ضعف الخلافة العباسية ، وهي لاتستطيع النجاح إذا زال ذلك الضعف ، فهي إذا تَبَعْ لهذا الضعف .

ثانياً - يدخل في تلك الحركة مطامع أصحابها : فكل حركة منها قضت على التي قبلها ، وامتدت إلى أرضها ، فاستولت عليها ، فهي إذا حركة مطامع شخصية لاهركة استقلال مناطق ، وهي حركة تستفيد من ضعف الخلافة .

ثالثاً - قوّت هذه الحركة في الشعب فكرة الاستقلال ، وبعثت فيه الروح الاستقلالية ، فأصبح متحفزاً متوثباً للاستقلال مرة أخرى ، ينتظر الفرصة . لذلك فإنّ الأمراء المستقلين لم يضيعوا وقتهم ، بل عملوا على ترقية حالة الشعب ، ورفعوا عنه في بعض الحين ظلامته ، وعدّلوا نظام الإقطاع عنده . وأكثر من كل ذلك أنهم أحدثوا فيه ميلاً ثقافياً إلى الاستقلال ، فبعثوا أبحاثه القديمة ، وأحيوا لغته المحلية ، بل إن دولة في فارس أباحت ترجمة القرآن إلى الفارسية ، وأحييت ذكرى الشعراء القدماء ، وشجعت

(١) من هذه الكلمة إلى آخر الفقرة أضفتها من عندي ليتم المقصود - المنقح .

الشعراء على قول الشعر بالفارسية ، فأحييت في نفس الشعب ميوله نحو النزعات القومية الثقافية . حدث هذا بخاصة في بلاد إيران . لقد استخدم هذه النزعة البويهيون بعد عصرنا الذي ندرسه بزمان ما ، فاستقلت بلاد فارس عن الدولة العباسية نهائيا .
ولنشرع الآن في البحث عن الحوادث التي تتالت ، فتكوّن بها حكم الإمارات المستقلة ، وتوطدت أركانه ، ثم اختفت معالمها بعد ذلك .

الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٦١ هـ) - ٢٨٢ هـ

أول^(١) إمارة من هذا النوع استقلت بعض الاستقلال عن الحكم العباسي هي الدولة الطاهرية في خراسان ، وهي التي شرعت الطريق لغيرها من الدول ، وأتت دولة بعدها في المنطقة نفسها هي دولة الصفّارين فنقضتها ، ثم نقضت دولة السامانيين دولة الصفّارين . فهذه ثلاث دول تتوالى على الحكم في بعض بقاع إيران أو فيها كلها .

أما نشوء الدولة الطاهرية فإنه يرجع إلى عهد المأمون : ذلك أن طاهر بن الحسين وابنه طلحة ساعدا المأمون مساعدة قوية في حربه ضد أخيه الأمين ، فاستقام له الأمر في ذلك . لكن المأمون لم يشأ أن يجعل المكافأة ما كانا يرميان إليه من نيل إمارة وولاية في خراسان . ذلك أن المأمون كان يخشى أن تؤدي هذه الإمارة إلى الاستقلال في شؤون خراسان ، فيها أبناء هذه المنطقة ، وإن أهلها يحبونها . ولكن بالرغم من تخوّف الخليفة ، فإن طاهر بن الحسين ما فتئ يرنو إلى هذه الولاية ، ويتخذ لذلك كل الأساليب ، حتى أقنع الوزير أحمد بن أبي خالد بالتوسط له لدى

(١) أول إمارة استقلت هي إمارة بني الأغلب في إفريقية ؛ وكان ذلك في عهد الرشيد سنة ١٨٤ هـ -

الخليفة فضنه عند المأمون ، وقبل المأمون أن يوليه خراسان ، فسار إليها .
مانتقضت أعوام حتى قطع طاهر في سنة ٢٠٧ الخطبة للمأمون . يذكر لنا
التاريخ بعد ذلك أن طاهراً قد مات ، ولعله قُتل مسموماً^(١) .

ولى المأمون ابنه طلحة مكانه (٢٠٧ - ٢١٣ هـ) وبعد طلحة تولى عبد
الله بن طاهر (٢١٣ - ٢٣٠ هـ) الواحد بعد الآخر ؛ طاهر الثاني بن عبد
الله (٢٣٠ - ٢٤٨ هـ) ، محمد بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩) . طاهر الثالث بن
محمد (٢٥٩ - ٢٦١ هـ) - ٢٨٢ هـ^(٢) كان الخلفاء يسعون خلال هذه التولية إلى
إزاحة الطاهريين عن خراسان ، لأن شأنهم فيها أصبح قويا ، ولأنهم أخذوا
يستقلون فيها عن الخلافة ، لكن الخلفاء لم يكونوا يتمكنون من
ذلك ، فؤامراتهم كانت تحفق ، وكانوا يظهرون بمظهر الموافق البعيد عن
المؤامرة .

بقي الطاهريون في خراسان وما حولها ، حتى أتى يعقوب الصفار
فأزاحهم عنها سنة ٢٦١ هـ . الدولة الطاهرية دولة مستقلة عن الدولة
العباسية بالمعنى الذي ذكرناه ، بل إن استقلالهم كان أقل من استقلال غيرهم
من الدول ، لأنهم هم الذين شرعوا الطريق ، والذي يشرع الطريق يلقي
فيه الصعوبات . كانوا يدفعون الخراج سنوياً إلى العباسيين ، دفعوا سنة
مائتين وإحدى وعشرين للهجرة ثمانية وثلاثين مليون درهم من وارد يقدر
بثمانية وأربعين مليوناً . تقربوا من العامة ، وحاولوا إنصافها ، ولو أنهم كانوا
أرستقراطيين بالفعل ، ميالين إلى الترفع عنهم . شجعوا الزراعة والاقتصاد ،

١٠٦٤٩ هـ

(١) تذكر كتب التاريخ روايات عديدة بصدده موته : أكثرها يدل أن الوزير أحمد بن أبي خالد الذي

ضمن طاهراً أمام المأمون ، أرسل إليه من دس السم له - المنتقم .

(٢) وجد نقد ضرب في مروسنة ٢٨٢ هـ يحمل اسم طاهر بن محمد .

وأخذوا بمذهب السنة وناصروه وقتلوا شيعة آل علي في طبرستان ، وكانوا في
الجملة موالين لبني العباس ، مع التمتع بالاستقلال عنهم وتكوين إمارة لهم
خاصة .



الصفارون (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ)^(١)

كانت سجستان تابعة للدولة الطاهرية ، يحكمها عامل من قبلهم ، غير
أن الخوارج كانوا يعيشون فيها فساداً ، ويقتلون وينهبون دون الاستناد إلى
مبدأ أو فكرة دينية ، فقد أصبحوا قطاع طريق ونهابين . جهّز عامل
سجستان بقيادة درهم بن نصر فرقة لمقابلتهم ، وكان في هذه الفرقة شاب
اسمه يعقوب بن الليث ، وكان صفّاراً قبل ذلك ، يعمل في تصفير الأواني
النحاسية . سارت الفرقة إلى الخوارج ، فضربتهم ضرباً شديداً ، وعادت إلى
عاصمة سجستان . علا شأن هذه الفرقة حتى أنها اضطرت العامل إلى أن
يترك سجستان لها ولرئيسها درهم . ثم إن يعقوب سارت شهرته قائداً
مجيّداً قويا ، وكثرت مآثره ، فتخلى له درهم عن سجستان . سار إلى
الخوارج ثانية ، فسوّى الأمور في سجستان بالقوة ، وطرد الخوارج ، وتتبعهم
تتبعاً شديداً ، وأقبل على الجند يعطيهم المال ، ويُعنى بهم غاية العناية ؛
وأقبل على الشعب أيضاً يسهل له أمور معيشته . كان يعقوب طموحاً تقدم
في الأقطار المجاورة له وغزاها ، وغزا الهند ، واستولى على بعض المناطق في
شمالها ، ثم تقدم نحو خراسان فأزاح الدولة الطاهرية سنة مئتين وتسع
وخسين . استاء الخليفة من هذا ، فهو لم يكن يريد شخصاً قوياً يستولي

(١) هذه مدة الدولة الأولى من الصفارين (زيباور ص ٣٠٢) - المتفق .

على المشرق ويستقل عنه ، لذا أصدر مرسوماً باعتبار يعقوب مقتصباً للدولة الطاهرية ، فلم يأبه يعقوب لهذا المرسوم ، بل تقدم غرباً سائراً نحو بغداد . خرج أخو الخليفة وهو الموفق إلى محاربته ، وقد ترك حرب الزنج - كما رأينا - والتقى به بدير عاقول ، فدعاه وأراد أن يتفاهم معه ليستطيع أن يتفرغ لحرب الزنج ، ولكن يعقوب لم يرد التفاهم ، ومات بعد قليل ، فتولى أخوه عمرو مكانه . قبل عمرو بالصلح مع الموفق ، فعهد إليه هذا بالمشرق جميعه ، ثم إنه بعد حوادث وتفاصيل لاجل لذكرها تغلب السامانيون الذين خرجوا من ماوراء النهر ، وأسروا الأمير طاهر بن محمد بن عمرو سنة ٢٩٨هـ ، وانتهت دولة الصفارين الأولى .

والصفارون اعتبروا الجند أساساً لدولتهم ، وتوسعوا بقوته وسلطانهم ، وانتهبوا إلى إصلاح أحوال الشعب أيضاً ، وإلى تحسين الاقتصاد ، وكانوا حيناً يقطعون الخطبة للخليفة ، لكنهم كانوا إجمالاً يرغبون في أن يحصلوا من الخليفة على عهد بإمارتهم ، فكانوا ينقشون اسمه على السكة ويخطبون له في أغلب الأحيان ، إلا أنهم لم يرسلوا إليه الضريبة بصورة منتظمة .



السامانيون في بخارا ^(١) (٢٥٠ - ٣٩٥ هـ)

كان سامان خوداه جد السامانيين قد اعتنق الإسلام في عهد هشام ابن عبد الملك . عين المأمون أحفاد سامان هذا على مناطق ماوراء النهر (سمرقند - فرغانة - الشاش) وعلى (هراة) لكنهم كانوا تابعين للطاهريين يستمدون أوامرهم منهم ، ثم قوي أمرهم بعد المأمون فامتدوا إلى بخارا وجعلوا

(١) بخارا كتبت على النقود العربية الإسلامية بالألف (المنقح)

مركز حكمهم فيها ، واستقلوا عن الطاهريين . قدم الخليفة المستعين لأحدهم (واسمه نصر)^(١) عهداً بولاية ماوراء النهر كله سنة ٢٥٠هـ ، إلا أن نصراً اختلف مع أخيه إسماعيل ، فتغلب إسماعيل على نصر ، لكنه استبقاه حتى مات فتولى مكانه . أظهر إسماعيل مقدرة كبيرة بالحكم ومعرفته ، استولى على خراسان وأسس الحكم ، ثم آل الأمر من بعده إلى حفيده نوح الأول سنة ٣٢١هـ ، ولم يكن قديراً كل القدرة ، إلا أن حركة التأليف والعلم في عصره كانت قوية . ولكي يبقى في الحكم ويقوى ، استمد العون من الترك القرخانيين ، كما كان استعان بهم خليفة بغداد المعتصم قبل ذلك ؛ فحصل له ما حصل بالعراق ، فقد استبدَّ الأتراك بالأمر دون الملوك السامانيين ، واضطرب أمرهم معهم ، حتى انتهى بهذه الدولة الحال إلى أن هجم على عبد الملك الثاني محمود بن سُبُكْتِكِين ، ففضى على دولته .

كان السامانيون يضعون أسماء الخلفاء على النقود ، ويعطونهم حيناً قسماً من الجزية والخراج ، ويخطبون لهم ، ويقدمون إليهم العهد . كانت سياستهم من الناحية الدينية كسياسة الطاهريين والصفارين ، سياسة سنيّة ، حاربوا القرامطة ، وساعدوا الخليفة على أمرهم ، لكنهم لم يستطيعوا أن يستروا على ذلك ، والذي فعلوه بصورة خاصة - وهذا أكثر مما فعله غيرهم - هو أنهم أثاروا الفكرة الثقافية الفارسية وشجعوها ، وقوا نزعتها ، بل إن علماءهم أفتوا بجواز الصلاة بالفارسية . السامانيون هم الذين أسسوا الاستقلال الفارسي الحقيقي الذي امتد شأنه بعد ذلك كما سنرى ، وهم الذين بعثوا الفكرة الاستقلالية الحقيقية من الناحية الثقافية في نفوس الفرس .



(١) لوالده أحمد بن أسد نفوذ فيا وراء النهر منذ سنة ٢٠٤هـ (زمباور ص ٣٠٦) - المنقح .

الطولونيون بمصر والشام (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ)

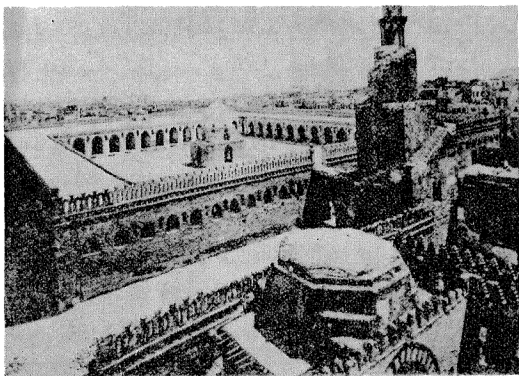
لم ينبغ من الأتراك في الدولة العباسية في العصر الذي نذكره ، شخص استطاع أن يفعل عملاً يخلد به اسمه غير واحد منهم اسمه أحمد بن طولون ، وأصله تركي من بخارا ، عمل والده قائداً لحرس الخليفة في عهد المعتصم ، ونشأ أحمد نشأة دينية وتعلم العلم الديني ، وخالط المحدثين والمتصوفة ، وذهب إلى طرسوس فأقام فيها مرابطاً يجاهد مع المجاهدين ، ثم انتدبه بايكباك^(١) (وهو زوج أمه) نائباً عنه في مصر ، فسار إليها ، وتكشفت في ذلك الوقت قدرته ووسائل نبوغه ، فوجد الاقتصاد في مصر مضطرباً كل الاضطراب ، والدخل قد تناقص ، ووجد العامل هناك مستبداً بالناس ، ووجد الشكوى عامة . فتقرب من الناس وتودد إليهم بالنفقة الكثيرة ، وأصلح الحالة الاقتصادية ، وألغى بعض الضرائب وعمل عملاً جدياً ببناء كبيراً . مصر في الأصل غنية أفسدها سوء الاستعمال . لما أصلح حالها ابن طولون ظهرت ثروتها بأعماله ، وازداد الدخل ، فأصبح أربعة ملايين دينار . عني ابن طولون بالفلاحين عناية خاصة كما عني بالفقراء . أنشأ مستشفى وجامعاً وهو الجامع المشهور الذي لاتزال آثاره باقية إلى اليوم ، واستطاع أن يعزل عامل الخراج أحمد بن المدبر الذي كان يسيء العمل في مصر ، وتمكن من الحكم بهذا التودد للناس وبذلك الإصلاح وبالهدايا الهائلة التي كان يرسلها إلى أصحاب الأمر في بغداد : فما من رجل في بغداد له مكانة إلا كان يتلقى من أحمد بن طولون الهدايا ، وإذا قصد

(١) ورد اسمه (بابكيال) في ابن الأثير (٧ / ٦٠) عدداً من المرات ؛ لكن الطبري يورده على الشكل

الذي أثبتناه - المنقح .

أحدهم أن ينحيه عن ولايته جاءته الأموال فأسكتته ، وامتد الزمن فاستتبَّ له الأمر في مصر .

ولما تمكَّن الموفق من الحكم في بغداد ، أراد أن يعيد نفوذ الدولة العباسية إلى مصر ، فعَيَّن أماجور والي سورية والياً على مصر ، لكن أحمد بن طولون رفض أن يسلمه الولاية ، بل سار بعد وفاة أماجور إلى سورية فاستولى عليها ، وكان الموفق مشغولاً بحرب الزنج . عين ابن طولون في سورية خادمه لؤلؤاً نائباً له عليها ، لكن لؤلؤاً تحالف مع الموفق ، لكي يَمَكِّن الأمر لنفسه في سورية ، وأعلن العصيان على أحمد بن طولون ، ولم يرد الموفق ولا أحمد الدخول في حرب ، فلم يرسل الموفق إلى لؤلؤ جيشاً يساعده للهجوم على مصر ، بل كل ما فعله أنه أعلن شتم أحمد بن



منظر لجامع ابن طولون في القاهرة (عن كرزويل)

طولون على المنابر ، وقابله ابن طولون بأن أسقط اسمه كولي للعهد من الخطبة ، بل دعا الخليفة للمجيء إلى سورية ومصر هرباً من أخيه الموفق ؛ وكان المعتد تقريباً تحت وصاية أخيه الذي كان مستبداً بالأمر دونه ، وكان يدير الدولة بحق وجدارة .

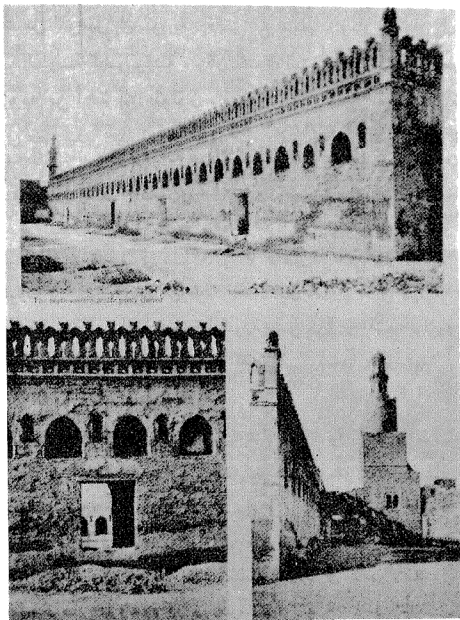
استطاع الموفق أن يعيد أخاه إلى بغداد ، ولما توفي أحمد بن طولون سار عامل الموصل إلى سورية ، فاتفق مع عاملها ، وسار الاثنان إلى مصر ليزيحا الدولة الطولونية ، وكان الذي استولى على الأمر في مصر هو خمارويه بن أحمد بن طولون ، فسار إلى قتال هذين الوالين فهزمهم . عاد إلى مصر ليدبر حملة أخرى ؛ وفي أثناء ذلك اختلف العاملان على تقاسم الأسلاب في سورية ، فعاد خمارويه وتمكن من ضرب عامل سورية . أرسل الخليفة إلى عامل سورية من أسعفه وهو أحمد بن الموفق الذي أصبح فيما بعد خليفة بعد المعتد ، هزم أحمد بن الموفق خمارويه ، لكنه لقي صعوبات في سورية ، وخرج عليه بعض جيوشها ، فوجد أن أحسن حلّ يعمل هو الاتفاق مع خمارويه وتسليمه سورية ، فأعطاه الولاية على مصر وسورية مقابل مال رتب عليه .

المصاهرة بين الخليفة وخمارويه :

لما تولى أحمد بن الموفق الخلافة بعد المعتد باسم المعتضد ، خطب ابنة خمارويه قطر الندى ، وتزوج منها بعد ذلك بسنتين . أنفق والدها الأموال الهائلة على زفاف ابنته ، حتى قيل إنه افتقر بعد تزويج ابنته ، وإنّ المعتضد الخليفة ما قصد بزواجه منها إلا ليفقره .

بعد أن توفي خمارويه وتولى ابنه جيش مكانه ، اضطربت أحوال

الطولونيين وخرج القرامطة في سورية ، فلم يستطع أن يتغلب عليهم ،
 وأتعبوه ، واضطروا عامله في سورية إلى أن يستجد بالخليفة ، فأرسل
 المكتفي له جيشاً لمساعدته على القرامطة ، وقضى الجيش عليهم ، لكنه لم



لقطات من جوانب جامع ابن طولون (عن كرزويل)

يقف عند سورية ، بل رأى أن يمدّ سلطته إلى مصر ، فيعيد الاستيلاء عليها باسم الخليفة . في الواقع دخل جيش الخليفة مصر واستولى عليها ، ودكّ مدينة القطائع التي بناها أحمد بن طولون تشبّها بالخليفة الذي بنى سامراء . وهكذا انقضت الحركة الطولونية من مصر وعاد الخليفة وسيطرته عليها .

نتائج حركة ابن طولون الاستقلالية في مصر :

هذه الدولة الطولونية لا تنطوي على فكرة استقلالية شعبية ، لأن المصريين ما كانت لهم شخصية وطنية تحالف شخصية العراق ، إنما كانت نتيجة أطماع شخص هو أحمد بن طولون ، هيأت له هذه الأطماع مقدراته من جهة ، وسوء التدبير وضعف الحال في العراق من جهة أخرى . ولكن مع ذلك فإن مصر استفادت من هذه الحركة ، وظهر لها أنها قادرة على أن تستقل يوماً ما عن الخلافة العباسية ، وظهر لها أن الأموال التي كانت ترسل إلى العراق يمكن أن تنفق في مصر ، فتفيد أبناءها ، والواقع أن أحمد بن طولون استطاع أن يرفع من مكانة مصر الاقتصادية إلى درجة ما كانت تحلم بها ، فهو قد بنى فيها مدينة القطائع ، وبنى قصره في مكان قريب من المكان الذي بنى فيه صلاح الدين قلعته فيما بعد ، وبنى أحمد الجامع بأهية عظيمة . إن آثار هذا الجامع اليوم قائمة بهندسته العراقية ومئذنته الملوية على الطريقة الكسروية القديمة ، يبدو سلّمه الحزوني من الخارج ، وبنى ابن طولون المستشفى . خلاصة القول إن الدولة الطولونية أظهرت أن مصر قادرة على أن تستقل عن الخلافة ، وسنرى أنها استقلت فعلاً في عهد الفاطميين بعد محاولة مشابهة لحركة الطولونيين وهي حركة الإخشيديين .



الدولة الإخشيدية في مصر والشام (٣٢٣-٣٥٨هـ)

أصل الإخشيدين أتراك من فرغانة ، ويقال إن جدهم كان من ملوكها . التحق أبو الإخشيد وهو طُغج بخدمة الخليفة العباسي ، فعينه على بلاد الشام سنة ٢٨٣ هـ : ظهر محمد بن طغج في بلاد الشام ، وقد التحق بخدمة عامل الشام سنة ٢٩٧ هـ ، ثم دخل في خدمة تكين بن عبد الله الحزري الذي تولى محاربة الفاطميين في مفتتح القرن ٤ هـ ، وقد بذل محمد بن طغج جهوداً عظيمة في مقاومتهم ، حتى نال ثقة الوالي والخليفة ، فأصبح والياً على مصر . وفي عهد ولايته تمكن من صدّ الفاطميين بنجاح ، مما دعا الخليفة أن يمنحه لقب الإخشيد (وهو لقب معروف في بلاده الأصلية) . حاول الفاطميون أن يستميلوا الإخشيد ، لكنهم لم ينجحوا . أدخل الإخشيد إصلاحات هامة على مصر ، وقام المحمديين الذين كانوا يطمعون بحكم بلاد الشام .

مات الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ ، وترك ولدين تحت وصاية مولاه كافور الذي حكم مصر والشام كوصي على الولدين مدة عشرين عاماً . ثم أصبح والياً لمدة سنتين ثم توفي عام ٣٥٧ هـ . واضطربت الأحوال بمصر .

كانت الدعوة الفاطمية قد تغلغلت بمصر ؛ وفي سنة ٣٥٨ هـ ، دخل الجيش الفاطمي بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ .



الدولة الزيادية في اليمن (٢٠٤ - ٤١٢^(١) هـ)

كانت بعض بلاد اليمن مستقلة بعض الاستقلال عن الخلافة ، ذلك أن

(١) اعتماداً على زباور . هذه الخلاصة وضعها المنهج لإتمام البحث .

العباسيين لم يستطيعوا إخضاع رؤساء القبائل في الين إخضاعاً تاماً ، فكان عمالهم يختصمون دوماً مع هؤلاء الرؤساء . أرسل المأمون سنة ٢٠٤ هـ أحد الأشخاص المنتسبين إلى زياد بن أبيه واسمه محمد بن إبراهيم قائداً لتلك المنطقة كي يقضي على حركة علوية ، ويسوي الأمور فيها ، فاستولى على جنوبي البلاد العربية وأقام في زبيد حكماً لنفسه مستقلاً بعض الاستقلال عن بغداد . رضي الخليفة المأمون بذلك ولعله رأى ذلك أفضل من حكم رؤساء القبائل . امتدّ حكم هذه الدولة حتى سنة ٤١٢ هـ .



الزيدية في طبرستان وجنوبي بلاد الين

الزيدية في طبرستان :

يتبع حركة استقلال بعض الأمراء عن الدولة العباسية حركة للزيديين في الاستقلال في طبرستان وجنوبي بلاد الين . هذه الحركة ليست كذلك الاستقلال الذي بحثناه سابقاً ، لأنها تختلف عنه بالدعوة للفكرة العلوية الزيدية ، وهي تتفق معه في الاستفادة من وضع الخلافة المضطرب ، وفي الاستفادة خاصة من أوضاع الإقطاع والضغط على الشعب .

كان في طبرستان في النصف الأول من القرن الثالث ضغط على الفلاحين وكان الإقطاع متزايداً في هذه المنطقة ، حتى إن الخليفة المستعين أقطع محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد أراضي في طبرستان ، فلم تكفِ هذه الأراضي ، بل وضع يده على الأراضي المجاورة لها . فضجّ الفلاحون من ذلك ووجد الزيديون : أبناء زيد بن علي الذين ما كفوا عن الدعوة لأنفسهم في مناطق العالم الإسلامي المختلفة ، وجدوا هناك أرضاً خصبة لدعوتهم ، استجاب السكان لتلك الدعوة التي كانت تعُدُّ

برفع الظلم والإجحاف ، فنار الحسن بن زيد سنة خسين ومئتين ، وجع حوله عدداً كبيراً من الفلاحين ، واستولى على طبرستان وجرجان ، وأقام إمارة مستقلة باسمه ، وحكم هو وأولاده ، حتى أقي السامانيون سنة سبع وثمانين ومئتين ، فأزاحوا الزيدية عن هذه المنطقة .

مضى بعض الزمن ... وفي عام واحد وثلاثمائة قامت حركة أخرى زيدية في طبرستان قام بها حسن بن علي الأطروش ، ولقب نفسه ناصر الحق^(١) ، وتبع طريق الحسن بن زيد ، فدعا إلى القضاء على الإقطاع ، والتف حوله الفلاحون فأقام حكماً له في طبرستان استمر حتى عام أربعة عشر وثلاثمائة حين أتت الإمارة الزيارية^(٢) فأطاحت بحكمه .



الدولة الزيدية في اليمن

(٢٤٦ - حوالي سنة ٧٠٠ هـ)

أما في جنوبي الجزيرة العربية ، فقد ظهر أحد أبناء زيد بن علي واسمه يحيى بن الحسين وهو من أحفاد القاسم الرسي عالم من علماء المذهب الزيدي ظهر في خمسين رجلاً في منطقة بين مكة وصنعاء في مكان اسمه صعدة ، فأقام حكماً لنفسه واتخذ صعدة عاصمة له . وأصلح الأمر بين المسلمين وبين نصارى نجران ، فاستتب له الأمر ، لكن سلطته انحصرت في هذه المنطقة ، ولم تمتد إلى سواها ، إلا بعد زمن حين استطاع أولاده أن يستولوا على اليمن ، فيشكلوا فيها الدولة الزيدية الأولى (٢٤٦ - ٥٦٩ هـ) ثم الدولة الزيدية الثانية (٥٩٣ - حوالي ٧٠٠ هـ) .

(١) ابن الأثير يلقبه (الناصر) فقط - للنقح .

(٢) الدولة الزيارية حكمت جرجان وطبرستان بين ٣١٥ - ٤٧١ هـ للنقح .

حركة القرامطة

المقدمة :

ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث حركة فرقة دينية باطنية تستند في مبدئها الأساسي إلى أن لكل ظاهر باطناً ، فأيات القرآن ظاهرها يعطي معنى ، وباطنها يعطي معنى آخر ، ويمكن تفسير القرآن الكريم بباطنه ، فيختلف الأمر اختلافاً كلياً . أما السؤال الذي يتبادر إلى الذهن بالنسبة لهذه الحركة الباطنية فهو « من الذي يستطيع أن يؤول القرآن ذلك التأويل الباطني ، فيطلع على معانيه الحقيقية الباطنية » ؟ إن الإمام العلوي من أبناء علي بن أبي طالب ، وأبناء ورثة النبوة والمطلعين على الأسرار والخفايا هم الذين يستطيعون أن يؤولوا القرآن وحدهم . مثل هذه الحركة ظهرت قبل هذا العصر في العهد الأموي ، ظهرت مع الكيسانية والسبئية . ليس موضوعنا هنا أن نهتم بالكيسانية والسبئية كعقيدة ، وأن نشرح مبادئها ، لكنّ علينا أن نقول إن الناحية السياسية ظاهرة في هذين المذهبين . وقد استفاد منها المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فقام بحركته المشهورة ، ثم قضى على حركته ، فاخفت ونامت ، لكنها كانت متجسمة في النفوس . قامت الدولة العباسية في أول أمرها على الاستعانة بالكيسانية والسبئية بمظهر جديد هو الهاشمية ، لكن العباسيين حيناً بلغوا الحكم ، وأصبحوا خلفاء تنحوا جانباً عن هذه المبادئ المخالفة للفكرة السنية . أما فكرة الباطنية فقد استمرت تحارب العباسيين أنفسهم ، فقد حدث أن جعفر الصادق ، عهد بالأمر من بعده إلى ابنه إسماعيل . لكن إسماعيل هذا توفي

تاركاً ولداً اسمه محمد . نقل جعفر الصادق الإمامة إلى ابن له آخر . لكن أصحاب إسماعيل استروا على القول بإمامة محمد ، فكان الإمام السابع عندهم . ثم توفي محمد محتفياً ونسب إليه أنه الإمام المستور والمهدي المنتظر الذي سيأتي يوماً من الأيام ، وسيظهر العدل في بقاع الأرض . هذه الحركة تسمى بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل ، وتسمى بالسبعية لأنها وقفت عند الإمام السابع ، وتسمى بالوقفية لأنها توقفت عند إمام معين ، وقد أنتجت حركتين سياسيتين مختلفتين بعض الاختلاف ، أولهما حركة القرامطة والثانية حركة الفاطميين .

يصعب على المؤرخ كثيراً أن يستجلي نشأة الحركتين ، وأن يظهر اختلافها ، وأن يميز إحداها عن الأخرى ، بل يصعب عليه أن يرى نشأة هاتين الحركتين وتطورهما الأول ، والسبب في ذلك واضح هو أن الدعوة للفرقتين دعوة سرية لا تباح ولا تعرف ، وهي على درجات فلا يمكن للمؤرخ أن يرى تطور الأمور بشكل واضح ، بل يراه خلال خفايا الظروف . يجب علينا ألا نهتم اهتماماً بالغاً بنشأة الحركة ، فلعل هذه النشأة ، اكتنفها في الأصل الغموض ، ولم تكن واضحة عند أصحابها أنفسهم ، فكونها دعوة سرية ، يجعل لها اتجاهات مختلفة . كل اتجاه لا يعرف سيرة الآخر ولا موضوعه ولا كيف يعمل . ومما لا ريب فيه أن الحركتين تقفان عند عهد المهدي محمد ، ولكنها تختلفان بكيفية الدعوة بعض الشيء ، وبالرأي والعقيدة أيضاً ، والسبب في ذلك أن الباطنية ليست دعوة دينية محضة ، فالجانب السياسي فيها هو الأساس ، وليس في حركة الفاطميين أو القرامطة رجل مؤمن كل الإيمان بمذهبه ودينه ، متمسك به كل التمسك ، يتخذ مذهباً أساسياً وعقيدة دينية دون أن يكون له غاية

سياسية ، إنما كان على رأس الباطنية أشخاص ذوو طموح ، يريدون أن يصلوا إلى تحقيق رغباتهم في الوصول إلى الحكم . وسنرى في أبحاثنا القادمة الدليل على ما نقول .

هذه المقدمة الوجيزة ، تفيدنا في فهم حركة القرامطة على حقيقتها الأساسية وتبين لنا الطريق الذي يجب أن نخطه في البحث .

نشأة حركة القرامطة :

حركة القرامطة نشأت في العراق وبصفة خاصة في سواد العراق ، أي في قراه لا في مدنه ، انتشرت قريباً من الكوفة ، واتجهت الدعوة إلى الفلاحين . الفلاحون من النبط ، والنبط^(١) هم من سكان البلاد القدماء الذين استقروا في المزارع والأراضي ، يعملون عليها ، وهم يعتنقون أدياناً مختلفة ، ولهم عقائد كثيرة . انتشرت الدعوة القرمطية أيضاً بين أصحاب الحرف ، ثم آل بها الأمر في الشام إلى أن اتجهت إلى الأعراب ، وسرت بينهم ، وقامت على أكتافهم ثورات وحروب . الذي جمع هؤلاء الجماعات (الذين وجهت إليهم الدعوة) هو كونهم فقراء في حالة بؤس شديد ؛ ولذلك فالحركة اتسمت بهذا الطابع المادي ، إذاً هي حركة دعوة بين الفقراء والبؤساء ، وهي تعبير عن هذا الاتجاه . يعني ذلك أن الحركة ينبغي لها أن تتجه لرفع مستوى الفقراء . رأينا في أبحاثنا السابقة حركة الزنج ، وكيف كانت تلك الحركة تعبيراً عن واقع الزنوج في جنوبي العراق وفي مستنقعات البصرة خاصة ، ورأينا أن صاحب الزنج قد استفاد من وضع الزنوج السيئ ، فوسع حركته بوعود منى بها الزنوج ، واستطاع أن يثير تلك

(١) يجب ألا نخلط بين كلمتي (النبط) في العراق و (الأنباط) القدماء الذين كانوا سادة سورية الجنوبية قبل الإسلام - المنفج .

الحركة بينهم . القرامطة كما ذكرنا انتشروا بين الفلاحين والنبط أصحاب الحرف ثم الأعراب ، بثوا دعوتهم في الطبقة الكادحة البائسة المسكينة ، هذه الطبقة التي حاولت في العصر الأموي أن تثور على الأمويين . وقد استفاد من استيائها المختار بن أبي عبيد الثقفي فاستطاع أن يؤلبهم حوله . هذه الطبقة زادت حالها سوءاً في العهد العباسي ، فقد رأينا أن الثورة في العهد العباسي توسعت ، وكان خطرهما كبيراً على الممولين والأثرياء والإقطاعيين ، لقد استفاد هؤلاء من جهود الفلاحين (وأكثرهم من النبط) في الأرض ، واستفادوا من أصحاب الحرف يشغلونهم ، ويأخذون ثمرات أتعابهم ، فيستفيدون منها . إنهم أيضاً يجنون أرباحاً طائلة من التجارة هي أكثر بكثير مما يستفيد منها صانع السلعة نفسه . هذه الطبقة الكادحة المسكينة ، كان اتجاهها في الدين مختلفاً ، فالنبط أديانهم السابقة متعددة متشعبة ، فهم على دين الأكاسرة حيناً ، وعلى دين الصابئة حيناً آخر . وقد تؤثر فيهم مذاهب أخرى ، لكنهم إجمالاً لم يتفهموا الإسلام كما ينبغي ، إنما فهموه على أنه دونزعة علوية كسروية أكثر من أنه ذو نزعة ديمقراطية .

ولنتخيل الآن رجلاً قابلاً في السلمية ، وهو ذو فكرة علوية إسماعيلية على الصفة التي ذكرناها . ولنتخيله ينظر في شأن العراق ، وفي الفوضى التي ضربت أطناها في بغداد وسامراء (فوضى الأتراك التي رأيناها) . أليس من الطبيعي أن يخطر بباله أن أحسن مركز لنشر دعوته هو بين تلك الطبقة الكادحة المسكينة الفقيرة التي تنظر إلى الدين نظرة علوية كسروية ؟ لا يهمننا في هذا من هو ذلك الشخص ؟ أكان من أولاد عبد الله بن ميون القداح أم من غيرهم ؟ إنما الذي يهمننا أنه استطاع أن يتعرف إلى نواح ثلاث في الأمر :

أولاً : فوضى في الحكم العباسي يسهل الثورة وييسر سبلها .

ثانياً : حالة اقتصادية بائسة لطبقة من الشعب أمام حالة اقتصادية رخيّة راضية عند طبقة أخرى من الشعب .

ثالثاً : جهل عند هذه الطبقة الكادحة وميل إلى فكرة علوية كسروية ، غايتها التحرر من الفقر والبؤس .

بمنا من هذا أن نعرف أن ذلك الداعي يرى أن تتجه دعوته في ذلك القسم من العراق ، وفي ذلك الوقت بالذات ، فينجح نجاحاً عاجلاً ، لأن أسباب النجاح متيسرة أمامه . نشأة الدعوة - كما قلنا - مبهمة غامضة مضطربة ، ولكن لا يضيرنا كثيراً في بحثنا علب معرفة هذه النشأة ، إذا عرفنا كيف اتجهت وإلى ما أدّت ، والذي نعرفه أن السّلميّة في سورية كانت مركز هذه الدعوة .

يقال إن ابناً لعبد الله بن ميمون القداح ^(١) (واسمه أحمد) قام في السلمية ، اتجه اتجاهأ إسماعيلياً ، فصار يوجّه دعوته من السلمية بهذه الفكرة . نعرف أيضاً أنه وجّه إلى سواد العراق وجهات الكوفة رجلاً من

(١) لا بد لنا من التعرف على أصل هؤلاء الناس الذين نشروا الدعوة الإسماعيلية : ميمون القداح رجل فارسي كان يعمل بقدر العيون التي أصابها الظلام والعمى ، ولا نعرف درجة ثقافته ودينه . ولكنه علم ابنه عبد الله الشريعة الإسلامية ، فحضر حلقات الشيوخ وتقرّس على الجدل والمناقشات الفلسفية الدينية ليستطيع أن ينشر الدعوة .

كان لعبد الله بن ميمون ثلاثة أولاد هم : محمد والحسين وأحمد الملقب أبو الشلمع ، وهو الذي أرسل داعية إلى العراق اسمه حسين الأهوازي ، فاتصل بمحمدان قرمط ، وهو الذي أرسل ابن حوشب إلى البين لنشر الحركة الإسماعيلية . خلف الحسين سعيداً : وهو الذي ادعى أنه عبيد الله المهدي ، سليل الأسرة الفاطمية ، وقد اخترع نسباً مربوطاً بالإمام السابع محمد المستور ، فذكر أجداده : عبد الله الرضا ، أحمد الوفي ، الحسين النقي ، عبد الله ، عبيد الله المهدي الذي ولد سنة ٢٥٩ هـ . وهو الذي أسس الدولة الفاطمية في القيروان سنة ٢٦٧ هـ بسمي الداعية أبي عبد الله الشيعي - المنقح .

أتباعه اسمه حسين الأهوازي ، فسار هذا إلى سواد الكوفة ، ووقع مريضاً ، فانتشله من مرضه رجل اسمه حمدان قرمط ، فعني به ، وتلقى منه دعوته ، فدخلت في نفسه ، وجعل حسين يتصل بأهل السواد ، وينشر الدعوة بينهم ، لكنّ والي الكوفة استطاع أن يعرف نشاطه ، وأن يلقي القبض عليه ، فسجنه . هرب من السجن ، ورجع إلى سورية ، وبقي في سواد العراق حمدان قرمط نائباً عنه وقائماً بدعوته .

أهداف الدعوة :

لا ندري على الضبط : ماذا حقق حسين الأهوازي في شأن الدعوة ، وما هو المقدار الذي قطعه في ذلك السبيل ؟ إنما الذي يقال لنا في التاريخ أنّ حمدان قرمط سأله عن دعوته ، وما ينبغي عليه منها فقال : « أمرت أن أروي هذه القرية ، وأغني أهلها ، وأن أنقذهم من الفقر ، وأضع بيدهم ثروة أسيادهم » . يظهر لنا من هذا الكلام أن الدعوة اتجهت اتجاهًا اجتماعيًا اقتصاديًا ، لا اتجاهًا دينيًا ، والأصحّ أن نقول : إن الاتجاه الاجتماعي الاقتصادي يغلب على الاتجاه الديني .

تنظيم الدعوة :

وأياً كان الأمر ، فإنّ حسيناً الأهوازي ومن بعده حمدان قرمط ، نظما الدعوة ونشراها في طبقة الشعب الكادح ، وكان أول التنظيم في المرحلة الأولى انتساب الأشخاص إلى الدعوة ، وقد كان يحصل ذلك دون صعوبة ، فهي دعوة مقرّبة إلى نفوس أهل السواد . وكانت المرحلة الثانية هي جمع الأموال لتقوية تلك الدعوة ولتمويلها ، وقد وضع حسين الأهوازي وحمدان قرمط أصول ذلك التنظيم ، فأخذوا من المنتين إلى الحركة ضرائب وأموالاً بأشكال مختلفة ؛ وانتهى حمدان في يوم من الأيام إلى أن أعطى هذه الحركة

صورة جديدة ، لعل صاحباً له اسمه عبدان وضع له اسمها بعد دراسة أحوال أهل النبط واتجاهاتهم وميولهم ، فقد جمع حمدان وعبدان أموالاً باسم « الألفّة » وهو اسم جديد ؛ والغاية من الألفّة ، أن يكون لهذه الدعوة بيت مال ، فيه أموال كل من انتهى إليها ، توزّع عليهم هذه الأموال حسب حاجتهم وحسب حاجات الدعوة ، فلا يترتب على المنتسب إلا سلاحه وفرسه ؛ أما أمواله الأخرى وإنتاجه فيقدمها ألفّة ، وينتظر من أصحاب الدعوة - وهم يضعون رجلاً ثقة على هذه الأموال - أن يوزعوها بين الجميع . إذاً هذه الدعوة - كما ترون - اشتراكية شيوعية . أقبل المتنون إلى هذه الحركة على هذه الدعوة وقبلوا أساليبها برضى منهم ، وقدموا إليها أموالهم .

تطبيق النظام ونشر الدعوة :

كانت هذه الأموال توزّع عليهم حسب حاجاتهم بالتساوي وبالعدل ؛ وكانت مراكزهم في هذه الحركة متصلة تعتمد على كفاءاتهم الشخصية وعلى مقدرتهم في إيقاد تلك الحركة ودفعتها إلى الأمام . كل ذلك يتفق مع روحهم ومع الوضع الذي كانوا عليه . أدى كل ذلك إلى انتشار الدعوة انتشاراً كبيراً . وجّه حمدان الدعوة إلى خارج العراق : أرسل ابن حَوْشَب إلى اليمن ، ووجه أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي إلى جنوبي إيران ، لكنه لم يتمكن من النجاح فيها ، فهرب منها وسار إلى البحرين فنجح في البحرين أكثر .

انفجار الحركة :

ولما تهيأ الأمر لحمدان ، وكثر أتباعه ، أعلن ثورته في أول أمره بشكل بسيط ، ثم ظهرت تلك الثورة بشكل قوي مفاجئ في عام ٢٨٧ هـ في مكان اسمه جنبلاء بين الكوفة وواسط ، فهاجم المسلمين السنيّين ، وقتل النساء

والأطفال ، وأحرق الدور ، وسار بيدر عامل الخليفة المعتضد إلى القرامطة ،
وشتتهم ، وأوقع فيهم مقتلته كبيرة ، إلا أنه لم يُفَنِّ حركتهم لأنه - على
ما يقال - كان بحاجة إلى العمال والمزارعين ليقوموا بشؤون الأرض والعمل ؛
فعدادت الدعوة ثانية ، وعدادت الثورة عام ٢٨٩ هـ . شعر الخليفة بخطورة
الحال ، وأرسل جيشاً كبيراً ، فهزمهم شرّ هزيمة .

توقف الحركة :

وهنا نشاهد أمراً غريباً ، وهو أن حركة القرامطة في العراق تسكت
وتختفي إلى أمد بعيد ؛ ولا ندري لماذا وقفت تلك الحركة ؟ أهو لأن
الخليفة قضى عليها قضاء بحيث لا تقوم ثانية ؟ أم أنه حصل خلاف كبير
بين أصحاب الدعوة فأدّى إلى إيقافها ؟ - مهما يكن من أمر فإن حمدان
وعبدان اختلفا مع القائلين على الأمر بالسامية ، وأرسل القائم بالأمر في
السلمية إلى العراق رجلاً ليسوّي الأمور ، ويثير فيه الفتنة مرة أخرى ،
فوصل إليه ، واجتمع بجمدان وعبدان ، لكنه لم يجد السبيل إلى التفاهم معها
فقتلها . دبر ذلك القتل - على ما يقال - مع شخص اسمه زكرويه بن
مهرويه ، وكانت شخصية هذا الرجل وأولاده غامضة . وقفت الدعوة على
كل حال في سواد العراق وانتقلت منه إلى الشام بين الأعراب .

انتقال الحركة إلى الشام :

قامت الدعوة في الشام للقرامطة علي يد صاحب الناقة ، وصاحب
الناقة اسمه يحيى وهو على رأي بعض المؤرخين الابن الأكبر لزكرويه . نشر
صاحب الناقة دعوته بين الأعراب من بني العَلْيُص ، وكانوا في حالة
شديدة من الفقر والبؤس ، فتلقفوا دعوته ، وثاروا على الدولة الطولونية ،
وكانت إذ ذاك في حالة ضعف شديد . ادعى صاحب الناقة أنه صاحب

الأمر ، وهو الخليفة ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين . لم ير الطولونيون في ذلك خطراً جسدياً ، حتى أنهم لم يهتموا به كل الاهتمام . فصار صاحب الناقة يُغير على المدن والقرى ، ويسفك الدماء ، ويسلب الأموال . أدرك المعتضد خطورة الأمر ، فأرسل إليه جيشاً لم يستطع الصمود أمامه ، وأرسل إليه الطولونيون واليهيم على سورية واسمه طُغْج ، فهزمه صاحب الناقة ؛ وسار طغج إلى دمشق ، وتحصن بها ، وقد سلمت دمشق من غارات القرامطة . أتت النجدة إلى طُغْج سنة مئتين وتسعين ، فتقدم إلى القرامطة ، وهزمهم شرّ هزيمة ، وقتل صاحب الناقة . كان لصاحب الناقة أخ عُرف بلقب صاحب الشامة ^(١) ، وتذكر الروايات التاريخية أن اسمه حسين ثم أسمى نفسه أحمد ويقال إنه من أبناء زكرويه أيضاً ، قاستولى على الأمر من بعده .

ودعا صاحب الشامة لنفسه ، وخطب له في حصص بإمارة المؤمنين ، وتفاقم خطره . وكان الخليفة في ذلك الوقت المكتفي ، فأرسل إليه جيشاً عدته عشرة آلاف مقاتل ؛ لكن هذا الجيش لم يصد أمامه ، بل هزم ، وسار صاحب الشامة إلى دمشق ، فصالحه أهلها على جُعل يؤدونه إليه . ويقال إنه سار بعد ذلك إلى السامية وقصد فيها الدعاة وصاحب الأمر هناك ، وأراد أن يقتله . في هذه الأثناء جهّز المكتفي جيشاً قوياً لمحاربتة ، ووضع على رأس الجيش محمد بن سليمان الكاتب فسار إليه محمد هذا وهزمه في موقعة حاسمة ، وألقى القبض عليه وأرسله إلى بغداد ، فقتل فيها .

وبذلك انتهى أمر القرامطة في الشام ، ولم يستمر أمرهم فيها مدة طويلة ، وكان سبب نجاحهم ضعف الطولونيين وفقر الأعراب ، واستعدادهم

(١) أكثر المراجع تذكر لقبه صاحب الشامة وبعضها القليل صاحب الحال - المنقح .

لقبول الدعوة القرمطية . الذي سبب بعد ذلك إخفاق القرامطة أن الطولونيين ألقوا بمقاليد الأمر للخليفة في بغداد ، وكان الخليفة قد انتهى من أمر القرامطة في العراق ، فاستطاع أن يُجهز على حركتهم في سورية ، ولاقى القرامطة في دمشق مقاومة كبيرة ، ولم يستطيعوا أن يتفاهموا مع عبید الله المهدي رأس الحركة الفاطمية الذي كان في السمية . هاتان الحركتان القرمطية والفاطمية سارتا باتجاه مختلف ؛ لو أنها اجتمعتا لتفارق الحال في سورية .

القرامطة في الجزيرة العربية :

قضي على الحركة في العراق وسورية ، لكنها استمرت خطيرة جداً في منطقة أخرى ، فقد رأينا أن حمدان القرمطي أرسل أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي إلى البحرين ، ونشر الجنابي دعوته بين القبائل العربية من بني عبد القيس ، واستقامت له الدعوة في الأحساء ، فاستطاع أن ينشئ دولة مستقلة عاصمتها المؤمنية ، وحكم هذه الدولة هو وأولاده باسم إمام مستور سيظهر يوماً . ولكي يقوّي شأنه في هذه المنطقة ، ولكي يساير البدو فيها ، جعلهم يشاركون في الأمر معه حتى يحين ظهور الإمام المختفي . كوّن منهم مجلس سيادة يوجهون الأمر معه ، واشترك شيوخ القبائل في مجلس السيادة ينتظرون الإمام المستور . ظهر خطر القرامطة في الأحساء ومنطقتها ظهوراً واضحاً ، فأغاروا على الحج ، سلبوا وقتلوا وسفكوا الدماء ، وتوزعوا في مناطق مختلفة من البحرين ، حتى أنهم في عام ٣١٧ هـ بلغوا مكة ، وأخذوا الحجر الأسود منها ، واستبقوه عندهم مدة ثلاثين عاماً ، حتى توسّط الخليفة الفاطمي معهم بشأن إعادته فأعادوه . حاولوا أن يسيروا

إلى الين ، وحاولوا أن يصلوا إلى مناطق أخرى في العالم الإسلامي ، فامتدت أيديهم إلى الديلم ، ولكنهم لم يؤسّسوا فيه حكماً معيّناً^(١) .

هذه خلاصة عن القرامطة وعن مبدئهم وأعمالهم ، ويقول ماسينيون : « إن القرامطة هم الذين أسسوا نقابات العمال في ديار الإسلام ، وإنهم أول من فعل ذلك ، فجمعوا بين العمال ووحدوهم » ولا ريب أن القرامطة كوّنوا هذا النوع من الاتحاد للعمال ليستفيدوا من حركتهم ، وليجعلوهم تحت لوائهم . أما أنهم كانوا أول من وضع نظام الاتحاد العمالي في ديار الإسلام ، فإن هذا أمر غير مقبول . الدكتور عبد العزيز الدوري ينفي ذلك ويقول : « إن اتحادات العمال بدأت منذ القرن الثاني للهجرة : فالعمال جمعوا أمورهم ، وتناصروا ، وتساعدوا ليخرجوا من الضائقة الاقتصادية التي كانت تحيط بهم » . والدليل على وجود حركة النقابات من قبل - كما يقول الدوري - هو وجود الشطّار والعيّارين . فهؤلاء وجدوا في العراق قبل عصر القرامطة ، لقد خرجوا من العمال ، وكانت لهم علاقة بنقاباتهم . وأياً كان الأمر ، فحركة القرامطة - كما رأينا - استفادت من عناصر مختلفة . من عنصر الباطنيين وإمامهم المستور ، ومن الفلاحين النبطيين الذين لم يتشربوا روح الإسلام كل التشرب ، ومن الأعراب الفقراء البائسين الذين لمعوا في أساليب السلب والنهب ، ومن العمال الفقراء ؛ ثم كوّن القرامطة من كل ذلك جماعة نشرت

(١) بعدما استولى الفاطميون على مصر سنة ٢٥٨ هـ ، حاول القرامطة في الاحساء بالاتفاق مع بعض الأعراب الاستيلاء على مصر ، لكن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله استطاع أن يفلت من هذه الكارثة بالخداع والسياسة . استولى القرامطة على فلسطين ودمشق ، وضربوا بها النقود في السنوات ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٤ و ٣٦٧ هـ . أخيراً استطاع الفاطميون طردهم من الشام - المنقح .

مذهبهم ، فكان أوله دينياً وآخره شيوعياً . وفي خضمّ الاضطراب الذي حاق بالدولة الإسلامية في ذلك العصر استطاعوا أن ينفذوا إلى مناطق ، وأن يعملوا السلب والنهب ، وأن يسفكوا الدماء ؛ وكان من ذلك أن بثّوا الإرهاب والخوف في قلوب الناس والحكّام ، فصار صيتهم المرعب في كل مكان ، وساعدهم هذا على التوسع وممارسة العدوان ، وتقهقرت أمامهم الجيوش ، وعظّم أمرهم .



عودة سلطة الخلافة إلى حين

(٢٥٦ - ٢٩٥ هـ)

رأينا في الأبحاث السابقة تقلص سلطة الخلافة العباسية ، وقد سردنا الحوادث التي نتجت عن ذلك ، ثم علمنا كيف تمكن العباسيون من القضاء على النزعات المختلفة التي انبثقت من الأوضاع الشاذة ، ولم نتعرض للبحث عن الخلفاء الذين أعادوا سلطة الخلافة . نريد الآن أن ندرس وضع هؤلاء الخلفاء ، ونستعرض عهدهم بالإجمال ، لنرى كيف استطاعوا أن يستعيدوا السلطة ، وماذا نتج عن ذلك .

إعادة السلطة إلى الخليفة :

من سنة ٢٥٦ إلى سنة ٢٩٥ هـ تولى ثلاثة خلفاء وهم : المعتمد والمعتضد والمكتفي . أما الخليفة الأول فهو خليفة اسمي لا شأن له كبيراً ، إنما كان دمية في يد أخيه الموفق يوجهه حيث يشاء ، فالأمر يرجع إذاً إلى خليفتيه وقائم بأمور الخلافة ؛ وهم الذين أعادوا السلطة إلى الخلافة ، أعادوا تلك السلطة لكفاءة خاصة وقوة وحيلة . أما الموفق فقد كان أقواهم ، وقد كان أجراًهم وأشدّهم حيلة ، وأقدرهم ، ولولا الموفق لترعزت سلطة الخلافة أكثر فأكثر ؛ إلا أنه وقف إلى جانب أخيه ؛ فخلّت المشاكل أمامه واحدة بعد واحدة . أول شيء فعله هو أنه أعاد الأمر إلى نصابه في بغداد ؛ ثم قضى على حركة الزنج - كما رأينا - عام ٢٧٠ للهجرة بعد جهد كبير وتنظيمات هائلة . وكان في الوقت نفسه يقف أمام

الصفارين والطلولونيين يحاربهم تارة ، ويتحاييل عليهم تارة أخرى ، ويثير عليهم القلاقل تارة ثالثة ، حتى استطاع أن يوقفهم عند حدّ معيّن ، فأقّى الخلفاء من بعده وأوقفوا حركتهم .

أما المعتضد الذي تولى الخلافة عام ٢٧٩ هـ ، فقد كان حازماً أيضاً ، وهو ابن الموفق ، وأخذ عن والده سياسته ، وحنكته ، وتعلم على يديه فنون الحرب ، فاستطاع أن يقضي على الثورات الداخلية كالخوارج ، وضرب الأعراب بالأكراد في ثوراتهم ، وحارب القرامطة ؛ ولئن لم يستطع أن يتغلب عليهم تغلباً نهائياً ، فقد أوقفهم عند حدّ ، وهو الذي أخضع الأمراء المستقلين ، وقضى على السلطة الطولونية . أما المكتفي فقد أتمّ عمل من جاء قبله ، فهو قد قضى على القرامطة في الشام والعراق ، وحارب الروم حينما أرادوا أن يستغلوا الفوضى الكائنة في الخلافة العباسية وأن ينقضوا عليها ، وظل يحاربهم حتى توفي . خلاصة القول : إن أيامه شهدت إعادة سلطة الخلافة بشكلها النهائي .

وسائل الخلفاء الثلاثة في استعادة السلطة :

هؤلاء الخلفاء الثلاثة قاموا بما قاموا به من إعادة سلطة الخلافة دون أن يكون للقواد الأتراك دور كبير في ذلك ، وضعوا أولئك القواد في كنفهم ، فتقلص سلطانهم ، وعادت هيبة الخلافة . إن هؤلاء الخلفاء لم يستطيعوا أن يقضوا على أسباب الفوضى الأساسية ، وعلى أسباب النزعات الاستقلالية وعلى الحركات الثورية . قد رأينا أن السبب الأصيل للمشاكل الداخلية هو تلك الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي كان العدل لا يسود فيها . طبقات الشعب - كما رأينا - كانت تن من الضرائب ، وتن من اضطهاد الحكام . هذا هو السبب الرئيسي الأصيل الذي لم يعمل أولئك الخلفاء على تفاديه ،

بل سيروا سياستهم على أساس آخر . وهو أن يقضوا على الحركات
الاستقلالية والحركات الثورية بالقوة والحيلة ، وقضوا عليها ، إلا أنهم لم
ينظروا إلى أعماق الأمور ، وحلوا المشاكل جذرياً ، فهم لم يحسنوا حال
الفلاحين ويرفعوا الظلم عن عامة الناس والعمال .

هاهم أولاء يعالجون مظاهر الفوضى والتمرد الصادرة من الأتراك . لم
يعالجوها بأن يحلوا الأتراك ويقصوم عن مراكز الحكم ، بل نظروا في
السبب المباشر الذي كان يجعل هؤلاء الأتراك يثورون . كان السبب هو
ضعف بيت المال : فالأتراك كانوا يتخذون عجز بيت المال حجة لهم
ليثوروا ، ويطلبوا الرواتب والنفقات . ظنّ الخلفاء أنهم إذا جمعوا المال من
خزائنهم وكدسوه ، فهم يستطيعون في كل حين أن يؤدوا للجند مطالبهم بل
أكثر من مطالبهم إذا اقتضى الأمر : ظنّوا أنّ عليهم أن يجمعوا المال في
خزائنهم حتى يعطوا الرواتب دون تأخر . الواقع أن جمع المال كان حاجة
من الحاجات التي كان لا بد من تحقيقها في عصرهم ، فالحرب كانت تقوم من
حين لآخر ، وكانت تتطلب الكثير من الأموال . مع ذلك كانت إجابة
مطالب الجند سبباً دعاهم إلى إصلاح الحالة المالية والحالة الاقتصادية .

كيف تمّ الإصلاح المالي والاقتصادي ؟ :

اشترك في هذا خليفتان هما المعتضد والمكتفي ، وعمل المعتضد أكثر من
المكتفي في هذا الأمر ؛ فهو قد حسن حالة الريّ ، وفتح العدد الكبير من
الأقضية ، وحسن حال الزراعة بأن قدّم لهم البذور الكثيرة سلفاً ، ثم أجل
دفع الضريبة إلى شهر حزيران (يونيو) ، أي بعد جمع المحصول من
الإنتاج ؛ وبذلك ساعد المزارعين مساعدة كبيرة ، فتحسنت أحوالهم ،
وصاروا يرسلون الضرائب بانتظام أكثر مما كانوا يفعلون . توفي المعتضد ،

وفي بيت ماله الخاص لنفسه ما يقرب من عشرة ملايين دينار ، سوى ما كان في بيت مال الخلافة العام . أتى المكتفي فاتّبع سيرته في جمع الأموال وكان مقتراً ، فجمع منها الشيء الكثير ؛ وحين توفي ترك في بيت ماله الخاص خمسة عشر مليون دينار .

نتائج الإصلاح المالي :

هذا الجمع والتكديس للمال أدى إلى شرّ مما كان يظن الخلفاء أنه سيؤدي إليه . أدى إلى تقوية سلطان أصحاب الدواوين والوزراء والكتّاب ، الذين كانوا يجمعون المال ؛ فهم الذين يتولّون ديوان الخراج وديوان الإنفاق ، وغيرهما من الدواوين . هؤلاء الكتّاب يصلون إلى مرتبة الوزارة والوزير هو الذي في يده الأموال والدواوين يشرف عليها جميعاً ، كان الوزير نفسه من طبقة الكتّاب وهو في معظم الحالات كاتب صغير ، أخذ في الترقّي حتى صار صاحب ديوان ثم أصبح وزيراً ، واتخذ لنفسه بطانة من الكتّاب أيضاً ، فأخذ يسيّر الأمور عن طريقهم ، ولا يأمن إلا لأصحابه ؛ تركه الخليفة يفعل مايشاء لأنه كان يبغى المال . صار يتمّ تحصيل الخراج والضرائب عن طريق الضمان ، لأن الخليفة يريد أن يحصل على مقدار معين من المال يرضه إلى ما عنده ، ولا يريد أن يتعب نفسه في وضع ميزانية للوارد لا يعرف أيأتي أم لا ؟ فهو إذاً يسلم الضرائب إلى وزيره وإلى كتابه وإلى عمّاله في الأقطار . العمال في الأقطار هم تحت يد الوزير ، يطلب الخليفة إليهم أن يؤدوا مقدراً معيناً من المال ، يضمنون به الضرائب التي يجمعونها ، ولا يهمه بعد ذلك كيف يجمعون تلك الضرائب . هذا الوضع أعطى الوزير وأصحابه وعمال الخراج قوة وشأناً ، فهم ما كانوا يجمعون مال الضمان فقط ويؤدونه للخليفة ، إنما كانوا يجمعون علاوات عليه يأخذونها لأنفسهم .

وقد رأينا في أبحاثنا الماضية أن هؤلاء الكتاب كانوا يضطهدون حيناً ، وتصادر أموالهم بعد أن يعزلوا . انتهى بهم الأمر إلى أن وجدوا طريقة للتخلص من ضنك المصادرة ، تلك الطريقة هي الوقف ؛ فهم يجمعون الأموال ثم يوقفونها على أنفسهم وعلى ذريتهم ، ويديرونها بأنفسهم في حال حياتهم ، ويديرها أبنائهم بعد وفاتهم ، وبذلك يضمنون بقاء المال في أيديهم . فالخليفة إذا صادر ، فإنما يصادر أموالهم الشخصية دون أموال الوقف . يلاحظ كذلك أن سلطان الكتاب قد زاد بزيادة المال بين أيديهم ، وبتقديم هذا المال للخليفة من عندهم .

وهكذا نرى أن طبقة الكتاب وأصحاب الدواوين قد ظهرت مرة أخرى إلى الوجود^(١) ؛ وكان الخليفة مضطراً أن يلجأ إلى هذه الطبقة لإدارة أموره وأحواله الداخلية ، بل هو مفتقر للأموال التي يقدمونها إليه ، لأنه مشغول بالحرب ، والثورات الشعبية ؛ والوزراء هم المتصرفون في أحوال الدولة داخلياً ، بتعيين العمال والولاة والقضاة وما يلي ذلك من جباية الأموال ومراقبة تلك الجباية .

وضع الخليفة وتأرجح نفوذه بين طبقتي الموظفين والعسكريين :

وفي عهد الخلفاء الثلاثة نرى أنه لا يزال يوجد في عاصمة الدولة العباسية طائفتان خطيرتان : وهما الجيش الذي لم يقض على نفوذه ، وطبقة الوزراء والكتاب الذين مكثوا سلطانهم مرة أخرى . نعم إن الخليفة يتحكم بالجيش وفي وزرائه وكتابه ويسيرهم كما يشاء ، إذا كان قديراً

(١) يحسن أن ينتبه الباحث إلى أن هذا الدور يمثل تفوق نفوذ الطبقة البوروقراطية التي بيدها النفوذ والمال على الطبقة العسكرية المنتفزة إلى المال - النتح .

وقويّا ، لكن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً إذا أتى خليفة ضعيف ، فيظهر خطر هاتين الطائفتين : يظهر الوزراء والكتاب يستأثرون بالمال الذي بين أيديهم ويعتزون بسلطانهم على أمراء الأقطار وعما لها ، يقف تجاههم قواد الجيش فهم الذين بين أيديهم الجند ، والجند هم أصحاب القوة والسلاح ؛ والخليفة لا يستطيع أن يفعل شيئاً أمامهم ، ولا يستطيع أن يقصر في تأدية الأموال إليهم . كانت الأموال في أيدي الوزراء ؛ فإذا حصل تنافس بين الفتنتين اختل نظام الوزارة واختل نظام الجيش ، وتضعفت الدولة . أحياناً يحدث اختلاف بين الوزراء أنفسهم ، فينقسمون إلى قسمين - كما سنرى - كلّ قسم منهم ينظر إلى الثاني بعين حئة ؛ والجند لم يكونوا على اتفاق تام فيما بينهم ، ويمكن أن يثور الخلاف بينهم في كل لحظة . إذا ثار النزاع بين القواد والوزراء وكان الخليفة ضعيفاً ، انهارت السلطة السياسية وعادت الفوضى إلى ما كانت عليه . هذا ما حدث بالفعل . في النصف الأول من القرن الرابع كان الخليفة المكتفي آخر الخلفاء الأقوياء في ذلك العهد ، فكّر فيمن يوليه الخلافة من بعده ، لكنه لم يكتب عهداً بذلك ، بل توفي دون أن يكون هناك وليّ للعهد . من يرجع إليه الأمر في تولية الخليفة حينئذ ؟ - أيرجع للوزير والقواد ؟ الوزير الذي تغلب وسيطر في آخر عهد المكتفي كان العباس بن حسن الجرجرائي ، اتجهت إليه الأنظار ليجد وليّاً للعهد ، وكان هناك فئتان من الراغبين ، فئة ترى أنه يجب أن يوكل الأمر إلى ابن المكتفي وقد لُقّب بالمقتدر ، وهو غلام صغير يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وفئة أخرى ترى أن يوكل الأمر إلى عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور ؛ أما الجرجرائي فقد كان في ذهنه ألا يولي خليفة قوياً ، لأن الخليفة القوي يقضي على سلطانه ، فتوجّه إذاً إلى المقتدر ذلك الغلام ، فجمع القواد والوزراء والكتاب لمبايعته ، فاضطروا إلى أن

يقبلوا بذلك . في عهد هذا الخليفة الضعيف الصغير كان لا بدّ من أن يحدث الحدث الذي توقعناه ، وهو أن تقع الواقعة بين الوزراء والكتّاب من جهة وبين رجال الجيش من جهة أخرى ، وتبرز في هذا الخضم سلطة جديدة تمتد إلى الخلافة ، وهي سلطة الحرم وسلطة النساء ، أي أم الخليفة ومن يتبعها من نساء في بيت الخلافة ، فالخليفة موجود في كنفهن ، وقد ربي بينهن ، وهن القيّات عليه ، فلا بدّ من أن يطيع أمرهن .

تتقمّر سلطنة الخلافة مرة أخرى

(٢٩٥ - ٣٣٥ هـ)

الاضطراب بسبب المبايعة للمقتدر :

بويع المقتدر بالخلافة بتأثير من الوزير العباس بن الحسن الجرجرائي ، وكانت هناك طائفة من الكتّاب تقول بمبايعة عبد الله بن المعتزّ ، لأنه قوي وقدير ، ولأنه ليس صغير السن كالمقتدر . هذه الطائفة من آل الجراح^(١) ، ولما بويع المقتدر بالخلافة ، جمعت هذه الطائفة أمرها وخرجت من المبايعة ، والتفت أصحابها حول عبد الله بن المعتز وبإيعونه ، وقاموا بثورة قتلوا بها الوزير الجرجرائي ، وكاد الأمر ينتهي بأن يتنازل المقتدر عن الخلافة لعبد الله بن المعتز ، غير أن حادثاً وقع وهو أن مؤنسا الخادم (وكان صاحب مكانة ارتقى من دور الخادم إلى دور القائد) كان قد عاد من مكة بعد أن أرسل إليها ، فترأس حركة المعارضة مع حرس

(١) هو محمد بن داود بن الجراح انضم إلى ابن المعتز سنة ٢٩٦ هـ ؛ لكن علي بن عيسى بن داود الجراح من هذه الأسرة ووزر للمقتدر بين (٣٠١ - ٣٠٤ هـ) ثم (٣١٤ - ٣١٦ هـ) - المنقح .

الخليفة ، فأوقف المتأمرين وقضى على حركتهم ، وقتل ابن المعتز وأعيد
المقتدر . امتدت فقط خلافة عبد الله بن المعتز يوماً واحداً .

تشببت بيعة المقتدر ونفوذ الحریم والوزراء :

وهكذا استقر الأمر للمقتدر ، وهو غلام في الثالثة عشرة من عمره ، لا
يعرف من أمور الدولة شيئاً . جرى على التبذير والانهاك في الملذات
والشرب والعزوف عن شؤون الدولة ، مع أنه كان حين يصحو من شراب
يصلي كثيراً ويتعبد . ومن المعقول أن خليفة كهذا لا يستطيع أن يتسلم
ناصية الأمر ، ولا بدّ من أن يكون إلى جانبه جماعة يسيرون الأمور ،
وينوبون عنه لينطلق هو إلى ملذاته . كانت الأيدي كثيرة لتوجيهه ،
وكانت أمه واسمها شَعْب تحيط به ، وتوجّهه على طريقتها ، ويحيط به
الحریم في دار الخلافة ، ويشيرون عليه ، وهو صغير ناشئ . صار لأول مرة
في تاريخ الخلافة العباسية تأثير للحریم في توجيه سياسة الدولة ، وإلى
جانب الحریم الوزراء ، والوزراء لا صلة لهم إلا بالخليفة ، لكن الخليفة الآن
غير قادر ، فهم يستفيدون من ذلك ، ويركزون سلطانهم ، ويوجهونه
بشكل يوافق مصالحهم الشخصية . الخليفة بطبيعة الحال يودّ أن يرى
أشخاصاً حوله يقومون بالأمر . الواقع أن للحریم تأثيراً في انتخاب
الوزراء ، وللوزراء أيضاً أثر في تأثر الخليفة بالحریم . هذا أمر معقد
متشابك ينتهي أخيراً بأن يضطرب الحال ، ولا يعرف من هو الموجّه
للخليفة ، ويبقى الخليفة في مهبّ الريح ، يطلق السلطان حيناً لحریمه ،
وحيناً آخر لوزرائه .

اضطراب الحالة المالية :

الذي همّ الخليفة من الوزراء أن يقدموا له المال ، وأن يشبعوا

رغباته ، في الإنفاق والتبذير . وهم يعرفون منه هذه الحال ، فيتنافسون بينهم في السبق إلى تلبية رغباته ، فهم يقدمون له المال الذي يأخذونه من الشعب ، ويستفيدون من ماله لأنفسهم ، فلا يعطون الخليفة إلا قسماً من المال الذي يجمعون ، ولما كانت نفقات الخليفة كبيرة ، والمال الذي وجده في بيت مال الخاصة (وهو خمسة عشر مليون دينار) لا ينبع بل ينضب ، وعدد الجيش مع الحرس كبير ، فإن الحاجة إلى المال تزداد مع الزمن ، وإذا تأخر عن دفع المال يعود الجيش إلى سيرته الأولى في عهد تقهقر الخلافة ، يطالب برواتبه فيضطرب الحال .

وضع الجيش :

لم يكن الجيش مؤلفاً من الأتراك وحدهم بل أصبح خليطاً غير موحد ، نُظِمَ على فئات ، ولم يكن التفاهم سائداً بين تلك الفئات : هناك الفرسان ، وهناك المشاة ، وهناك الحرس وما أشبه ذلك .

التنافس بين الجيش والوزراء :

وتظهر هنا شخصية مؤنس الخادم^(١) في الجيش فهو الذي مكّن مركز الخليفة ، وهو ينتظر من الخليفة أن يوافقه على مطالبه وأن يعترف له بفضله ؛ لكن الخليفة مأخوذ بمن حوله من الوزراء ، وبين الوزراء من لا يرغب بمؤنس ، بل يحسده على مكانته ، ويوغر صدر الخليفة عليه معتقداً أن الخليفة أقوى منه . الواقع أن الخليفة المقتدر ورث عن سبقه قوة الخلافة وسلطانها ، فلم يكن باستطاعة مؤنس أن يكون صاحب الأمر إلا إذا تخلى له الخليفة عن ذلك . الخليفة مهمّ بوزرائه ومهمّ بنسائه ومهمّ

(١) هناك مؤنس الخادم ومؤنس الخازن . ولي المقتدر في أول عهده مؤنس الخازن أمر الشرطة (ابن الأثير

بالمال . الوزراء متحاسدون متباغضون ، يسعى كل منهم إلى أن يبقى في الوزارة ، وإلى أن يوقع غيره في مأزق ، وإذا خرج من الوزارة سعى إلى العودة إليها بمؤامرات على الوزير القائم . على هذا النحو كانت الأحوال تضطرب ويكثر عدد الوزراء ، فالخليفة لا يستقرّ على واحد منهم ، ويجد أن التغيير أصلح لحاله وأكثر حلاً لمشاكله . يقوم في تلك الفترة أربع عشرة وزارة يتولاها تسعة من الوزراء المختلفين متتابعين الواحد بعد الآخر ، يخرب الواحد منهم ما صنعه الآخر .

ابن الفرات :

ظهرت شخصيتان من الوزراء التسعة ، كانتا صاحبتيّ الأثر في تطور تلك الفترة ، وهما شخصيتا ابن الفرات و علي بن عيسى بن الجراح ، ولكلا الشخصيتين صفات ، فابن الفرات رجل قويّ متسلط قاس في أكثر أموره ، محبّ للسلطان ، ولا يهتمّ في سبيل احتكار السلطة شيء ؛ سياسته لها عدة أغراض : سياسة البلوغ ، وسياسة تسوية الأمور ، وسياسة التسلط بصفة خاصة ، لا يهتمّ في سبيل ذلك اختلال الأحوال المالية ولا اختلال النظام ، لاهمه أمر الدولة إلا بمقدار ما يرقى به النفوذ والسلطان . ينفق الأموال الكثيرة ، ويقدم للخليفة مطلوبه منها ، ويجمع حوله عصابة من الكتّاب يطلق لهم الأمر ، فيجمعون المال بالضغط على الناس ويتصرفون بالأمور كما يشتهون .

علي بن عيسى بن الجراح وإصلاحه المالي :

أما الشخص الآخر ، وهو علي بن عيسى بن الجراح ، يأخذ صفته من العصر الذي هو فيه ، ويتأثر من جوّ المؤامرات ، لكنه يبغى الإصلاح في الدولة إلى جانب سعيه لتقوية مركزه الشخصي . لا يهتم كثيراً بالناس ، أو

بالكتاب ، بل يريد أن ينقذ الوضع المالي ، وهو يستند على مقدرته الشخصية في تسوية الأمور ، وفي إصلاح حال الدولة ، له صاحب يعتمد عليه وهو مؤنس الخادم ، ولا ندري وجه الاتفاق بين الاثنين ، ولعل مؤنسا على غير ما وصفه المؤرخون ، فلعله كان يريد إصلاح الحال والنهوض بالدولة إلى جانب رغبة له لا تظهر واضحة في الاستيلاء على الأمر وتوطيد شأن الخلافة .

ينبغي أن نقف قليلاً عند ابن الجراح ، فنَصِفَ الإصلاح المالي الذي قام به . تولّى ابن الجراح الوزارة مرتين وتولاها مرة ثالثة وزير آخر ، كان رئيساً له ظاهرياً . في وزارته الأولى : نظر في الأحوال المالية ، فوجد الشعب يئن من ظلم الكتاب ، فالرشوة كانت منتشرة بينهم ، ولا يقوم كاتب بعمل إلا إذا أخذ المال عليه . كان الكتاب غير قديرين ، بل هم جماعة انتهازيون ، يريدون الوصول إلى المال بكل سبيل . كانت الضرائب كثيرة ، تعوق التقدم الاقتصادي وترهق الفلاح . تصدى ابن الجراح لكل ذلك ، فنع الرشوة وكان لها ديوان خاص اسمه ديوان المرافق ، ومنع الفساد وعيّن الكتاب القديرين . نعم إنه اتخذ لنفسه كتاباً من أصحابه وأقاربه ، لكنه اختارهم من بين الأكفاء ، وأعلن منشوراً بإعطاء الحقوق لأصحابها ، وبرفع الظلامات عن الناس ، ونظر في شكوى المتظلمين من الضرائب ومن سوء تحصيل الأموال . ألغى ابن الجراح بعض الضرائب التي كانت تثقل كاهل الشعب والفلاحين خاصة ، وقلّل من النفقات ، فضيق بعض التضيق على الأمراء وعلى الجنود ، وبذلك استطاع أن يجعل دخل الدولة يكفيها . نظر الناس إلى ذلك الإصلاح ، فاطمأنوا إليه وأمنوا على أنفسهم من ظلم الدولة ، فصاروا يعمرّون المساكن والأراضي والمتاجر ، فكثرت الحركة وازدهرت الحياة الاقتصادية .

اعتمد ابن الجراح على نظام مالي أوجده بنفسه ، وكان أول من أوجده في الإسلام : الدولة كانت في حاجة ملحة للمال ، والخليفة لا يقبل أن يتعرض أحد لمسّ بيت ماله الخاصّ ، وقد أخذ حريته ، فأنفق في أمد يسير ما في خزائنه . هذه الطريقة لا تضمن استقرار الأمور ؛ لأن الجيش لا يؤمن جانبه إلا إذا دفعت إليه الرواتب في ميعادها ، بل قبل ميعادها أحياناً ، فمن أين يأتي الوزير بالمال ؟ كانت طريقة الحصول على المال في مثل ذلك الظرف مصادرة أموال الكتاب والوزراء ، لكن هذه الطريقة تتنافى مع الأمان والاطمئنان ، وتدفع الكتاب والوزراء إلى ظلم الشعب ، وأخذ أمواله بدون حق لتتقدّم حين الطلب . كان ابن الجراح لا يريد أن يلجأ إلى هذه الطريقة ، لأنه منع الرشوة وحرم الفساد . لذا وجد أسلوباً لدفع الرواتب في حينها ، فتعاقد مع اثنين من أثرياء اليهود على أن يسلفا الدولة الأموال التي ترغب فيها ، ومالهما مضمون مقابل دخل الدولة وأرباحها وضرائبها ، ولهما أرباح يحصلان عليها مقابل هذه السلفة . هذا النظام الجديد يشبه نظام المصارف ، وقد أحدث هذا النظام اطمئناناً إلى أن الدولة تدفع الرواتب في المواعيد ، بل صار كبار التجار يتقدمون إلى الدولة ، يسلفونها الأموال بعد أن اطّأنوا إلى قوتها المالية . إلا أن ابن الجراح لم يستمر في تلك الوزارة ، بسبب تدخل الحريم ، فسقطت وزارته ، وعاد ابن الفرات فالغى القواعد التي وضعها ابن الجراح .

عاد علي بن عيسى بن الجراح إلى الوزارة مرة ثانية ، فوجد الأمور مضطربة كل الاضطراب ، فبحث عن أسباب الاضطراب (غير الرشوة والظلم مما حاول إصلاحه سابقاً) ، فوجد أن الدولة تنفق من مال لا تستطيع معرفة مقدار ما يردها منه ، ينفق الوزير المال دون أن يعرف مدخوله ؛ فالأمر إذاً أن نعرف حاجة الدولة إلى الأموال ، وأن نعرف

مقدار الدخل ، ثم نوازن بين الاثنين ، فنع كل إنفاق يخالف ما وضع من تقدير سابق ، وسعى إلى أن يتوازن الدخل والنفقة . ونظر ابن الجراح فيما أنفق عام ٣٠٤ هـ فوضع ما نسميه اليوم بالميزانية ، وضع الميزانية (أو كما كان يسمى بالجريدة بشكل متزن) ، وعمد إلى الإنفاق بحسب الأرقام المقدرة ، وجعل الحسابات ترده كل أسبوع فتسجل وتقيّد ، ويعرف كل أسبوع ما هو دخل الدولة وما هو إنفاقها ، ويقابل ذلك بما هو مخزون في بيت المال ، فتتزن الأمور وتسير على شكل منتظم .

إلى جانب هذا الإصلاح الكبير الذي هو شيء جديد في تاريخ الدولة العربية الإسلامية حاول ابن الجراح أن يقتصد من النفقات ، فخفف الرواتب ، وضيّق الجيش ، فتحسنت الأمور ، واعتدلت ميزانية الدولة ؛ لكن المقتدر المبذّر ما كان يعرف تلك الحدود ، وكان يمشي مع رغباته الشخصية ، ووجد نفسه مضطراً إلى أن يزيد ديناراً لكل جندي ، فأخل بالجريدة ، فاضطر ابن الجراح أن يترك الوزارة ، تركها مع إصلاحه وجريدته النازمة لأموال المال .

تدخل الجيش :

أما ابن الفرات ، فعاد يسير على طريقته يريد التسلط ، وكان الذي يقف أمامه يريد الحدّ من هذا التسلط هو مؤنس الخادم ، الذي كان له السلطان بقوة جنده ؛ فوسوس ابن الفرات للمقتدر ، وحسّن له إبعاده عن العاصمة ، وإرساله إلى الرقة لمحاربة الروم الذين كانوا يغيرون على بلاد الإسلام . أرسل الخليفة مؤنساً ، لكنه لم يتأخر كثيراً ، بل عاد وتدخل مع الجيش في إسقاط الوزير . تحرك الجيش بعد أن أسقط الوزير ، فطلب إعدامه فشنق ، وانتهت وزارته ووزارة أصحابه . بعد أن قتل ابن الفرات

أصبح الرجل القوي النافذ في الدولة هو مؤنس الخادم ، ولم يَر - على ما يقول المؤرخون - قبل مؤنس الخادم من وصل إلى ما وصل إليه من النفوذ ؛ ومن وراء مؤنس الجيش . قلنا سابقاً إن الجيش مختلف التركيب ، وكانت كل فئة مستعدة لتشغب على الأخرى ؛ لذا حاول الخليفة أن يتخلص من مؤنس ، لأنه لا يثق به مع أنه أفاده قبل ذلك .

خلع المقتدر وتولية القاهر :

أخذ الخليفة يدسّ في شأن مؤنس ويحاول إبعاده . وعلم مؤنس ما حصل من مؤامرات حوله ، وظنّ أن الخليفة يريد الفتك به ، فوقع الخلاف في نهاية الأمر بين الجيش والخليفة ، وذلك عام ٣١٧ هـ ، وتآمر الجيش على الخليفة وهجم على داره ، فهرب المقتدر . . . ولم يجد له ملجأ إلا عند مؤنس نفسه فاحتى به . عيّن المتآمرون القاهر خليفة وهو أخو المقتدر إلا أنه لم يمض عليه أيام حتى عجز عن دفع الأموال للجيش ، فثار الجيش عليه وطلب إعادة المقتدر مرة أخرى . عاد المقتدر وتجددت له البيعة ثانية وعفا عن أخيه القاهر .

عودة المقتدر إلى الخلافة :

كان على المقتدر أن يعترف بفضل مؤنس وحمايته له ، لكنه لم يكن مطمئناً إلى إخلاصه ، فقد اعتاد أن يعيش في جوّ من الدسائس والمؤامرات السياسية . بحث عن حليف آخر غير مؤنس ، فوجد رجلاً اسمه **ياقوت** وابنه **محمد بن ياقوت** . أحسّ مؤنس بهدف المقتدر ، فطالب بتنحية ياقوت وابنه محمد عن الوزارة . ثار الشغب على الوزيرين ، غير أن محمد بن ياقوت صمد أمام هذا الشغب ، وقضى عليه . إلا أن مؤنسا عاد فألحّ على

الخليفة بإخراجه ، وخرج بجيشه إلى الشامية^(١) مغضباً ، خشي الخليفة العاقبة ، وسرّح محمد بن ياقوت ، وأتى بوزير آخر هو الحسين بن القاسم ، فتألف هذا بعض رجال الجيش كفرقة المشاة ، وجمعهم حوله ، واستطاع أن يبعد مؤنسا .

خروج مؤنس إلى الموصل ونهاية المقتدر :

فرّ مؤنس ملتجئاً إلى الحمدانيين بالموصل ، فلم يلجئه الحمدانيون فقاتلهم وتغلب عليهم . أكسبته هذه الغلبة سلطاناً وشأناً فعاد إلى بغداد ، وهنا وجد الخليفة نفسه مضطراً للخروج لمحاربة مؤنس ، برز الخليفة بلباسه وعُدته الحربية يصل في الميدان صولة أو صولتين ثم قتل^(٢) . دخل مؤنس بغداد مظفراً .

يمكن تلخيص ما انتهى إليه الوضع على الصورة الآتية :

أولاً - إن مؤنسا^(٣) انتصر على الخليفة وفي يده السلطان ، لكنه تردد ، وكأنه لم يكن ذا شكيمة قوية ، وكأنه لم يكن يريد أن يعرض نفسه لإدارة الدولة ، وأن يلعب دوراً حاسماً حينذاك .

ثانياً - بمقتل الخليفة المقتدر زال أثر الحريم إلى غير رجعة ، فقد زال الرجل الذي كان يفتقر للحريم عندما كان طفلاً .

ثالثاً - هنالك خليفة عيّنه مؤنس وهو القاهر . هذا الخليفة يريد أن يعيد سلطان الخلافة ، فيعمل إذاً على تفريق الجماعة التي كانت تقود

(١) حي في بغداد - المنقح .

(٢) امتد حكم المقتدر بين (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) - المنقح .

(٣) اتخذ مؤنس لنفسه لقب أمير الأمراء سنة ٤١٧ هـ - المنقح .

الدولة . وهم مؤنس والوزراء وأرباب الجيش ، هذه الخطة أتبعها الخلفاء الذين أتوا بعد المقتدر .

رابعاً - إن الوزراء ما كانوا يريدون أن يزول سلطانهم ، فكانوا يلعبون دورين مختلفين ، مرة مع الخليفة ليحظوا بحبّه ، ومرة مع قواد الجيش ومؤنس ليقووا بهم . وهم على كل حال أصحاب قوة بما يملكون من إدارة الأموال ؛ إلا أن نجاحهم متوقف على إدارة الأموال ، أي على تأديتهم الرواتب للجيش .

خامساً - الأمر الأهم هو تسوية الحالة المالية وتقديم المال للجيش ، على هذا تقوم حوادث هذا الدور . لو استطاع الوزراء أو الخليفة أن يدبروا الأموال للجيش في العهد السابق وفي هذا العهد لامتنت كثير من الحوادث التي حصلت ؛ إلا أن تدبير ذلك المال كان عقدة العقد ؛ قصرت أمام حلّ هذه العقدة كل إرادة وكل قوة ، وتضارب الجيش مع الوزراء ، والوزراء مع الخليفة ، والخليفة مع مؤنس ؛ وانتهى الأمر بأن تضععت الأحوال ، حتى إذا انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه ، رأى الخليفة نفسه مضطراً إلى أن يلجأ إلى رجل يسلمه كل الأمر عسى أن يهيئ له مخرجاً مما هو فيه .

خلافة القاهرة (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ)

هذا هو تصوير الوضع ، أما الحوادث التي حدثت حول هذا الوضع ، وأعطته شكله الأخير ، فقد حدثت على الصورة الآتية : كان مؤنس بعد أن قتل المقتدر ، يريد أن يولي ابنه أحمد الخلافة لمقدرة أحمد هذا وكفايته وتقاه ؛ مع أننا لم نعرف شخصية مؤنس من خلال كتب التاريخ كما ينبغي ، يبدو لنا أنه كان ميالاً إلى الإصلاح وتسوية الأمور ؛ إلا أن

أصحابه خازراً من أثر الحریم فی الحكم ، فجعلوه يعدل عن أحمد ويكلف القاهر ، فولّى القاهر الخلافة . كان القاهر سيئ التدبير فی السياسة شحيحاً قاسياً عنيفاً . أول شيء علمه هو أنه قضى على سلطة الحریم وأحضر السيدة أم المقتدر ، وطالبها بالمال الكثير ، وعلقها من رجلها وعدّها أشد العذاب ، واستخرج منها مئة وثلاثين ألف دينار . دفع مؤنس الخليفة إلى أن يتخذ ابن مقلّة وزيراً له فولّاه الوزارة . مهمة الوزير في ذلك العصر - كما قلنا - هي أن يقدم الرواتب للجيش وأن يرضيه . عمل ابن مقلّة على إرضاء الجيش ما استطاع إليه سبيلا ، فانخذ وسيلة المصادرة للوصول إلى المال .

أما الخليفة فقد كانت له سياسته ، وهي أن يتخلّص من نفوذ مؤنس ، فقرّب إليه أصحاب الخليفة المقتول مثل محمد بن ياقوت وغيره ، وضرب الجيش بعضه ببعض ؛ وحاول أن يبعد ابن مقلّة ف شعر هذا بما يدور حوله ، فدبّر مؤامرة لخلع الخليفة القاهر وللبقاء في الوزارة . اكتشف القاهر تلك المؤامرة فهرب ابن مقلّة ، واستدعى الخليفة مؤنسا متذرعا بحجة استشارته ، وأخذ رأيّه ، ولما أتى إليه ، ألقى القبض عليه وقتله ؛ وبهذا أصبح سيّد الموقف . لم يقف ابن مقلّة ساكناً ، بل صار يحرض الجيش في الخفاء ، ويحرض الناس على الخليفة ، ويصفه بأنه فتح القصر سجنّاً للقواد ، وبأنه يسكر حتى يثّل . . وبأشياء كثيرة أخرى . ثار الناس على الخليفة ، فوجدوه سكران فقبضوا عليه ، وسملوا عينيه .

خلافة الرازي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ)

بويح أحمد بن المقتدر خليفة باسم الرازي ، وعيّن ابن مقلّة وزيراً ، إلا أن ابن مقلّة لم يفلح هذه المرة في سياسته المالية ، ولم يستطع أن يقدم

للجيش ما يجب من رواتب وعطاءات . ظهر رجل قد بلغ منزلة سامية وهو محمد بن رائق ، وكان في البصرة وواسط ، وصاحب الأمر عليها ، وفي يده بعض المال ، فضنَّ به على ابن مقله ليوقعه ، ويستولي على الوزارة دونه . سقط ابن مقله من قلة المال ، فاستوزر الخليفة الراضي من بعده وزراء كثيرين ، الواحد تلو الآخر : عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح أخا علي بن عيسى المشهور ، ثم محمد بن القاسم الكرخي ، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد^(١) ، لكنهم جميعاً لم يستطيعوا أن يحلّوا الأزمة المالية وأن يقدموا المطلوب من المال .

محمد بن رائق أمير الأمراء :

خاف الخليفة الراضي على نفسه من الجيش ، ولم يجد وزيراً يستطيع أن يسوّي الحالة المالية ، وفكر كثيراً . . . فوجد أن الاضطراب واقع من تزواج السلطان بين الوزراء وبين الجيش ، ثم رأى نفسه مضطراً إلى أن يقبل ما عرضه عليه محمد بن رائق : أي أن يسوّي كل شيء إذا منحه سلطة واسعة (الجيش وإمرته ، والضرائب وتجميعها ، والإدارة وتسييرها) بذلك فقط . يستطيع أن يحلّ المشاكل وأن يضمن تسيير الأمور . لجأ الخليفة إلى هذا الحل اضطراراً ، فسلم ابن رائق جميع السلطات ، ولقبه بأمرير الأمراء ، ونقش اسمه على السكة معه ، وذكر اسمه مع الخليفة في خطبة الجمعة : أي أنه أصبح صاحب السلطان بكامله ، وليس للخليفة من شيء ، إلا أنه هو الذي أعطاه السلطان .

اضطراب الدولة في الفترة ٣٢٤ - ٣٣٤ هـ

انتهى الخلاف إذأ بين الجيش والوزراء والقواد والخليفة ، حين عجز

(١) كان وزيراً في عهد المقتدر سنة ٣١٨ هـ - المنقح .

الجميع عن تسوية الحال ، فاضطروا إلى أن يلجؤوا جميعاً ، إلى حاكم فرد يقوم بالأمر . هذا الحاكم لم يستطع أن يحلّ المشاكل والأزمة المالية ، لاسيّما وقد خلقت أمامه مشاكل أخرى ، أتت هذه المشاكل من طامعين جُدُد ؛ فقد كان الحُمْدانيون في الموصل يتوقون إلى السلطة في دار الخلافة ، وكان الثوار يهاجمون دار الخلافة من حين لآخر ، فعجز ابن رائق ومن تبعه عن صدّهم في عهد الخليفة الراضي .

ما كان يهّم الخلفاء^(١) من يتسلّم إمارة الأمراء^(٢) ، فلم يبق له من الأمر إلا سلطانه الروحي . عندما تقدم أحمد بن بويه ليدخل بغداد ، وكتبَ المستكفي بذلك في السّر ، فقبِل منه ، لينتهي من أولئك الطامعين الذين لا يقدرّون على شيء . دخل جيش الديلم إلى بغداد ، برئاسة البويهيين ، فاستولوا على مركز أمير الأمراء ، ووضعوا الخليفة تحت وصايتهم ؛ واستولوا على كل شيء في العراق ، اللهم إلا السلطة الروحية التي كان يتمتع بها الخليفة بحكم منصبه .

تقدّم الحضارة العربية الإسلامية

شهد القرن الرابع والقرن الخامس نهضة في أرجاء العالم الإسلامي ، ارتفعت إلى الذروة ، وهي نهضة فكرية وأدبية وفنية ، أعطت الحضارة الإسلامية العربية نضجاً ورفعة وأصالة .

(١) الخلفاء في هذه الفترة : الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) ، المتقي (٣٢٩ - ٣٣٢ هـ) ، المستكفي (٣٣٢ -

٣٣٤ هـ) - المنقح .

(٢) تسلّم إمارة الأمراء بعد محمد بن رائق : بجك الرائي ٣٢٦ هـ ، ثم عاد محمد بن رائق للمرة الثانية ٣٢٩ هـ ، ثم استولى عليها حسن بن حمدان ٣٣٠ هـ ، ثم توزون ٣٣١ هـ ، ثم محمد بن يحيى بن شيرازد ٣٣٤ هـ ، وكانوا كلهم ضعافاً حتى آل الأمر إلى البويهيين - المنقح .

هذه النهضة الحضارية يقابلها من حوادث السياسة ظهور دول تقاسمت ممتلكات الخلافة العباسية وهي : دول بني بويه وبني حَمْدَان والفاطميين . وسنعرض أولاً تشكّل هذه الدول والدور السياسي الذي لعبته ، ثم نستعرض النهضة التي اتسم بها هذا العصر .

نظرة إلى خريطة الدولة العباسية في أوائل القرن الرابع تشير إلى أربع مناطق حريّة بأن تلعب دورها في هذه النهضة وهي : بلاد إيران ، العراق ، الشام ، مصر . وقد لعبت كل منها دورها ، غير أن العراق انضوى تحت لواء إيران ، وانفصلت الشام إلى قسمين . قسم مستقل في الشمال وقسم في الجنوب التحق بمصر ، ولعب كل قسم دوره في نطاقه الخاص .

ينبغي ألا يؤخذ بعنوان هذا الفصل (تقدم الحضارة العربية الإسلامية) فنظن أن السياسة سارت جنباً إلى جنب مع رقي الحضارة . لا ، فالعصر مضطرب في شؤونه السياسية ولعله مضطرب في شؤونه العمرانية ، ولا سيما في العراق . غير أن النهضة العامة للعصر هي نهضة في الحضارة بلغت الأوج ، والحضارة الإسلامية العربية بعد هذا العصر تأخذ في التقهقر شيئاً فشيئاً .

حريّ بنا أن نلفت النظر الآن إلى أن هذه النهضة لم تكن وليدة الحضارة العربية الإسلامية ، تأخذ من منابعها فحسب ، بل نهلت من كل حضارة سابقة ، ثم قامت على سواعد عباقرة ، بذلوا من نفوسهم وعقولهم وأعمالهم ، فوثبوا وثبة خلدها لهم التاريخ .



حكم بني بويه في العراق

(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)

الحركات الاستقلالية في إيران :

تقدم معنا وصف الحركات الاستقلالية التي تمت في خراسان وفي سجستان ، وفي جرجان والديلم ، وذكرنا أن الموفق - ولم يكن خليفة - استطاع أن يسوي هذه الحركات الانفصالية ، وأن يوقفها عند حد ، لكن الخلفاء الذين أتوا بعد ذلك لم يستطيعوا القضاء على الفكرة الانفصالية التي استقرت في أذهان الشعوب ، يشجعها عجز الخلفاء عن تسيير الأمور في العراق ، بل بلغ هذا الاتجاه حداً وصل به إلى الاستقلال النهائي عن الخلافة .

بلاد الديلم :

نرى بوادر ذلك في بلاد الديلم (طبرستان) ، وبلاد الديلم ، تقع في جنوبي بحر الخزر ، وهي منطقة جبلية يسكنها أقوام يسمون بالديلمية ، لغتهم هي اللغة الفارسية ، وثقافتهم - إن كان لهم ثقافة - هي الثقافة الفارسية ، إلا أن أصلهم - على ما يقول المؤرخون - ليس إيرانياً ، ولعلمهم مزيج من الإيرانيين والأتراك والشعوب الأخرى . هذا المزيج شعب صلب قوي ، شديد المراس ، معتاد على الحرب والقتال ، شجاع غاية الشجاعة . أما دينهم فهو الوثنية حتى في عهد العباسيين ، وكانت دارهم تعتبر دار

حرب ، وكان العباسيون^(١) يرسلون الجيش للجهاد في هذه المنطقة . استطاع الزيديون من آل علي أن يستلوا الديالة إلى الإسلام ، وعاملوهم معاملة حسنة ، ونشروا فيهم المذهب الزيدي ، فأقبل الديالة على التشيع وتركوا الوثنية .

نشوء الدولة الزيارية :

ظهر من الديالة مرداويج بن زيار ، فأسس سنة ٣١٥ هـ الدولة الزيارية التي حلت محل الدولة الزيدية ، وكان مع مرداويج بعض بني بويه فولاهم بعض المناطق التابعة له . وكان منهم علي بن بويه حصل على إدارة الكرج ، وكان صاحب طموح ، فلم يقتصر على هذه الولاية ، بل مدّ سلطانه إلى أصفهان ، ومدّ أخواه الحسن وأحمد سلطانهما إلى كرمان والري والأهواز ، وخاف مرداويج من هؤلاء الإخوة الذين أظهروا له الطاعة ، واختفوا وراء سلطانه حيناً من الزمن ، غير أن الأتراك في جيشه قتلوه سنة ٣٢٣ هـ ، وأعطوا الحكم إلى أخيه .

ظهور بني بويه :

استفاد بنو بويه من هذه الفرصة السانحة ، فدّوا أيديهم هنا وهناك واستولوا على فارس والجلال وهمدان ، وشكّلوا دولة بني بويه .

بنو بويه يدخلون بغداد :

كان قد وصل إلى الخلافة المستكفي ، فكتبه - كما ذكرنا - أحمد بن

(١) في عهد الرشيد قويت الاتصالات مع طبرستان حتى إن الرشيد عين ولاية متعددة ، ضربوا نقوداً عربية ساسانية ، ووضعوا أسماءهم عليها باللغة العربية ، وقليل منهم وضعوا أسماءهم بالفارسية (وهي الكتابة الفارسية القديمة) - المنقح .

بويه^(١) ففتح له أبواب بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، ودخل ابن بويه إلى بغداد ، فلقبه المستكفي (معز الدولة) ومنح أخاه علياً لقب عماد الدولة ، وأخاه الحسن لقب ركن الدولة .

دولة بني بويه :

انتقل الأمر إذاً إلى بني بويه ، وادّعى هؤلاء أنهم من نسل بهرام جور ، أحد الملوك الساسانيين ؛ وأرادوا أن يعيدوا حكم بني ساسان ، مع أن دعواهم بأنهم ساسانيون غير صحيحة ، وأنهم ليسوا من تلك السلالة ؛ ويقول بعض المؤرخين إن أصلهم ليس إيرانيّاً ، ومهما يكن من أمر ، فهم يتكلمون لغة إيرانية فارسية ، وهم يمثلون دولة الديلم ، وهي دولة ذات ثقافة إيرانية ومجد إيراني .

البويهيون والخلافة :

وهكذا نصب بنو بويه أنفسهم خلفاء للساسانيين ، وهم من مذهب شيعي زيدي ، وكان حريّاً بهم أن يأتوا بخليفة من الشيعة الزيدية ، لكنهم رضوا بالخلافة العباسية ، فما هو السبب في ذلك ؟ - موقفهم يظهر في هذا متناقضاً .

إنهم كانوا بعيدي النظر ، ويذكر لنا المؤرخون أن أحمد بن بويه استشار أصحابه في تنصيب خليفة من آل علي ، فأشار عليه أصحابه بأن يتجنّب ذلك ، وقالوا : « إنك لو أتيت بواحد منهم لكنت خادماً له ، ولكن هو صاحب الأمر من دونك ، فالديلم شيعته ، وإذا أمرهم بقتلك قتلوك ، وكنت بين يديه كالحاتم ، أما إذا تركت الخليفة العباسي ، فقد

(١) وكان مسيطراً على ولاية فارس والأهواز جنوباً - المنتج .

ضمنت لنفسك رجلاً تسيره كما تشاء ، تخلعه حين تريد ، وتحضر غيره متى شئت ، فالديالة جندك وأصحابك ، لا يدينون له بالطاعة باسم المذهب وباسم البيعة التي له في أعناقكم » . وعلى هذا النحو ابتعد أحمد بن بويه عن تنصيب خليفة من آل علي .

إبقاء الخلافة في العباسيين

هذا ما يذكره المؤرخون ، والحجة التي قدمها أصحاب أحمد صريحة ، واضحة ، لكننا ينبغي علينا أن نزيد عليها شيئاً آخر : وهو أن أهل العراق كانوا قد قبلوا بالخلافة العباسية ، واعتادوا عليها ، وأصبحت قطعة من حياتهم ، ولللخلفاء العباسيين قوة بالسنية المنتشرة في العراق . إن رُفِعَ هذا المنصب من السنية وتُنْصَب خليفة شيعي ، لا يمكن أن يلقي رضاء العراقيين ، بل لعله كان يسيء إلى حكم بني بويه كل الإساءة ، فثورات الشعب ستقوم ، لذا لجأ ابن بويه إلى ما فيه عافيته وفيه مصلحته ، فأقرّ الحكم العباسي .

هذا ويجب التنبيه إلى أمر له أهميته ، ولو أن المؤرخين لم يسيروا إليه ، وهو أن الشيعة في العراق الذين قد يسعى بنو بويه إلى إرضائهم ، كانوا شيعة إمامية لا زيدية ؛ وهذا يعني أن بني بويه لا يكسبون مكسباً كبيراً إذا أتوا بإمام زيدي ، إذ يكاد أن يكون الأمر واحداً عند شيعة العراق عندما يكون الخليفة عباسياً أو زيدياً .

صفة الحكم عند بني بويه :

ما هي صفة حكم بني بويه ؟ وكيف تكونت هذه الصفة ؟ وما هي العوامل التي أحاطت بها ؟ إن صفة هذا الحكم أتت من وضع الدولة البويهية نفسها ومن وضع العراق معها فما هو ذلك الوضع ؟

أولاً : إن الدولة البويهية اجتاحت الحكم العباسي ، فوقع عليها عبء الدولة الإسلامية ، وكان الحمل ثقيلاً عليها ، لأن الدولة العباسية دولة واسعة كبيرة الرقعة ، عظيمة الأهمية .

ثانياً : إن هذا الاجتياح من الدولة البويهية للعراق لم يسبقه نوع من التمرن على الحكم وممارسته في دولة واسعة كالدولة العباسية . ففي سنة (٣٢٠) هـ عيّن علي بن بويه عاملاً على الكرج من قبل مرداويج الزياري ، وفي سنة ٣٣٤ هـ أصبح أخوه أحمد الحاكم بأمره في العراق والدولة العباسية ، وليس بين التاريخين زمن كبير للتدرّب والممارسة .

ثالثاً : لم يكن في بني بويه رأس متنفّذ واحد يقود الدولة جميعاً ، بل كانوا ثلاثة إخوة ، لكل منهم شطر من المملكة ، فعاصمة أحدهم شيراز ، والآخر بغداد ، والثالث الريّ . وقد كانوا أول الأمر متفاهمين فيما بينهم ، إلا أن ذريتهم اختلفت وتقاتلت كما سنرى .

رابعاً : إن الجيش الذي يعتمدون عليه ليس مؤلفاً من عصبية واحدة يستندون إليها ، بل هو مكوّن من طائفتين ، المشاة الديلمية ، وهم مجهّزون باللباس الحسن والدروع الباهية ، والفرسان الأتراك ومنظرهم على خيولهم جميل بأسلحتهم وسروجهم . الفريقان مختلفان في الطبع ومختلفان في الرأي .

خامساً : إن هذين الفريقين مختلفان أيضاً في المذهب ، فالديلمية زيديون والأتراك سنيّون ، ولهذا الاختلاف أثره الكبير .

سادساً : إن ماورثه البويهيون في العراق كان تراثاً صعباً جداً ، رأينا مراحل الاضطراب فيه ، فالمال والحكم والأنظمة قد آلت إلى درجة مضطربة

مشتبكة ، وأصبحت الدولة متناهية في الضعف . فلم يجد البويهيون إذاً أنظمة صالحة ولا وزارة منظمة ولا عهداً متسقاً . أما هم فليس لديهم الخبرة السابقة في تنظيم الدولة ، فاضطرب الحال .



إن ما ذكرناه يدلّ على أن عناصر الإخفاق كثيرة أمام هذه الدولة ، فهل استطاع البويهيون أن يتغلبوا على المصاعب ، وأن يكونوا لأنفسهم حكماً مستتراً صالحاً ؟ - إن ما فعلوه لا يدلّ على ذلك ، بالرغم من أن أحدهم عضد الدولة حاول الكثير في هذا الشأن .

لننظر إذاً كيف سارت شؤون الدولة ، وما هي أوضاع الخليفة والجيش وأجهزة الدولة :

١ - وضع الخلفاء :

إن البويهيين بعدما أقروا العباسيين في الخلافة جرّدهم من كل سلطان ، فقد منعوا عن الخليفة وارده ، واستلموه لأنفسهم ، وخصّصوا له وارداً محدداً ، مقداره خمسة آلاف درهم في اليوم . كان ذلك في عهد المستكفي ، ثم أنقصوا المرتّب فخصّصوا ألفي درهم للطبيع كل يوم ، وبعد المطيع جعلوا المبلغ سنوياً دفعة واحدة ، وهو مائتا ألف دينار ، ولكن مع ذلك إذا كانوا بحاجة إلى المال ، يطلبونه من الخليفة ويحصلون عليه : طلب بختيار من الخليفة مالاً للجهاد ، فباع هذا جواهره لتأدية ذلك المال .

كان الخليفة لا يستطيع أن يعيّن كتابه ووزراءه ، وإنّا كان يعينهم

الملك البويهى بنفسه . كان الملك البويهى يقرن اسمه على السكة (النقود) باسم الخليفة ، ويضع على السكة ألقابه وكنيته كما يضع الخليفة لقبه وكنيته ، بل كان لا يترك الملك البويهى للخليفة أن يميّز عنه بشيء . كان من أعراف الخلافة أن يقرع الطبل للخليفة خمس مرات في اليوم ، مرة قبل كل صلاة . قلّد البويهيون الخليفة ، وقرعوا الطبل لأنفسهم ثلاث مرات في اليوم أولاً ، ثم جعلوها خمساً كاملة بعد ذلك .

لم يبق للخليفة من شيء إلا المظهر الخارجي ، فهو الذي يقلد الملك البويهى سلطانه ويعطيه العهد ، لكنه ليس هو الذي يحرر العهد ويضع شكله ، بل يكتبه البويهى ويوقعه الخليفة . يمنح الخليفة الملك البويهى الألقاب ، لكن الذي يضع الألقاب هو هذا الملك بالذات ، وإذا لم يوافق الخليفة على ألقابه ، استعملها دون أمر الخليفة . وكان كل ما على الملك البويهى أن يفعله نحو الخليفة هو أن يتظاهر باحترامه له . كان هذا لا بدّ منه أمام الشعب الذي اعتاد على احترام الخلافة العباسية . أراد البويهيون أن يسايروا الشعب فاحترموا الخليفة ظاهرياً ، واستمرت الرسوم التقليدية قائمة في الولاية والعهد ، وظلّ البويهى يسجد أمام الخليفة مرات ، وقد يبالغ في ذلك ؛ الأمر الذي يدعو إلى سخرية من يعرفون الحقائق .

أما إذا أرادوا أن يزيحوا خليفة عن عرشه فهم يأمرّون ديالمتهم أن يأخذوه من يده ويسحبوه - كما فعلوا مع المستكفي .

تركوا للخليفة شيئاً ما كان باستطاعتهم أن ينالوه من الخليفة ، ذلك هو الخطط الدينية : فالخليفة هو الذي كان يعيّن القضاة والمفتين ، وهو الذي يعيّن الأئمة والخطباء ، ولا ريب أنه ما كان لملك شيعي أن يتدخل في شأن هؤلاء باعتبار أن أكثرهم من أهل السنة ، حتى لو أنه أراد أن

يتدخل يخالفه الخليفة ولا يرضى بما قام به . إذا أراد الملك أن يصرّ ، عندئذ يثور عليه الناس ، ويتخرج الموقف .

٢ - وضع الجيش :

من عوامل الاضطراب في الحكم البويهى وجود جيش مؤلف من الديلم والأتراك ، تميل الكفة يوماً إلى هؤلاء ، ويوماً آخر إلى هؤلاء ، فيختلف الطرفان ويتشاحنان ، وتقوم الوقعة بينهما ، فيضطرب الحال أكثر مما كان عليه ، قرب معز الدولة الأتراك أولاً ، ولعله فعل ذلك إرضاءً للسنين في بغداد ، فالأتراك سنيون مثلهم ؛ ولعله فعل ذلك أيضاً لأن الأتراك مطيعون أكثر من الديلم ، فالديلمة شديدون ، جفاة ، لم يعتادوا على الطاعة ؛ أما الأتراك فإنّ من يحكمهم في أول الأمر يلتقى منهم طاعة واستكانة . غضب الديلمة لأن الملك أبعدهم عنه ، ولأنه أغدق على أتراكه قطائع وأموالاً ، فثار روزبهان الديلمي في الأهواز ، ومال الديلمة عن معز الدولة إلى روزبهان . ولما قضى معز الدولة على ثورته ، زادت الوحشة بينه وبين الديلم ، فأبعدهم عنه أكثر فأكثر . ثم أتى بختيار بن معز الدولة فوجد الأتراك على ثراء فاحش يتسلطون على إقطاعات كبيرة . وكان بختيار في حاجة إلى الأموال ، فوضع يده على أموال رئيسهم سبكتكين ، وقرب إليه الديلم ليأمن جانب الأتراك ، فوقعت الوقعة بينه وبينهم على ما رأينا ، حتى أسعفه عضد الدولة فأقرّ أمره .

٣ - القطاعات وتنظيم الدولة :

إن دولة بني بويه لم يكن لها مران في أمور الحكم كما ينبغي لها أن تكون ، وقد ذكرنا أنها لم تمارس الحكم كدولة كبيرة ، بل مارسته في حكومة صغيرة ، وفي بقعة محدودة ، ها هي ذي قد ورثت الحكم العباسي ،

ذلك الحكم الثقيل الواسع الذي ترك تراثاً ضخماً تنوء بحمله أحسن الدول تنظيمًا . أخفقت دولة بني بويه بصفة خاصة في الشؤون المالية ، وكانت تلك الشؤون أثقل حمل ورثته دولة بني بويه عن العباسيين . وقد رأينا أن الإفلاس كان يهدد الدولة العباسية من حين إلى آخر ، وأن الخزينة كانت تفرغ من المال ، فلا يجد الخلفاء وسيلة إلى تأدية رواتب الجند ، هذا الأمر هو الذي واجه دولة بني بويه ، فرزحت تحته وناءت به . هذا وإن دولة بني بويه ورثت نظام الإقطاع عن العباسيين ، وورثت عنهم فكرة تقوية الجند بالإقطاع والمال ، فكان على البويهيين أن يرضوا جندهم من الديلم والترك ، وكيف يرضون هذا الجند ؟ أطلق معز الدولة لهم أراضي الدولة في العراق وكأنها أراضيها بالذات ، أعطاهم تلك الأراضي يتصرفون بها كما يشاؤون . أراد بعض الأفراد من أصحاب الممتلكات أن يقووا بقوة الجند ليتخلصوا من الضرائب ، فلجؤوا إلى الديالة والأتراك يحتون بهم ، وانتهى الأمر بهؤلاء إلى أن وضعوا أيديهم على الممتلكات ، وأسلموها إلى غيرهم .

أما تنظيم الضرائب فقد كان تنظيمًا لا يمكن أن يعطي الدولة دخلًا كافيًا : فالجندي الذي امتلك الأرض ، كان يقدم الضمان الذي تعهد به للدولة إذا كان إنتاج الأرض كبيراً ، أو كانت صالحة للزراعة والإنتاج ، أما إذا كانت الأرض ضعيفة بعض الضعف ، فقد كان يردّها إلى بيت المال ، ويطلب استبدال أرض أخرى بها بعد أن زاد في ضعفها وخرابها . على هذا كانت القطاعات تنتقل بين الأيدي ، ولا تقف في يد إلا إذا كانت تؤتي الكثير دون جهد كبير . هذا وقد أصبح الجندي مشغولاً في زرع الأرض ، ولكن مع ذلك فإنه لا يستطيع الاهتمام بها . وعلى هذا النحو ضعف محصول الأرض .

حدث ما يسمى بالخطايط ، وهي أن تنقص قيمة الضريبة على أرض يدعون أنها لم تؤت أكلها ، كان الملك البويهى يتساهل في هذا ، لأنه يميل إلى إرضاء جنده ، ثم لا يستطيع مراقبو الضرائب وموظفو الري أن يراقبوا الأعمال في الأراضي ، فهم يخشون من هؤلاء الجند الحشنيين ، فيستبدّ هؤلاء بالماء والأقنية والسدود ، ويستعملونها حسب رغباتهم ، دون عناية ، فتخرب ، ويتدنّى حال الزراعة في المنطقة ، ويزداد الطين بلّة ، حينما تنقص غلة الفلاح بازدياد الضرائب ، فهذه الضرائب إنما تقع على الفلاح وعلى أصحاب الممتلكات من غير ذوي النفوذ . النتيجة أن الفلاح يشكو ويئن من الظلم ، وليس من يرحم .

محاولة الإصلاح :

هذا هو الوضع في عهد معز الدولة ، ولقد أشار علي بن عيسى الجراح عليه بإصلاح الحال ، فسار مدة على ما أشار به عليه ، وهو سدّ البشوق ، يعني رمّ المجاري التي كانت معطلة وسدّ الثغرات التي تهرب الماء ، ففتحها وأصلحها وعمل سدوداً وطرقاً للري . قام معز الدولة بهذا الأمر ، لكن الحاجة إلى المال اضطرته إلى أن يترك هذا الإصلاح وإلى أن يعطي جنده بدلاً من الأموال قطائع ، فاضطرب الحال على ما ذكرنا سابقاً ، ثم جاء مجتئار بن معز الدولة بعده ، فبالغ في توزيع القطائع ، وطلب من الوزراء أن يقدموا الأموال ، ولما عجزوا عن ذلك ، صار يصادرم ، فساءت الحال أكثر من ذي قبل ، حتى إذا أقي عضد الدولة ، استطاع أن يفعل شيئاً عظيماً . تعرّض عضد الدولة للإصلاح بهمة عظيمة ، لم تأخذه في ذلك لومة لائم ، لم يهتم بالجند ولم يهتم بالوزراء . أقبل على الإصلاح بكل نفسه . كان الإصلاح خطوطه واضحة بيّنة . أولها - إصلاح وسائل الري ،

وثانيها - رفع الظلم عن الشعب ، وثالثها - العمران والبناء . وهذا ما عمد إليه عضد الدولة ، فقد فتح مجاري المياه في بغداد وكانت بمعظمها مسدودة ، وأقام المسنّيات (آلات لتوجيه الماء) ، وفتح أقنية جديدة ، فسال الماء يروي الأرض . لكي يمنع الناس من الاستبداد بالأقنية والمياه ، ووضع عليها الحراس ، بحيث لا يعتدي أحد على حق غيره ، ثم اهتّم بإقامة العدل بين الناس والفلاحين ، فأبطل الضرائب المزیدة على الفلاحين ، ورفع الظلامات ، وأجاب شكوى المشتكين ، ولم يراع بذلك الجند ، بل طلب منهم تأدية ما عليهم . ثم إنه نظر في حال المزارعين ، فوجد أنهم لا يستطيعون تأدية الضرائب في المواعيد المحددة ، لأن المحصول كان يأتي بعد تلك المواعيد ، فأخّرها إلى ميعاد ساء (النيروز العسدي) وهو يأتي في وقت يكون محصول الأرض فيه قد ظهر وبان .

أقام مع كل ذلك العارات ، واهتّم بما فيه فائدة الشعب وصحته ، فأقام في بغداد البیمارستان العسدي ، وأقام قصوراً له ، منها قصر في شیراز فيه ثلاثئة غرفة ، وهو قصر عظیم ، وفيه خزائن كتب هائلة مفتوحة للعلماء .

إن حكم عضد الدولة لم يستمر طويلاً ، وما أن توفي حتى عادت الفوضى ، وعاد الإقطاع ، ووجد الجند متنفساً بوفاته ، فعادوا إلى الجور وإلى الحصول على الأراضي ، واستفادوا من السدود التي أقيمت والقنوات التي فتحت ، فكسبوا المال لأنفسهم ، وعاد نفوذهم ، وعاد مع ذلك النفوذ ظلم الرعية ، وتدنّت الحالة الاقتصادية بعد ذلك ، حتى قال المقدسي حين زار بغداد أول عام ٣٧٥ هـ : « إنها تكاد تكون خراباً من الظلم فيها والاستبداد ، واهتمام القواد بالكسب ، والكتّاب بأخذ الأموال ، والشعب يئن وإذا كان الشعب غير مطمئن ، فلا مجال للعمران أو التقدم » .

٤ - وضع الشعب وظهور الفتوة :

في هذا الوضع السيئ ، كان الشعب في بغداد والعراق عامة يبحث عن الخلاص ، لكنه لا يجد سبيلاً إليه ، فالخليفة غير قادر ، والحكام أشداء ، والجند شرس ، حتى إذا اجتمع الشعب ضد الجند ، ووقع الخصام بين الطرفين ، تغلب الجند على الشعب ، وزاد في اضطهاده وظلمه . وقعت واقعة سنة ٤١٧ هـ ، تألم فيها الشعب ، لكنه باء بالخسران حينما حاول أن يقاوم الجند ، وبحث الشعب عن مخرج من هذا الأمر ، فلم يجد الأقوياء منه إلا أن ينتوا إلى حركة العياريين ، وهم فئة من الناس أصحاب حيلة ، وأصحاب فنّ ومقدرة ، يسعون عن طريق اللصوصية للوصول إلى المال ، لكنهم عبدوا هذا الطريق بشكل يجعلون منه نظاماً شريعاً . نظامهم أسى يشبه نظام الفتوة الذي امتدّ وقوي في عهد الخليفة الناصر ، والفتوة من المروءة كما تعلمون ، والعيارون أخذوا بمبدأ المروءة . فالعيار على حدّ تعبيرهم هو الفتي الذي لا يزي ولا يكذب ، ويحفظ الحريم ، ولا يهتك ستر امرأة ، وهو إن أحلّ السرقة فلا يسرق إلا المثرين ؛ وإذا قطع الطريق وعرض له رجل فقير ، فهو يتركه يسير بسلام ؛ وإذا قطع الطريق وعرض له رجل متوسط في الغنى لا يزيد ماله على الألف دينار ، قاسمه المال شطراً بشطر ؛ وإذا لجأ أحدهم إليه أجاره وحماه . فحركة العياريين حركة منصّبة على أولئك الأغنياء الذين أثروا ثراء فاحشاً عن طريق غير طريق الحق . أما الشعب الذي يئن من الظلم ومن الضعف ، فلا يتعرض له العيارون بل قد يساعدونه بالمال ، ولا تقتصر فئة العياريين على طبقة الشعب العادي ، بل دخل فيها من الأمراء العباسيين أنفسهم ، ومن الأشراف من آل علي ، فهي إذاً حركة اجتماعية أكثر منها

حركة قطع للطرق وسلب ونهب . اشتدت هذه الحركة اشتداداً كبيراً ، حتى أُمست بغداد في قبضة العيارين ، يحمونها ويجمعون الضرائب (الأتاوات) المفروضة على الحارات ومراكز اللهو ؛ يحمون هذه المراكز ، ويضعون عليها الضرائب . هذا هو البرجمي كبير العيارين يأخذ بيده السلطان في بغداد أربع سنوات (٤٢١ - ٤٢٥) فهو السيد ، وهو الذي يجمع في يديه الأمر . حركة العيارين منظمة ، فعندهم ترتيب في الترقية والألقاب ، من مقدم إلى قائد إلى أمير ، وعندهم طرائق خاصة في الدعوة .

٥ - ملوك بني بويه وحوادثهم الكبرى :

إن البويهيين اختلفوا فيما بينهم بعد قليل من حكمهم تلك المملكة الواسعة ، وقد ذكرنا أن لكل منهم عاصمة كان يقوم فيها ، واستمر هذا الأمر بين الأخوة الثلاثة ، إلا أن أحدهم وهو عماد الدولة ، توفي بعد أن أوصى بملكه لابن أخيه عضد الدولة بن ركن الدولة ، ثم لما توفي معز الدولة انتقل الأمر إلى بختيار ، لكن بختيار تعرض لصعوبات في عهده ، فقد كان سيئ الإدارة والفكر ، طمع في الأتراك ، وفي ثروتهم ، فوضع يده على قطائع سبكتكين ، فثار هذا عليه ، واستطاع أن يخرجته من بغداد ، فاستنجد بابن عمه عضد الدولة . سار هذا إلى بغداد ففتحها وأراد أن يستقل بالأمر دون بختيار ، لكن والده منعه من ذلك حفظاً للعهد إلى إخوته . لكن والده ركن الدولة توفي بعد ذلك ، فما إن توفي حتى سارع عضد الدولة إلى بغداد ، فأخذها من يد بختيار ، ثم إنه سلخ عن أخيه فخر الدولة وأخيه مؤيد الدولة أملاكها ، وجمع الدولة بكاملها في يديه .

وكان عضد الدولة خير ملك في بني بويه ، فقد أصلح الدولة ، وحسن أمورها وقيادتها ، وعظم سلطانه ؛ إلا أنه لم يستمر كثيراً في الحكم ؛ ترك

الأمر من بعده لابنه بهاء الدولة . استمر بهاء الدولة مدة طويلة في الحكم ، إلا أن حكمه كان مضطرباً ، وقد عاد فخر الدولة بعد وفاة عمّه ، فاستولى على ملكه الأصيل ، وانتقل هذا الملك إلى ابن له ، عمره تسع سنوات ، فقامت بالأمر وصاية عنه والدته السيدة وبعد وفاتها آل الأمر إلى ابنها هذا ، فاستنجد بالسلطان محمود الغزنوي ، فأجده ، لكنه استولى على ملكه . أما بهاء الدولة بن عضد الدولة فقد نقل حكمه إلى أبنائه فتنازعوا عليه ، إلى أن تقدّم طغرل بك السلجوقي واستولى على العراق سنة ٤٤٧ هـ ، فزال حكم بني بويه .

لعلنا صوّرنا عصر بني بويه مع شيء من المبالغة لتتضح الصورة . وعلينا أن نقول إن بلاد فارس كانت على حال أحسن من العراق ؛ ومهما يكن من أمر ، فوسائل الحضارة في العصر البوهمي لم تكن قليلة ، والنهضة التي أحدثها عضد الدولة - ولو أن مدة حكمه قصيرة - خلّفت أثراً كبيراً ، فنشط العلم ، ونشطت الفلسفة ، ونشط البحث الديني ، فازدهرت الحضارة إلا أن الأحوال الاقتصادية والسياسية والمالية السيئة كان لها بعض الأثر على نمو الحضارة وتقدّمها . ويمكن أن نقول إن هذه الحضارة قامت بتأثير أفكار عباقرة قدموا مجهودهم للمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، وكان للحكام أثر كبير في تشجيعهم ورعايتهم



الحمدانيون

٣١٧ - ٣٩٩ هـ

· زال حكم العصبية العربية بزوال بني أمية ، وأتى العباسيون بحكم لا عربي ولا فارسي هو حكم العباسيين خاصة دون عصبية إلا عصبيتهم^(١) ! إلا أن العرب في الشام ومصر ما زالوا يثورون ويضطربون ، ويريدون أن يعود الأمر إليهم ، فيقفون إلى جانب الخلفاء الذين يأخذون بالنزعة العربية ، كالأميين والمتوكل . أما بنو العباس ، فقد حاربوا كل الثورات ، ومنها ثورات العرب . ولنذكر أن جعفرأ البرمكي أخضع الفتنة التي حصلت في الشام ، وأن طاهر بن الحسين أخضع فتنات أخرى في الشام ومصر . لكن العرب ما فتئوا يبحثون عن متنفس لهم ، لا سيما أولئك الذين كانوا منهم في حال فقر شديد ، ووجد هؤلاء متنفسهم مع القرامطة ، فحاربوا إلى جانبهم ، إلا أنهم كسروا في حربهم هذه ، وقضي على حركة القرامطة في الشام ، كما قضي عليها في العراق . ولا يذّر القرن الرابع حتى تشيع يقظة عربية كبيرة في قبائل العرب ، ويحمل لواء هذه اليقظة بنو تغلب . وبنو تغلب رجال أشداء أقوياء كثيرو العدد ، ذوو أثر في العصر الجاهلي ، بل لقد قال عنهم التبريزي : « إنه لو لم يظهر الإسلام لكان بنو تغلب التهموا كل العرب » . وبنو تغلب ينتون إلى آل ربيعة ، وكانوا نصارى قبل الإسلام ، وبقوا على دينهم في أوائل الإسلام ، غير أننا نجدهم في أواخر القرن

(١) | كنا أشرفنا إلى هذه النقطة ، وذكرنا أن العباسيين ما أرادوا أن يستندوا إلى عصبية معينة ، واعتبروا الرعية كلها عصبيتهم ؛ إلا أنهم في الواقع كآسة كبيرة يشكّلون عصبية صغيرة ، ضعفت مع الأيام ؛ لذا تآرجح حكمهم بين أصحاب القوى - المنقح .

الثالث للهجرة مسلمين ، ونجد منهم الحسن بن عمر بن الخطاب ، وقد أسس الجزيرة المنسوبة إليه (جزيرة ابن عمر) في عام ٢٥٠ هـ ؛ على أن الحالة المادية كانت سيئة ، واضطر قسم كبير من بني تغلب إلى الهجرة فهاجروا إلى البحرين ، وبقي قسم منهم في الجزيرة وفي شمالي العراق . هذا القسم هو الذي قاد لواء اليقظة الفكرية والسياسية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، والذي ترأس هذه اليقظة هم بنو حَمْدان من تغلب ، وكان حَمْدان حليفاً لأحد الخوارج واسمه هارون ، ثم استولى حمدان على مدينة ماردين ، فذهب إليه الخليفة المعتضد ودخل بلده ، وكان حمدان قد هرب منها ، ووقف الحسين أحد أولاده إلى جانب الخليفة ، وحارب هارون الخارجي وأخضعه ، فاستسلم له ، فعفا الخليفة عن حمدان ووزع الأعمال عليه وعلى أولاده ، وأقام قسم من أولاد حمدان في بغداد ، فاشتركوا في الحوادث التي كانت تحدث فيها وانتوا إلى المؤامرة التي نصبت ابن المعتز خليفة ، فقهروا مع من قهر في هذه المؤامرة . ثم عفا عنهم المقتدر وعين أبا الهيثجاء بن حمدان على الموصل ، فبقي في الموصل ، وخلفه فيها ابنه الحسن واستولى على ديار بكر ومصر والجزيرة كلها ، ثم إن الخليفة المتقي هرب من البريدي وقد استولى على بغداد ، فالتجأ إلى الحسن هذا مع أمير الأمراء ابن رائق ، وأخذ مكانه في إمارة الأمراء ، ولقبه الخليفة (ناصر الدولة) ، ولقب أخاه علياً (سيف الدولة) ، وسار الحمدانيون بالخليفة إلى بغداد ، فاستولوا عليها من البريدي ، لكنهم لم يبقوا فيها أمداً طويلاً ، فإن توزون أخرجهم منها ، لكن الموصل والجزيرة بقيتا في أيديهم . ولما أتى البويهيون إلى العراق ناوشوهم ، فوجدوا أنهم غير قادرين عليهم ، فاستسلموا لهم ودخلوا في حكمهم ، وكانوا يؤدون لهم جزية سنوية وهم في الموصل .

سيف الدولة :

نبغ من الحمدانيين رجل عظيم هو سيف الدولة ، وكان صاحب فكر نير ، فوجد بعد البحث أن مقامه بالموصل والجزيرة غير مُجدي له ، ووجد أن الإخشيديين ، وكانوا مستولين على مصر والشام ضعفاء في الشام ، فاتجه إلى ناحية الضعف هذه ، واستطاع أن يستولي على حلب وذلك عام ٣٢٣ هـ ؛ فأرسل الإخشيد كافوراً ليحاربه ، فوقع القتال بينها ، لكن الإخشيد توفي في أثناء ذلك فعاد كافور إلى مصر ، وقصد سيف الدولة مصر ليحصل عليها ، إلا أن المصريين خرجوا إليه ، والتقوا به في الأردن ، فهزموه وعقد الصلح بين الطرفين على تراض ، وهو أن يأخذ سيف الدولة شمالي سورية ، والإخشيدون جنوبيها اعتباراً من دمشق . يذكر بهذه المناسبة أن سيف الدولة أراد عندما دخل دمشق أن يوزع الغوطة بين قواده ، فعرف ذلك أهل دمشق ، فوقفوا في سبيله وطلبوا النجدة من المصريين ، ولعلمهم كانوا سبباً في إلقاء دمشق من حكم الحمدانيين .

سورية مهددة من قبل الروم :

هذه هي الحوادث التي جرت في تأسيس دولة بني حمدان ، ونرى فيها أن الحمدانيين استطاعوا أن يَكُونُوا فرعين : فرعاً في الموصل وما يلحقها ، وفرعاً في حلب وشمالها وجنوبيها ، الفرع الأول خاضع لحكم بني بويه ، أما الثاني فمستقل له قوته وشأنه . هذا الفرع الثاني هو دولة الحمدانيين في حلب ، هو الذي لعب دوراً هاماً في تاريخ تلك الحقبة ، ذلك أن حلب كانت مهددة من جهة الروم ، فقد حدث أن ظهرت نهضة في بلاد الروم ، وتيقظ الشعب هناك ، وتشكلت دولة المقدونيين ، وهي دولة قوية ، سارت على خطأ الدولة اليونانية القديمة ، وأرادت أن تبعث مجدها ،

واستمدت هذه الدولة عناصر سلافية ، كانت قد نشأت في جهات الشمال منها ، وهي قبائل بربرية بالأصل ، إلا أنها أخذت في هذا العصر تتحضّر ولكن مع قوة سلاح ومراس في الحروب . مدّت الدولة المقدونية يدها إلى بلاد الإسلام ، وكأنها كانت تبغي أن تستولي على القدس .

وجد الحمدانيون في حلب أنفسهم أمام هذه الدولة ، وهي تريد التوسع في بلادهم ، تصدّى سيف الدولة لحرب الروم ، وحاربهم محاربة شديدة ، وكان كفؤاً لهم في حربه ، لكن أولاده غلبوا أمامهم . وإليك خلاصة ذلك فيما يلي : تقدم سيف الدولة في بلاد الروم سنة ٣٣٩ هـ ، ليقضي على طمعهم ، وليربهم قوته ، حتى بلغ قيسارية ووصل إلى أواسط آسيا الصغرى ، فاستولى منهم على غنائم كبيرة ، وأظهر هيئته فيهم ، لكنه فوجئ^(١) بهم وهو عائد إلى حلب ، فانقضوا عليه على حين غرة ، واستولوا على الغنائم التي كانت بين يديه ، واستطاع بشقّ الأنفس أن ينقذ نفسه وأتباعه ؛ ثم أدرك هو والروم أن أحد الطرفين لا يستطيع التغلب على الآخر ، فكوّنوا بينهم حدوداً محصّنة قوية ، ووزعت الجنود في هذه الحدود ، وأقطعت الأراضي على أولئك الجنود ، لكن الحرب كانت تحدث كل سنة تقريباً بين الطرفين .

كانت أهم الحروب وقعت بين المسلمين والروم بقيادة الدّمستق (دومستيك) هجم الروم على بلاد الشام ، وقد كوّنوا جيشاً كبيراً من الروس والبلغار والخزر ، فتصدى له سيف الدولة وهزمه في معركة كبيرة

(١) تكرر مثل هذه الحادثة سنة ٣٤٩ هـ ، وكانت الغزوات العربية قبلها من سنة ٣٣٩ - ٣٤٩ هـ أكثرها موفقة ، مع أن الروم كانوا يغيرون بين حين وآخر ثم ينسحبون ، وينتقم المسلمون منهم . إلا أن هذه النكسة التي وقعت في المسلمين سنة ٣٤٩ هـ لخالفه سيف الدولة رأي مستشاريه أطمعت الروم بالمسلمين ، حتى أنهم استولوا على عين زربة سنة ٣٥١ هـ وعلى خمسين حصناً ؛ ثم شنّوا بالأحرى المسلمين تشنّياً فظيماً - المنقح .

وأسر قسطنطين ابن الدمستق وأحضره إلى حلب ، فمات في حلب وأُخرج له جنازة كبيرة .

تهياً الروم خلال أمد طويل لحرب كبيرة في الشام ، فجمع **نقفور**^(١) ملكهم نَحْواً من مئتي ألف مقاتل ، وسار بهم إلى سيف الدولة وغافلته ، فوصل إلى أبواب حلب ، ولم يصد له سيف الدولة ، وأحاط نقفور بحلب ، ووقع الاختلاف بين أهلها والشرطة ، فاغتم نقفور هذا الاختلاف ، ودخل حلب فقتل فيها عشرة آلاف إنسان ، وخرّب قصر سيف الدولة المسمى **بالدارين** وهو خارج حلب .

استمرت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم ، تسع تارة ، وتهدأ تارة ، ويتغلب سيف الدولة مرة ، ويتغلب الروم مرة أخرى ؛ وسار سيف الدولة في هذه الحرب سيرته ، حتى إذا أصابه فالج لم يهتم به ، بل استمر على محاربة الروم . لم يمهل الزمن كثيراً ، بل توفاه الله بعد ذلك عام ٣٥٦ هـ ، فأوصى بأن يجمع الغبار الذي علق بدرعه وثيابه في أثناء حروبه مع الروم ، فيعمل من ذلك لبنة يوضع رأسه عليها في قبره حين يدفن ، ونفذت وصيته .

سيف الدولة يمثّل لنا إذاً بطلاً عريباً رهن نفسه وجسمه للجهاد ، يحارب الروم بقوة وعزم ، مع أن الروم كانوا أقوىاء في عصره غاية القوة ، ويمثّل لنا عهده أيضاً نهضة فكرية ، قلّ مثيلها ، شملت نواحي مختلفة من العلم والأدب والفن والعمران .

سيرة سيف الدولة مع **أبي الطيب المتنبّي** معروفة ، وكذلك مع **أبي**

(١) ابن الأثير ٨ / ١٧٨ يذكر أن مهاجم حلب هو الدمستق لا القيصر نفسه ، وكان ذلك سنة ٣٥١ هـ بعد فاجعة عين زربة ، وهو نقفور الثاني (الملقب بالقشاش) - المتفح .

فراس الحمداني ، تحدثنا كتب الأدب عن مجالسه التي كان يقع فيها المناظرات ، ولا سيما بين ابن خالويه اللغوي وأبي الطيب المتنبي . شجع سيف الدولة الكتاب والمؤلفين غاية التشجيع ، فأعطى أبا الفرج الأصبهاني ألف دينار لتأليفه كتاب الأغاني ، وأقام عنده الفسارابي فخصص له جراية معينة ، بل إن سيف الدولة كان طباخه شاعراً وهو كُشاجم ، وكان له خطيب مصقع هو ابن نُباتة ، وكان ابن نباتة يحرّض الجيش على قتال الروم بخطبه العظيمة . أصبحت حلب في عهد سيف الدولة مركزاً مهماً للثقافة والحضارة ، وبنى فيها سيف الدولة مقراً له أسماه الدارين ، وأقام في حلب داراً للعلم ، جمع فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وسبّلها للعلماء . فازدهرت حلب بالرغم من الحروب الكثيرة ، ومن النكبات التي كانت تأتيناها من تلك الحروب .

سعد الدولة وعلاقة الروم بالحمدانيين والفاطميين :

أما سعد الدولة ابنه فقد استولى على الحكم بعده ، وكان له قائد اسمه فرغويه ، فأخذ له البيعة في حلب ، واستقر فرغويه في حلب ، ثم لمع فيها ، وأراد أن يكون صاحب الأمر ، وما كان باستطاعته أن يحارب سعد الدولة ، وأن يقف أمامه دون عون ، فأرسل إلى الروم وطلب عونهم ، وصالحهم على جزية سنوية يؤديها لهم . ولما هجم سعد الدولة على حلب لاستخلاصها من بين يديه ، أتاه الروم ، ودفعوه عن حلب ، ثم إن سعد الدولة جمع أمره ، وقوى نفسه ، وهجم على حلب فاستولى عليها ، فسار إليه الروم ، ووجد أنه لا قبل له بهم ، فصالحهم على الجزية نفسها التي كان يؤديها فرغويه . ظهر في هذه الأثناء الفاطميون في مصر ، وامتدت يدهم إلى سورية ، ف وقعت الواقعة بينهم وبين الحمدانيين ، ووجد الروم مصالحتهم

إلى جانب الحمدانيين ، ذلك أنه كان أسهل عليهم أن تقوم دويلات من أن تأتي دولة كبرى كدولة الفاطميين ، فتقف إلى جوارهم ، ثم يضطرون إلى محاربتها . وهكذا ساعدوا الحمدانيين في حلب على الفاطميين ، وعقدوا معهم صلحاً حتى إذا سار الفاطميون إلى حلب ، استنجد الحمدانيون بالروم ، فسار إليهم بإسبيل الثاني بجيش قدره سبعة عشر ألف رجل ، فأجلى الفاطميين عن حلب ، ولم يدخلها ، وكان بإمكانه أن يستولي عليها ، وكان كل ذلك بحساب مقدر ، فلو أنه قضى على دولة الحمدانيين ، لواجه الفاطميين وجهاً لوجه ، والروم كانوا مشغولين بحروب واضطرابات في بلادهم .

سعيد الدولة ونهاية الدولة الحمدانية :

وأتى بعد سعد الدولة ابنه سعيد الدولة ، وكان إلى جانبه قائد اسمه لؤلؤ ، وهو والد زوجته . مد لؤلؤ يده إلى الحكم وسجن سعيد الدولة ، فدانت له حلب ، ثم تقدم نحو الفاطميين فطلب حمايتهم ، وبذلك انتهى حكم الحمدانيين في سورية ، ودخل الفاطميون حلب .

حكم الحمدانيون في حلب وفي الموصل حكم دولة عربية شيعية ، اعتمدت على قوة ساعدها وبنت أمرها على الحرب والجهاد ، وسارت سيرتها كالدول الشيعية الأخرى البويهية والفاطمية ، فاعتمدت على نوع من الدعوة ، واعتمدت بصفة خاصة على تشجيع العلم والثقافة وعلى العناية بالعمران . أخطأت في آخر عهدها فتحالفت مع الروم لتتقذ نفسها من الهلاك ، لكن وحدة مصر والشام كانت أقوى من أن توقفها المنافع المحلية ، فدالت دولتها .



الفاطميون

٢٩٧ - ٥٦٧ هـ

تشكل الدولة الفاطمية :

رأينا تشكل دولتين شيعيتين استقلتتا بالأمر وخضعتا للحكم العباسي عن طريق الاعتراف بالخلافة ، ولنر الآن سعي سلالة تدّعي النسب إلى فاطمة ابنة الرسول للحصول على الخلافة نفسها كاملة عامة موحدة . إنه سعي القائلين بالإمام السابع ، أي السبعية . وقد رأينا وضع هؤلاء حين البحث عن القرامطة ، وقد مرّ معنا كيف أن القرامطة درجوا على أسلوب خاص لهم في الدعاية ، وفي تكوين الدولة . كان رأس هذه الحركة ميمون القداح ، وهو الذي وضع حجر الأساس لحكم الباطنيين ، لكن غاية ميمون^(١) القداح ترمي إلى شيء آخر فهو إنما يريد الخلافة ، ولا يريد ثورة هنا وهناك وبطشاً وقتلاً ونهباً . وهكذا يمكن القول إنه يجب الفصل بين الفاطميين والقرامطة .

نسب الفاطميين :

تثار قضية في شأن ميمون القداح ، وهي أن أولاده الذين استولوا على الخلافة الفاطمية كانوا غير فاطميين ، مع أنهم كانوا يدّعون أنهم من سلالة فاطمة الزهراء . وقف المؤرخون في هذا الأمر موقفين مختلفين : فبعضهم يرى أن الفاطميين ليسوا من سلالة فاطمة ، وبعضهم الآخر يرى أنهم من

(١) ربما توضحت غاية الحركة في الوصول إلى الحكم في عهد ابنه عبد الله - المنقح .

تلك السلالة ، ويقدم كل من الطرفين حججه ودلائله . الدلائل تميل إلى جانب من ينكرون صحة نسب السلالة : فآل علي أنفسهم كانوا يرفضون الاعتراف بصحة سلالة الفاطميين ، والقرامطة أنفسهم وقفوا موقفاً مماثلاً في هذا الأمر ، وهم سبعة كالفاطميين . ومهما يكن من أمر فإننا مبالون مع معظم المؤرخين إلى أن الفاطميين ليسوا من سلالة علوية ، على أن هذا الأمر من الناحية التاريخية لا يقف سداً يحول بين الفاطميين وبين الحصول على الخلافة ، فوسائل التويه في الأمر كثيرة ، والمهم الوصول إلى الحكم ، وقد تيسر لمن سَمَوُا بالفاطميين الوصول إلى الحكم .

أسلوب الفاطميين في الدعوة :

تيسر لهم بلوغ الحكم والخلافة بأسلوب أرى أنه يشابه أسلوب العباسيين ، وأرى أننا إذا اتبعنا عرضاً يشابه عرضاً لوصول العباسيين إلى الحكم عن طريق الدعوة ، فهمنا تطور تاريخ الفاطميين الأول . هذا رجل ولنسبه ميمون القداح ، وكان يسمي نفسه أو سمي بعد ذلك بمحمد الطيب ، يختار السمية^(١) (قرية تقع شرقي حماء) مركزاً للدعوة إلى المهدي المنتظر من أبناء محمد بن إسماعيل ، ويوجه الدعاة إلى أقطار العالم الإسلامي ، وهو في نظر دعائه رئيس الدعوة لهذا المهدي المنتظر ، كما كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يرأس الدعوة من الحمية إلى أقطار العالم الإسلامي . إن الدعوة القداحية لا تسمي الخليفة ، وكل ما في الأمر أن رئيسها عارف كيف يوجهها ، وعارف بالأماكن التي يمكن أن تنشر فيها دعوته ، وعارف بالأشخاص الذين يتقبلون هذه الدعوة ويؤدون إليه خمس أموالهم . وتضي الأيام فتنتشر الدعوة على شكل قرمطي في العراق ثم تمتد

(١) |عبد الله بن ميمون القداح هو الذي اتخذ سلْمِيَّةَ مركزاً له - المنقح .

إلى بلاد الشام ، فيجد ابن^(١) ميون القداح وهو عبيد الله ، أن الدعوة اتجهت اتجاه الثورة والقتال والاضطراب ، وأنها أخفقت في العراق ، وهي الآن في سورية تسعى سعيها ، ولكنها لا تمشي باضطراب .

نقل الدعوة إلى المغرب :

ويلوح له في الجو بسمه أمل تعطيه صورة تشابه الصورة التي حصلت للعباسيين فهذا أبو عبد الله الشيعي أحد دعائه يسير إلى مكة ، فيجتمتع ببعض أفراد قبيلة كتامة من البربر ، فيجد عندهم استعداداً كبيراً لتقبل دعوة الفاطميين ، فيذهب معهم في المغرب^(٢) ويثبت دعوته بينهم . وهكذا وجد عبيد الله طريقتين في العمل : إحداها أن يتحالف مع القرامطة ، وأن يثور بثورتهم ، والأخرى هي أن يلتحق بالمغرب ، فينشر دعوته هناك ، ثم يسعى سعيه منه في الانقضاض على الخلافة العباسية . أيّ الأمرين أجدى له ؟ لا ريب أن وجوده في سورية يعرضه للمخاطر ، أما في المغرب فسيكون بين قبيلة بربرية قوية شديدة المراس . إن الجوّ ممدّ في المغرب ، فقد أسس الأدارسة دولتهم هناك على أسس شيعية ، فتعرّف السكان على الشيعة ، فلا يتمتعون إن صدرت دعوة شيعية بينهم . إن القرامطة يعرفون أصل عبيد الله حق المعرفة ، ولعل بادرة ظهرت منهم نحوه في أنّه ، وإن كان رئيسهم ، إلا أنّه يدعو للمهدي المنتظر ، وهو ليس

(١) ليس القصد هنا بأنه ابن ميون بالذات ، لأن المعروف أن عبيد الله هو ابن الحسين بن عبد الله بن ميون القداح ؛ لكن النسب الذي ادعاه عبيد الله المهدي هو عبيد الله بن عبد الله بن الحسين التقي ابن أحمد الوفي ابن عبد الله الرضا ابن محمد المكتوم ابن إسماعيل - المنقح عن زبأور . أما فيليب حتى فهو يلقب عمداً (التام) - المنقح .

(٢) قبل أن يذهب الشيعي إلى مكة ويتعرف بالكتاميين اتصل بابن حوشب الذي كان ينشر الدعوة في بعض بلاد الين وساعده - المنقح .

ذلك المهدي كما يعرفون . أما في المغرب فليس يعرفه إنسان ، اللهم إلا داعيته أبو عبد الله الشيعي ، وهو يأمن جانبه وعلى ذلك فقد كان الخيار واضحاً أمامه ، ولما قدم عليه زكرويه وابنه يطلبان منه تفاهماً معها في شأن الثورة بالشام ، لم يأبه لها ، وسافر بعد ذلك إلى مصر ، ومن مصر إلى القيروان ، لكنه حدث له في سجنه ما حدث لإبراهيم بن محمد بن علي قبله ، فقد ألقي القبض عليه ، غير أن الأمور كانت تسير في مصلحته ، فأبو عبد الله الشيعي استطاع أن يضرب الأغلبية أصحاب تونس ، وأن يستولي على القيروان وعلى ملكهم جميعاً ، وبذلك أنقذ عبيد الله وأخرجه من سجن صاحب سجلماسة واستقدمه إلى القيروان فدخلها منتصراً سنة ٢٩٧ هـ .

تأسيس الدولة الفاطمية :

وهكذا وجد عبيد الله نفسه وهو على رأس جيش وحكومة ، قائد هذا الجيش أبو عبد الله الشيعي ، وهو رئيس الدولة ، فدعا نفسه المهدي ، واتخذ لقب أمير المؤمنين ، وعدّ ذاته خليفة ، ثم اتخذ سبيل العباسيين أيضاً ، فعمر مدينة لنفسه ولجيشه سماها المهديّة ، وذلك سنة ٣٠٨ هـ ، وهو في هذا يفعل ما فعل أبو جعفر المنصور حين عمر بغداد .

ويقتضي بنا الأمر أن نذكر أنّ هناك تشابهاً واضحاً في ثورة العباسيين على الحكم الأموي ، وثورة الفاطميين على الحكم العباسي ، والأسلوب يظهر تقريباً واحداً ، بل الحوادث متشابهة أيضاً في العلاقة بين أبي عبد الله الشيعي قائد الفاطميين وبين المهدي عبيد الله أمير المؤمنين للفاطميين ، فأبو عبد الله الشيعي يريد أن يكون له شيء من الأمر والشأن ، وهو الذي فتح المغرب للفاطميين ، والمهدي عبيد الله يريد أن يكون له كل الأمر ، ويثور عليه أبو عبد الله فتخفق ثورته ، ويقتله المهدي كما قتل أبو جعفر المنصور قبل ذلك أبا مسلم الخراساني .

التوسع نحو الغرب وضمّ مراكش :

وكان أمام الفاطميين بعد هذا أن يسوّوا الأمر في المغرب ، وأن يبسطوا سلطانهم فيه ، فألفوا أنفسهم أمام صعوبتين : أولاهما : وجود الإدريسيين في مراكش ، والأخرى : وجود الخوارج بين البرابرة . قاموا بما يقتضي عليهم الأمر في ذلك ، فحاربوا الأدارسة وتخلّصوا^(١) منهم واندفعت جيوشهم في بلاد المغرب ، ووصلت إلى مراكش ، لكن عبد الرحمن الثالث الأموي أوقفهم في جهات سبتة ، على أن المغرب وقع أكثره في قبضة أيديهم . أما مع الخوارج فقد اضطروا إلى حرب شديدة واسعة ، فقد خرج عليهم رجل من الخوارج اسمه أبو يزيد ، وعانوا في شأنه الأمرين ، حتى استطاعوا بعد معارك طويلة علم ٣٢٦ هـ أن يقضوا عليه .

النظر إلى الشرق والتفكير بضم مصر :

كانت غاية الفاطميين الأساسية أن يكوّنوا خلافة عامة تحلّ محلّ الخلافة العباسية ، لذلك كان عليهم أن يتوجّهوا في فتوحهم إلى مصر ، ومن مصر إلى العراق ، والواقع أنهم لم يكفّوا عن التفكير في ذلك ، حتى في الساعات الحالكة من تاريخهم بالمغرب ، ومن المهديّة وجّهوا إلى مصر عدة حملات في السنوات : ٣٠٢ و ٣٠٧ و ٣٢١ هـ و ٣٢٣ و ٣٣٢ هـ لكن هذه الحملات أخفقت بالرغم من أن الفاطميين استولوا على الإسكندرية واضطروا إلى الانسحاب . يعود سبب الإخفاق إلى أن مصر كانت في وضع متين ، لا سيما أخيراً في عهد الإخشيد ، وهو رجل سياسة وحكم ، حكم مصر ودعا

(١) إليس لدينا دليل واضح على التخلص منهم ؛ ذلك لأن حكم الأدارسة امتدّ حتى أواخر القرن الرابع الهجري ، ثم انقسموا على أنفسهم ، وخلفهم أسر حاكمة في المغرب . وظل المغرب الأقصى يبنّى عن الحكم الفاطمي - المتّح .

فيها للخليفة العباسي ، ولقبه الخليفة الإخشيد أي ملك الملوك ، وهو لقب تركي معروف في بلاده الأصلية ، ولم يصرف هذا الإخفاق الفاطميين عن رغبتهم في الاستيلاء على مصر ، ولم يمض أمد يسير حتى توفي الإخشيد ، فاضطربت الأحوال من بعده واستولى على مصر كافور ، وهو عبد أسود ، واضطرّ الناس إلى أن يقبلوا بحكمه عليهم مرغين غير راضين ، ولم يستمر كافور أكثر من سنتين ^(١) . ثم أشرف على الأمور الوزير جعفر بن الفرات ، فساءت الأمور في عهده أكثر ، واستاء الشعب من شغب الجند وبذخ الحكام الذين أقبلوا على ملذاتهم ؛ وظهرت أزمات اقتصادية ومجاعات ، ووقع ظلم على السكان ؛ وكان القرامطة لا يزالون في سورية يقومون بضرباتهم المتوالية ، كانت جهتهم هذه المرة مصر ، أخذوا يهيئون أنفسهم للاقتضاض عليها . كان أهل مصر يشعرون بذلك ، لكنهم لا يستطيعون القيام بشيء أمام هذا الخطر الداهم ، في ذلك الحين جهز المعز الفاطمي جيشاً للاستيلاء على مصر ، وكان قبل ذلك قد أرسل دعائه إليها يثّون الدعوة بين السكان .

الحالة الراهنة في مصر قبل الاحتلال الفاطمي :

لنتخيّل الآن موقف مصر من هذه الدعوة : كانت مصر في الواقع أمام أعداء ثلاثة : العدو الأول : هو القرامطة بمذاهبهم وبثوراتهم وقلقلهم ، وكان العدو الثاني ماثلاً في مصر نفسها وهو اضطراب الحالة ، واختلاف الجنود ، وتفاقم الأزمات الاقتصادية ، والظلم الحيق بالسكان ؛ وكان العدو الثالث هو ذلك الذي يتربص ليهجم على مصر من جهة المغرب ، وهو جيش الفاطميين

(١) حكم كافور كومي على أبناء الإخشيد مدة عشرين سنة ، ثم حكم مباشرة مدة سنتين (٢٥٥ - ٢٥٧

هـ) - المنقح .

وقد أعدّ إعداداً حسناً ، هذا الجيش يدعو دعوة فاطمية إسماعيلية ، أو دعوة شيعية فيها شيء من المغالاة ، وكان على أهل مصر أن يختاروا بين أحد الأعداء الثلاثة . لا ريب أنهم لم يختاروا القرامطة فهم يخشون شرهم أكثر من شرّ العدوين الآخرين ، ثم إن العدو الداخلي شديد عليهم ، فهم في حالة اضطراب وأزمة عامة ، أما ذلك العدو الآتي من المغرب ، فهم لم يروا بعد من سيئاته شيئاً ، بل سمعوا عنه أنه يعيش عيشة بدوية بعدل واستقامة ، ولا ينفق الأموال على البذخ والتهتك كما يفعل أمراء مصر في ذلك العصر ، لكنه مع ذلك عدو ذو مذهب يخالف مذهب أهل مصر ، فهو شيعي ، وأهل مصر مالكية وشافعية متحفظون ، فهل يرضون به ؟ - يبدو لي أن الفاطميين في المغرب لم يتخذوا في بادئ الأمر مذهباً مغالياً في التشيع ، ولعلمهم كانوا على مذهب علوي لا يعدوا^(١) كثيراً مذهب الإمامية إلا بوقوفهم عند الإمام السابع ، ثم إنهم كانوا عارفين بطبيعة الشعب المصري وميله المذهبي ، فبثوا دعائهم فيه بأسلوب حسن لين لطيف ، فإذا كانوا يقولون ؟

العهد الفاطمي إلى أهل مصر قبل الاحتلال :

ليس بين أيدينا نصوص تدلنا على سير دعوتهم في مصر لنعرضها هنا ، لكن حدث حين هاجم الفاطميون مصر أن أعطوا عهداً لأهل مصر ، يظهر فيه شكل الدعوة التي كانوا يبتونها ، فلنستعرض إذاً هذا العهد الذي قطعه القائد جوهر باسم الخليفة المعزّ لأهل مصر حين دخل أبوابها ، ولما يصل إلى مصر نفسها ، هذا العهد يمكن أن نلاحظ فيه ثلاثة أمور : الأمر

(١) ظهرت حقيقة دعوة الفاطميين فيما بعد ، وما كان من صالحهم أن تعرف لا في شالي إفريقية ولا في مصر قبل أن يتوطد مركزهم - المنقح .

الأول : الإشارة إلى الخطر الذي كان يتهدد مصر من جهة الجنوب مع القرامطة ، ويصوّر هذا الخطر في العهد تصويراً قوياً ، ولا بد أنّ الدعاة كانوا يصوّرونه في خطر أشد مما كان يصوّره العهد ، يقول هذا في فقرة من فقراته : « ... إنّه - صلوات الله عليه - لم يكن إخراجُه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلّا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستذلّ ، وألمعت^(١) نفسه بالاعتداء على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق ، وتأكّد عزمه ، واشتدّ كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - بإخراج العساكر المنصورة ، وبادر بإفناذ الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمّهم الحزّي وشملتهم الذلّة . واكتنفتهم المصائب وتتابع الرزايا ... » .

هذا واضح في إظهار الخطر الذي يريد الفاطميون أن ينقذوا منه مصر ، وهو خطر القرامطة ، وهنالك خطر آخر ينذر الفاطميون به أهل مصر أيضاً ، وهو الأمر الثاني : خطر الحالة الداخلية المتفككة . ففي نص آخر من العهد يؤكد القائد جوهر أن أمير المؤمنين أوعز به إلى عبده (جوهر) « من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفي الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام في الحق وإغاثة المظلوم مع الشفقة والإحسان . الخ » ويستأنف بعد ذلك قائلاً : إن أمير المؤمنين يأمرني به من « إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي - صلوات الله عليه - بإثباتها

(١) كذا وردت في (المقرئزي - اتعاظ الحنفا ... طبعة HUGO BUNZ ليزينج ١٩٠٩ ص ٦٧) : أما الدكتور جمال الشيال في طبعته ١٩٤٨ - ص ١٤٩ - فقد أصلحها وقال : (وأطمعته) . للنقح .

عليكم ، وأن أجيركم^(١) في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات^(٢) موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى (كذا) بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن أتقدم في رمّ مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤمن الناس فيها أرزاقهم ... » وظاهر من هذا أنه سترك ما كان على ما كان في شؤون الأوقاف ، وهو بهذا يستميل القائلين على المساجد ودور العبادة ، وهو الأمر الثالث وغايته الإصلاح الداخلي .

أما الطريقة التي يستميل بها السكان بصفة خاصة لإزالة تخوفهم من المذهب الشيعي فإنه يبدو في قوله : « إذ كان الإسلام سنة واحدة وشرعية متبعة ، وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام ليلاليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصّه نبيه صلى الله عليه في سنته ، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه ، ولكم عليّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهلكم ونعمكم ... الخ » .

هذا العهد هو الذي كان يدّعيه الدعاة ، بل لعلهم كانوا يستزيدون فيه شيئاً وأشياء يتبسطون بها ، لأنّ القول غير العهد المكتوب .

(١) الشيال (أجريك) - المنقح .

(٢) كما وردت في طبعة الشيال ، أما طبعة BUNZ فقد وردت فيها (بركات) - المنقح .

يبدو واضحاً أن العبيدين (أو كما يسميهم المؤرخون الفاطميون) ضنوا لأهل مصر ألا يؤذوا في مذهبهم وأن يستروا على سنتهم ، فلم يبق إذاً أمام المصريين مجال للتردد في انتخاب أحد الأعداء الثلاثة ، إلا أن ينتخبوا عدوهم الفاطمي الذي تخلّى عن العداوة ، وجاء إليهم لينقذهم من القرامطة ، ولينقذهم من الفوضى والظلم الذي هم فيه ، وليترك لهم أمر دينهم يقومون به كما يشاؤون .

الاستيلاء على مصر :

هيا الفاطميون إذا دخولهم إلى مصر تهيئة محكمة ، وهيؤوا جيوشاً لغزو مصر ، إن وقع القتال مع أهلها ؛ فقد أعدّ المعزّ جيشاً ينوف على المئة ألف مقاتل من البربر والمغاربة عامة والروم والصقالبة والسودان ؛ وكان قد جمع ثروة هائلة بسبب تقشفه وحياته البدوية ؛ قدّرت هذه الثروة بأربعة وعشرين مليون دينار ، كانت بين يديه تعدّ في الصناديق ، فوضعها لهذه الحملة . بعد أن تلقى وفداً من المصريين في المهديّة أتاه شبه مبايع ، أرسل أحسن قواده **جوهراً الصقلي** وأصله رومي من صقلية ، وسيّره بأوامره ، وما بلغ أبواب مصر حتى خرج إليه من المصريين وفد يؤيدون الوفد الأول . تلقى جوهـر الوفد بالترحاب وعقد لهم عقده الذي ذكرنا بعضاً من نصوصه ، فأمنوا له ، واستسلموا لأمره ؛ غير أن الإخشيديين ومن كانوا يميلون إليهم لم يستسلموا لتلك القوة الدافقة ، ويزعنوا لرغبة الشعب ، بل خرجوا ليصدّوا جيش جوهـر الصقلي ، فوقفوا وراء النيل من جهة الجيزة ، ولما وصل جوهـر خاض جيشه النيل إليهم ، وهاجمهم هجوم الأسد الكاسر ، وقتل فيهم مقتلة كبيرة ، ثم دخل جوهـر الصقلي الفسطاط .

تأسيس الدولة الفاطمية في مصر :

وكانت أمامه خطة واضحة للعمل ، وهو أن يشرع حالاً في تأسيس مدينة لجنده لئلا يختلط بالسكان وتقع المشاكل : أسس ما يسمى بعد ذلك بالقاهرة المعزّية ، نسبة للخليفة المعزّ وهي القاهرة ، أسسها وخططها خططاً مختلفة ، فوزع الجند فيها ، وجعل لكل طائفة منهم حياً خاصاً ، فللبربر حيّهم ، وآخر للروم وثالث للسودان .. وهكذا ، ثم وجد المعزّ لدين الله الأمور في مصر قد مهّدت له ، وأقيمت مدينة من أجله والحاشية ، فانتقل من مقره في المهديّة إلى مدينته الجديدة القاهرة المعزية وذلك سنة ٣٦٢ هـ .

التوسع خارج مصر :

وكان أول ما فعله المعزّ أنه تصدّى لجيش القرامطة ، وكان هذا الجيش خطراً على مصر وخطراً عليه . نعم إن أصل الفاطميين المذهبي وأصل القرامطة المذهبي واحد ، فهم جميعاً يعترفون بالإمام السابع ، ولكن القضية المذهبية ، إنما هي أمر ثانوي بالنسبة إلى القضية السياسية الأساسية : فالفاطميون يريدون أن يكونوا أسياداً بخلافه لهم خاصة ، والقرامطة يريدون أن يستولوا على مصر لأنفسهم ، وهكذا وقع الصدام بين فئتين يكاد يكون مذهبهما واحداً . ظهر شأن القرامطة خطيراً ، فقد استطاعوا مرة ومرتين أن يصلوا إلى أبواب القاهرة ، وأن يهددوا الفاطميين في عقر دارهم ، لكن جوهر استطاع أن يردهم ، وخرج المعزّ لهم أيضاً واستعمل الحيلة في تفريقهم عن مخالفينهم من البدو ، فدحروا وكان البويهيون يسندونهم ، بعد أن كانوا مخالفين لهم ، يسندونهم ليتخلصوا من عدو جديد فاجأهم إلى جانبهم في بلاد واسعة الثراء ، كبيرة النفوذ ، قوية الجيش ، ومركزها وسط في العالم

الإسلامي ، فخطر الدولة الجديدة عليهم فيها شديد . لم يأبه الفاطميون لمساندة البويهيين بل أخذوا في التوسع ، فساروا إلى بلاد الشام ، ودحروا فيها القرامطة مرة أخرى ، ووصلوا إلى جهات الشمال ، فوجدوا الحمدانيين أمامهم فحاربوهم ، وتقدموا في بلادهم حتى بلغوا حلب ، وقد رأينا أن الحمدانيين لجؤوا إلى الروم لمحايتهم من الفاطميين . إن اندفاع الفاطميين في بلاد الشام ظل يستمر حتى استطاعوا أن يضموا آخر الحمدانيين ، فاستسلم لهم ودخلوا حلب .

تقدم الفاطميون أيضاً من جهة الجنوب فدخلوا الحجاز ، وتمكن أمرهم في جنوبيه ، وهكذا سيطروا على رقعة من العالم الإسلامي هي أكبر رقعة في عصرهم ، فقد امتدّ حكمهم من البحر الأطلسي إلى بلاد الشام المتاخمة للعراق ، إلى الجزيرة العربية وأراضيها الواسعة الشاسعة ، وكذلك تكونت دولة كبيرة ، لعل دولة بني العباس لم تكن أوسع سلطاناً منها إلا في عصور محدودة .

أدوار تطوّر الدولة الفاطمية :

امتد حكم الدولة الفاطمية في العالم الإسلامي نحواً من مئتين وسبعين عاماً منذ أول تأسيسها في المغرب إلى تاريخ انقراضها ، من هذا العدد من السنين كان نحو من مئة وخمسة عشر عاماً يعتبر عصر العز والقوة للدولة الفاطمية ، وتلا ذلك نحو من سبعين عاماً كانت الدولة الفاطمية على ضعف سياسي ولكن مع حضارة وصلت إلى ذروتها ، ثم أتت خمسة وعشرون عاماً تدهورت الأمور فيها وآلت إلى انقراض تلك الدولة .

ينبغي لنا قبل الدخول في عرض هذه المراحل ، أن نذكر ما هي صفات العصر الفاطمي إجمالاً ، فعهدهم الطويل الذي امتدّ أكثر من قرنين

ونصف ، ترك أثراً كبيراً في مصر وفي العالم الإسلامي ، فما هي صفته ؟
سنتكلم عن الحالة والمزايا العامة للدولة الفاطمية ، في مصر خاصة ، وعهد
الفاطمين في مصر يظهر على الشكل الآتي إجمالاً :

أولاً - تتجلى فيه مظاهر الأبهة والعظمة ، فالظاهر هي السائدة فيه
والمال الكثير والفخامة في كل شأنه .

ثانياً - الحكم متسامح في ظاهره مع الشعب ، فللشعب أن يقوم بأعماله
بحرية في الإجمال ، وأن يعتقد ما يشاء بحرية ، إلا في أوقات معينة ،
سنبحث بها بعد هذا ، والشعب أيضاً على الإجمال غني في بعض طبقاته ،
يعيش في مجبوحة .

ثالثاً - العمران كثير ووسائله كثيرة والدار فخمة ، تصل إلى إحدى
عشرة طبقة ، لكن الممتلكين لهذه الدور إنما هم الخلفاء ، لا أفراد الشعب ،
والشعب إنما يمتلك داره ودكاكينه وحوانите ومصانعه .

رابعاً - العلم منتشر انتشاراً كبيراً ، وللعلم دوره ، وهو يدرس في
المساجد أيضاً ، ويلقن في قصر الخليفة نفسه ، لكن هذا العلم هو علم فاطمي
لغاية فاطمية ، والقصد منه الدعوة الإسماعيلية ، ونشر تلك الدعوة . ومع
ذلك فإن دور العلم هذه وتلك الدعوة لم تكن ناجحة كما كان يأمل الخلفاء
الفاطيون ؛ أما الشعب فتمسك بسنيته لا يحيد عنها ، بل هو يستخدم دور
العلم وحلقات الدراسة لنشر فكرته السنية ، ولتغلب على الفكرة
الإسماعيلية ، ويرى الخلفاء ذلك ، فتثور ثائرتهم ، لكنهم لا يستطيعون أن
يفعلوا شيئاً كبيراً .

خامساً - ترتيب دقيق في أنظمة الدولة وفي دولوينها ، وتسلسل في طبقات

الموظفين ، وقوانين تطبق بالشدة أو بالتسامح ، لكنها تطبق ويمكن أن تقول إجمالاً : إن العدل كان سائداً في المملكة .



الوضع العام تحت الحكم الفاطمي :

هذه الصفات تبيننا عن صفة عامة أساسية تنطبق على العهد الفاطمي وهي أن هذا العصر عصر حضارة وتنظيم ، كل شيء فيه منتظم على قدر الأبهة والحضارة والبنيان والعمران كل ذلك سائر سيرته ، وطبيعي مع هذا أن يستمر الحكم الفاطمي على ضعفه الأساسي من حيث الأصل . والواقع أن الحكم ضعيف حقاً ، لأنه حكم طبقة ليست من الشعب ، فالفاطميون مها كان نسبهم لم يكونوا من منبت مصري ، بل هم لم يعينوا المصريين في أعمال الدولة الكبرى ، فقد كانوا لا يعينون في المراكز الأساسية إلا من كان على مذهبهم ، والمصريون من أهل السنة ، غير أن الفاطميين تساهلوا مع المسيحيين واليهود الذين لا يخشون شرهم فأسلموهم المراكز ، وكان من اليسير عليهم أن ينتزعوها منهم متى يشاؤون . نعم إن المسيحيين واليهود من الشعب المصري ، إلا أنهم كانوا أقلية . فالضعف إذاً في الحكم الفاطمي هو أنه لم يحكم عن طريق الكثرة الشعبية ، عدل هذا الضعف وخفف أثره ذلك التنظيم الإداري في الحكم ، والنمو الاقتصادي الذي أخذ ينعم به معظم السكان من طبقة المثريين والمتوسطين .

الجيش الفاطمي :

استطاع الفاطميون أن يسندوا حكمهم سنداً قوياً من الناحية

العسكرية فقد كان جيشهم قوياً أيضاً ، ولم يسمح للجيش بالتدخل في شؤون الحكم كما كان الأمر عند العباسيين ، والسبب في ذلك هو ما ذكر من أن الفاطميين اعتمدوا في مصر أول الأمر على المغاربة والبربر الذين أتوا بهم من المغرب ، لكنهم وضعوا إلى جانب ذلك الجيش جيشاً آخر مكوناً من الأتراك والأكراد والسودان ، فكان هذا الجيش أو الحرس يقف أمام جيش المغاربة ، وكان المستولي على الأمر في عهد الفاطميين يستطيع أن يحكم بين هاتين الطائفتين من الجيش ، ويوازن بينهما ، فلا تتغلب إحدهما على الأخرى .



فأصول العهد الفاطمي إذاً تنحصر برقي في الحضارة ، واقتصاد مزدهر ، وترتيب وتنظيم في القوانين ، وجيش لا يستطيع أن يلعب دوره في توجيه الخليفة أو السيطرة عليه .

أما تدهور الحكم الفاطمي ، فقد نتج أولاً من الفاطميين أنفسهم كما سنرى ، ثم نتج من ضعف أثر الخلافة الفاطمية في خارج مصر ، ثم أتى أخيراً من أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم أمسوا في عصر من العصور أولاداً صفاراً لا يعرفون التصرف ، فيقعون تحت نفوذ أشخاص طامحين طامعين .



عهد سلطة الخلفاء الفاطميين :

نتقل الآن إلى العهد الأول للخلفاء الفاطميين في مصر ، وهو عهد

سلطة الخلفاء . أول هؤلاء الخلفاء المعز لدين الله ، وثانيهم ابنه العزيز نزار وثالثهم الحاكم بأمر الله . إن الذي أسس الدولة الفاطمية على الأسس التي ذكرناها ، وأعطائها صفاتها التي رأيناها إنما هو العزيز . فهذا رجل يشبه أبا جعفر المنصور في الدور الذي لعبه وهو الذي أرسى أسس الدولة الفاطمية ، وعيّن خط سيرها ، وإليك السياسة التي اتبعها في ذلك نلخصها بما يلي :

أعمال العزيز التنظيمية :

شكل الوزارة على أسس قوية ، وجعل الدواوين مرتبة ترتيباً متقناً ، وانتخب وزراء أقوىاء في ترتيبهم ونظامهم وفكرهم لكنهم ضعفاء أمامه ، وقد اختارهم من اليهود والنصارى كابن كلّس^(١) وعيسى بن نسطوريوس^(٢) الخ ، ثم إنه وضع أصول الأبهة والمظاهر الفخمة للخلافة ، فحاط الخليفة بهالة من المظاهر الطنانة ، وجعل الناس ينظرون إليه نظرتهم لعزیز مصر ، ثم إنه نظر في جيشه وحرصه فوجده متألّفاً من المغاربة البربر على الأكثر ، فخشي أن يتغلب هؤلاء المغاربة على الحكم والخليفة ، وهو قد بدّل شكل الحكم عما كان عليه في المغرب ، وأراد أن يمنع حدوث أي خطر قد يصدر من المغاربة في المستقبل ، فاستخدم في الوقت نفسه جيشاً من الترك والأكراد والسودان ، واعتمد على هذا الجيش بصفة خاصة ، فعمد إلى قواده بولاية الولايات ، فكان من ذلك أن اضطرب حال المغاربة ، وقعت بينهم وبين الأتراك والأكراد الواقعة ، إلا أن هذه الواقعة - كما رأينا - كانت في مصلحة الحكم إجمالاً ، خلافاً لما يقوله المؤرخون ، لأنها

(١) هو يعقوب بن يوسف ... بن كلّس اليهودي الأصل تولى مرتين ٣٦٥ - ٣٨١ هـ - المنقح .

(٢) عيسى بن نسطوريوس المسيحي ، تولى ٣٨٥ - ٣٨٦ هـ - المنقح

منعت كلاً من الطرفين من أن يستبد بالحكم ، ولاريب أن الفتنة بينها كان لها أثر سيئ على الشعب في العهد الفاطمي ، لكن هذا الأثر السيئ هو الذي سبّب نقص^(١) الحكم الفاطمي ، فأسباب نقص ذلك الحكم يأتي من جهة أخرى ، أما الوسيلة التي وضعها العزيز لدوام الحكم في الخلافة الفاطمية فهي أنه عرف كيف يستخدم سلاحين مهمّين ، وهما السيف والمال ، فهيئة الخليفة الفاطمي كانت مع السيف ، إلا أنه لم يكن يضطر كثيراً إلى استعمال السيف ، فالذهب الكثير كان يطلق هنا وهناك ، فيخضع الناس ويمشون راغبين .

سياسة العزيز الدينية :

أراد العزيز أن يجعل الإسماعيلية هي المذهب الأساسي الرسمي في مصر ، فاستبعد كلّ من لم يأخذ بالإسماعيلية ، وقرر سبّ الصحابة ونشر الدعوة الإسماعيلية ، واستطاع بمساعدة جوهر القائد أن يفتح قسماً كبيراً من الدولة الإسلامية ، فيصل حكه حتى المؤصل ، ويُدعى له فيها مرة ، ويسري حكه على سورية بأجمعها ، وعلى الحجاز ، ناهيك عن شمالي إفريقيا . وزبدة القول إنه هو الذي وضع أسس الحكم الفاطمي في مصر .



الحاكم بأمر الله : أعماله

والخليفة الذي أتى بعده ، وهو ابنه الحاكم بأمر الله ، سار على طريقة والده في أول الأمر ، وذلك في تقوية جهاز الدولة وتثبيت الأمور ، بل

(١) التقص من هذه الكلمة (تصور الحكم الفاطمي عن إكمال وضعه العام) - المنقح

أصلح موقف والده من أهل السنّة ، فأظهر ميلاً إليهم ، وتودّد إلى علمائهم ، وأنفق عليهم المال ، وأقام لهم دار العلم^(١) وأجلسهم فيها ، وصار يتّبع أوامر الدين بدقة ، بل يغالي في ذلك . مثال ذلك : أنه منع الناس من زراعة العنب حتى لا يستحصلوا منه على الخمر ، ومنع النسوة من الخروج إلى الشارع ... وسار سيرته في ذلك مدة من الزمن ، واضطهد المسيحيين واليهود وخرب بعض كنائسهم ، ككنيسة القيامة في بيت المقدس ، وألزمهم لبس السواد لتمييزوا عن المسلمين ، واضطّروهم إلى أن يحملوا في أعناقهم صلباناً كبيرة بوزن كبير قبل أن يدخلوا إلى الحمامات ، وأفرد لهم حمامات يدخلون إليها وحدهم ، فلا يدخلون حمامات المسلمين .

تقلب الحاكم وشدوذه :

ولكن الحاكم كان ذا شخصية متقلّبة كل القلب ، وهو لا يدري ماذا يفعل ، ويسير مع عاطفته ومع اضطراب مزاجه ، فبعد أن يتسامح مع أهل السنة ، يتتبعهم بشدة ، ويقتل بعضهم ، وبعد أن كان قد التزم بأموار الدين التزاماً متشدداً متزمتاً ، إذا به ينظر إلى نفسه نظرة الألوهيّة ، ويسمح لأتباعه بأن يذكروا في الجامع الأزهر فضائله ، وأن فيه شيئاً من روح الإله ، يسمح بذلك لدرزي في أول الأمر ، فيتبعه الناس محاولين قتله ، فيختفي ، ويسمح بعد ذلك لمحزّة ، فيتبعه الناس أيضاً ، فيلتجئ إلى دار الحاكم . ويبدو الحاكم راضياً عنها ، وعما يقولان ، وقد اتخذ لنفسه في آخر عهده صفة التجديد ومظاهر التألّيه ، فأضر هذا الاتجاه بالإسماعيلية ، فقد ثار الشعب على ذلك واضطرب وهاج ، ولا ندري على الضبط ماذا

(١) دار العلم هي المكتبة الملحقة بدار الحكمة - النسخ .

حصل حوالي عام ٤١١هـ ، والذي نعلمه أن الحاكم خرج خارج القاهرة ولم يَعدُ واختفى ، ولعل الفاطميين أنفسهم هم الذين دبّروا وسيلة إخفائه وقتله ، فقد أمست الحالة في آخر عهده لاتطاق .

الوضع العام بعد الحاكم :

وما أن اختفى الحاكم حتى تغيّرت الأمور ، وانقلبت بالنسبة للفاطميين ، وبدأ عهد الاضطرابات بقوتهم السياسية . وقد يكون مرّة ذلك إلى أن العاقلين من الفاطميين ومن الوزراء والحريم ، رأوا أن من المصلحة أن تخمد فكرة التّأليه ، وألا يكون على عرش الفاطميين رجل قويّ يفرض إرادته ويؤلّيه نفسه ؛ فعمدوا إلى اختيار الأولاد الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم ، يوجهونهم وجهتهم كما يريدون . ولعل ذلك الاختيار حصل عفواً فابن الحاكم - وهو الظاهر - كان صغير السن حين توفي والده ، لكن كثرة الخلفاء الصغار الذين تولّوا الحكم أمر يلفت النظر ، ولعله حدث عمداً وليس صدفة . هذا العهد الجديد هو عهد الحريم أولاً ، ثم زال حكم الحريم فأُتي حكم الوزراء ثم زال حكم هؤلاء فأُتي حكم قواد وزراء على صفة الديكتاتورية ، ومع هذا الاضطراب السياسي كانت الحضارة مازالت زاهية قوية في بداية القرن الخامس ، وسنذكر حوادث العهد باختصار .

الفتن والأخطار في دور الاضطراب :

تولى الظاهر ، وكان صغيراً ، فحكمت أخت الحاكم واسمها ست الملك باسم ابن أخيها ، وسيّرت الأمور تسييراً حسناً ، لكنها لم تدم طويلاً على الحكم . ثم خلف الظاهر المستنصر ابنه ، فحكمت أمّه باسمه أيضاً ، ثم زالت أمه ، وحكم وزرائه وظهر الاضطراب بعد ذلك بين المغاربة والأتراك ، وكثرت الفتن ، وامتدت ؛ ولم يستطع الخليفة أن يقف أمام هذه الفتن ،

وزالت هيئته ، ولم يجد حلاً لهذه المشكلة الطارئة التي لم يكن وزراؤه قادرين على حلها ، إلا أن يستدعي ديكتاتوراً يقوم بالحكم ، ذلك الديكتاتور هو بدر الجمالي ، وأصله أرمني أسلم ، وكان يحكم في فلسطين ، وكان ذا قوة وشكينة ومعرفة ؛ فسلمه المستنصر قيادة الجيش والوزارة ، فحكم حكماً شديداً صالحاً ، وأعاد هيبة الخلافة ، لكنه لم يستطع أن يقف أمام تيار خارجي كان يهدد الدولة الفاطمية ، ذلك أن الأتراك السلاجقة أخذوا يدخلون إلى العراق ، ومن العراق إلى بلاد الشام ، وأخذ حكمهم في بلاد الشام ينتقل من مدينة إلى مدينة ، فينسحب الفاطميون أمامه . هذا وقد بدا إلى جانبهم تيار آخر أخذ ينتشر ويتقدم ، وهو تيار الصليبيين ، فهؤلاء تقدموا في ساحل سورية واستولوا على بيت المقدس نفسه ولم يبق في يد الخليفة الفاطمي إلا عسقلان ومدينة أخرى .

إصلاح بدر الجمالي وحضارة الفاطميين :

سوى بدر الجمالي الحالة الداخلية في مصر ، وأصلح شأن الأمور المالية ، وقويت الحضارة قوة هائلة ، فوصلت إلى الذروة في عهد المستنصر ، ودام عهد المستنصر أمداً طويلاً . ولنا في وصف ناصر خسرو^(١) في رحلته إلى مصر دلائل واسعة على قوة تلك الحضارة . ينبغي أن ننبّه إلى أن ناصر خسرو يصف لنا الفاطميين بمديح كبير ، ولعله مبالغ في وصفه ، ولعله وهو على مذهبهم أو شبهه دعا لهم دعوة كبيرة ، ونحن هنا نورد خلاصة عن وصفه لذلك العهد ، يقول ناصر خسرو : « إن في قصر الخليفة المستنصر ثلاثين ألف شخص يخدمون ، وإن للمستنصر على النيل إحدى وعشرين سفينة تنتظره لتنقلاته على النيل ، وكل واحدة منها طولها خمسون ذراعاً

(١) راجع للمقريزي : الواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار عن كنوز الفاطميين - النقع .

وعرضها عشرون ، ويملك الخليفة عشرين ألف دكان وثمانية آلاف بيت يؤجرها . أما الشعب فغني ، والدليل على غنائه أنه كان في القاهرة وحدها خمسون ألف بهيمة مسرحية تكرر في التنقلات في أنحاء البلد .. « يظهر لنا من كل هذا أن حالة الرخاء ^(١) كانت سائدة في عهد المستنصر ، ولو أن الحالة السياسية لم تكن متناسبة مع المستوى الحضاري .

الدولة بعد المستنصر :

استمرت الخلافة الفاطمية يحكمها ديكتاتور ، فبعد بدر الجمالي حكم ابنه الملك الأفضل ، وهو الذي عيّن خليفة بعد المستنصر وهو المستعلي أخذه من صغار أبناء المستنصر ، وكان في ذلك سبب انشقاق في الإسماعيلية نفسها ، إذ انقسمت إلى مستعلية ونزارية . كان نزار الابن الأكبر للمستنصر ، استبعده الملك الأفضل ، بسبب خلاف وقع بينها في عهد المستنصر ، ووضع بذلك حجر العثار في سبيل تقدم تلك الدولة . ثم أتى خليفة قويّ لم يخول أحداً أن يلعب دوراً إلى جانبه ، وهو الأمر بأحكام الله ، قتل الملك الأفضل لينفرد بالسلطة ، إلا أنه كان سيئ الإدارة ، فلم ينفع بشيء . عادت الخلافة الفاطمية بعده تستعين بالوزراء والقواد ، فدخل مع الفائز رجل اسمه الملك الصالح وأصل اسمه طلائع بن رزّيك ، ولم يرقَ إلى درجة بدر الجمالي ، إلا أنه عمل ما في وسعه وجهده ، وواجهته مشاكل ، منها مجاعات كثيرة سببها انخفاض مستوى النيل ، فصار يصادر

(١) من الجدير بالذكر أن نلجح إلى الشدة العظمى التي حلت بمصر وبالعالم الإسلامي ؛ والتي استمرت ثمانى سنوات بين ٤٤٦ - ٤٥٤ هـ حيث عم القحط والوباء ، وانتشرت المجاعة في جميع الأرجاء حتى أكل الناس القطط والكلاب ، وكان يموت عشرة آلاف شخص كل يوم ، حتى اضطر المستنصر أن يبيع كنوزه ... كان هذا قبل أن يعهد المستنصر إلى بدر الجمالي بالسلطة سنة ٤٦٤ هـ - المنقح .

الأموال ويضع الضرائب فساء حال الشعب ، وتدهورت الحالة الاقتصادية ، واضطرب الحكم .

أتى آخر الخلفاء الفاطميين العاضد وكان صغير السن ، وكان الحرير يتنافس على الحكم مع المتسلطين وأخيراً قتل الملك العادل رُزَيْك بن طلائع ، ووثب إلى الحكم شاور حاكم قوص . كانت المشاكل في مصر كبيرة ، فالصليبيون بلغوا مصر ، والزنكيون مدّوا أيديهم لينعوا الصليبيين ، وجاءت المجاعات ، فاضطر الخليفة العاضد إلى أن يلجأ سنة ٥٦٣هـ إلى القائد الزنكي شيركوه ^(١) ، فعينه وزيراً له ، ومنحه السلطات الواسعة ليعضد حداً لسوء النظام ؛ ثم خلفه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤هـ فجعل محلّ شيركوه بعد وفاته . بعد أن مات العاضد تقض صلاح الدين الخلافة الفاطمية ، وقضى على المذهب الإسماعيلي ^(٢) ، ووحد بين مصر والشام ، ثم قاتل الصليبيين ، فنجح في طردهم من بيت المقدس ^(٣) .



(١) هو صلاح الدين الأيوبي وهو من الأكراد - المنقح .

(٢) يرجع إليه الفضل في إعادة السنية مذهباً رسمياً - المنقح .

(٣) هذه الخلاصة عن نهاية العهد الفاطمي غير وافية . يمكن مراجعتها في نشوء الدولة الأيوبية في بحث

آخر - المنقح .

آراء عامة عن عصر الحكم الشيعي

رأينا أن الخلافة العباسية استطاعت أن تخرج من غمرة فوضى الأتراك ، وأن تستعيد سلطانها ثم رأينا أنها عادت مرة أخرى ، فتعرضت لصعوبات جديدة ، وانتهى بها الأمر إلى أن استسلمت إلى الديكتاتورية بعد أن عجزت عن إدارة الأمور . ثم ظهرت دولة بني بويه ، وطمعت عليها ، وظهرت قبل ذلك دولة بني حمدان ، فاستقلت عنها ، وظهرت بعد ذلك دولة الفاطميين ، وأسست حكماً سياسياً دينياً خلافاً جديداً . وهكذا رأينا أن العالم الإسلامي قد انضوى في معظمه تحت سلطان الدول الشيعية : بني بويه والقرامطة والحمدانيين والفاطميين والزيديين في جنوبي الجزيرة العربية . كيف حصل كل ذلك ؟ - لاريب أن هناك أسباباً بعيدة : إن آل عليّ - منذ نشأة الدولة الأموية - مازالو يبعثون عن طريق العودة إلى الخلافة ، فيثورون المرة تلو المرة ، ويبثون دعائهم في أنحاء العالم الإسلامي ، ويتغلغلون في طبقات الشعب ، لكنهم كانوا يبوؤون بالفشل المرة بعد المرة ، إلا في ناحيتين في جنوبي بحر الخزر مع الزيدية مدة من الزمن لم تطل كثيراً ، وفي مراكش مع الأدارسة . هاتان منطقتان ضعيفتان ، لم يتغلغل فيها حكم بني العباس . لجأ إليهما آل عليّ ، فاستطاعوا أن يكونوا حكماً مستقلاً فيها . وعلى ذلك فإن كان ثمة أمل أمام آل عليّ ، فهو أن يلجؤوا إلى مناطق بعيدة وأن يكونوا دولاً فيها ، ثم يرتدوا على الدولة العباسية ، فيقضوا عليها ، إن أمكنهم ذلك . وهذا ما فعلوه بالذات ، بعد أن أخفقت حركة الإمامة الزيدية ، حلّوا في بلاد الديلم في جنوبي بحر

الخزر ، ومكّنوا لأنفسهم في هذه المنطقة ، فاستروا على نشر دعوتهم فيها ثم كونوا بها دولة البويهيين ، وساروا منها إلى بغداد . لجأ المتشيعون أيضاً إلى أقصى المغرب في إفريقية ، فكوّنوا دولة الفاطميين العبيدية ، ومنها زحفوا إلى قلب البلاد العربية . وهكذا كان زحفهم من جهتين ، إلا أن الاتفاق بين الجهتين لم يكن تاماً ، والمذهب مختلف بينهما ، فإحداها إسماعيلية لم تقم على سواعد آل عليّ أنفسهم وهي دولة العبيديين الفاطميين ، والأخرى زيدية ، كانت نواة دولة بني بويه . امتدت دولة الحمدانيين المتشيعه من شمالي أراضى الخلافة العباسية ، فاستقلت عن تلك الخلافة في الموصل وحلب . وعلى هذا النحو استطاع الشيعة هذه المرة أن يحكموا بلاد الإسلام ، ماهو السبب الذي مكن لهم أن يصلوا إلى هذه النتيجة ؟ .

إن من أسباب نجاحهم حسن اختيار الاستراتيجية ، إن صَح هذا التعبير ، فهم كما رأينا زحفوا من مناطق نائية إلى وسط الدولة ، لكن هذا الزحف لا يكون موفقاً إلا إذا كانت الأسباب مهيئة له ، فكيف كانت التهيئة ؟ قام الشيعة بدعوة كبيرة في العالم الإسلامي مافترت لحظة واحدة منذ بدأ العصر الأموي ، وامتدت هذه الدعوة في كل ناحية : في الأفكار والكتب والسياسة والاقتصاد وفي كل شيء ، وهذه الدعوة كانت منظمة غاية التنظيم ، اعتمدت بصفة خاصة على الفلسفة ، وكان لهذا الاعتماد على الفلسفة أثره الكبير ، فهي حاربت الفكرة السنية من خلال الفلسفة ، وحاربتها أولاً عن طريق الاعتزال ؛ ولئن لم يكن المعتزلة أنفسهم شيعة محضاً ، إذ كانوا أكبر من ذلك كانوا مدافعين إجمالاً عن الإسلام ، فإن الشيعة مالأثم ، وسارت مع الاعتزال ودفعته في عهد الدولة الأموية ، وفي أول عهد الدولة العباسية ، ولما لم يذعن الاعتزال لها كما كان يراد منه ، انتقلت منه

إلى فلسفة جديدة ، فلسفة تخالف الاعتزال ، وهي الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة تعتمد على العاطفة أكثر مما تعتمد على العقل كما يريد المعتزلة ، والاعتقاد على العاطفة في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كان ملائماً لروح التشيع ، عاطفة في أصله ، وهو دعوة إلى أهل البيت ، أولئك الذين تلقوا الضربات الشديدة خلال تاريخهم ، فوقع منهم الشهداء في كل مكان . إن هذه العاطفة ليست كل شيء في المذهب الأفلاطوني الحديث فهو يستند إلى المعرفة ، واستمد الشيعة من هذا المذهب طرائقهم في البحث ، فبنوا مذهبهم على أصول في المعرفة ، وعلى ضروب من العاطفة ، فاجتمع لهم بذلك أسلوب فلسفي ديني ، أقاموا عليه دعوتهم ، وهذا الأسلوب قريب من نفوس الناس ، لاسيما منهم الذين أقاموا في العراق منذ قديم الأزمنة قبل الإسلام ، ولم يكونوا عرباً ، فهؤلاء هم بالأصل غنوصيون ، والغنوصية^(١) مذهب فلسفي يعتمد على المعرفة ، والغنوصية باعتمادها على المعرفة وتفسيرها للكون يمكن أن تنضم إلى الأفلاطونية الحديثة ، فتكون كتلة واحدة ، ترأسها فرقة الشيعة المتطرفة ، فجعلت منها أساس مذهبها . هذا المذهب القريب من نفوس الناس ، إذا اجتمعت معه دعوة منظمة دقيقة ، آل أمره إلى النصر . وهكذا أخذ الشيعة يدعون دعوتهم ، وابتدأت الدعوة تنتشر في العالم الإسلامي فساعدت مساعدة كبيرة على التمهيد ، لتظهر الدعوة الشيعية في ميدان السياسة ، وخلاصة القول إن الشيعة استندت على عنصرين قويين : الاستراتيجية الصالحة ، والدعوة الفلسفية الناجحة .

(١) الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام ص ١٢٧ ذكر هذا التعبير (الغنوصية) والدكتور فيليب جتي (٢/ ٥٢١ و ٥٢٣) ذكره (الغنوصية) وهي عقيدة مذهب المعرفة بالله عند الصوفيين . ينسب المذهب إلى كلمة gnose ومعناها (المعرفة والدراسة) - المنقح .

نعم إن السبب الأساسي الذي أوصل الشيعة إلى النصر السياسي هو ضعف الدولة العباسية ، لكن ضعفها ليس كل شيء في الميدان ، فما كان بإمكان الشيعة أن تتغلب عليها إن لم تكن دعوتها قد صارت وعمت وتمكنت في نفوس الناس .

رد الفعل عند أهل السنة :

بعد أن تمّ للشيعة هذا الانتصار على السّنة ، ماذا فعل أهل السنة ؟ هل قبلوا بالأمر الواقع ؟- إنهم قبلوا بذلك من وجهة النظر السياسية ، فهم قد خضعوا للتشيع من أقصى البلاد الإسلامية إلى أقصاها ، لكنهم من الناحية الفكرية والدينية لم يخضعوا له ، بل حاربوه في مهده . والواقع أن الشيعة حينما استولوا على العالم الإسلامي ، هيّؤوا وسائل الدعوة وهي العلم والكتب ، فنشروا ذلك في كل مكان ، وأسسوا دور العلم ووقفوها على العلماء ، وأنفقوا عليها الأموال الضخمة ، وقبلوا في هذه الدور أهل العلم السنيين إلى جانب الشيعة ، وغايتهم من ذلك أن يدخلوا في فكر علماء السنة مذهب التشيع ، لكن هؤلاء عرفوا الخطة ، وعرفوا ما عليهم أن يفعلوه ، فأخذوا يجادلون الشيعة ، وينتصرون للسنة من الناحية العلمية ، ويكافحون كل فكرة مغالية .

أسلوب أهل السنة في محاربة الشيعة :

ثم رأوا أن خير طريقة لمحاربة التشيع الفلسفي هي ضربه من الناحية الفلسفية ، وكما تعلمون أسس أبو الحسن الأشعري مذهب الكلامي الذي ضرب به المعتزلة ، فوقف الأمر بعض الشيء عند ما وضعه الأشعري ، واستولى الشيعة على الدولة الإسلامية . رأى أتباع الأشعري الفلسفة الشيعية تنتشر ، فنصبوا أنفسهم لضربها بالفلسفة الكلامية المبنية لا على المذهب

الأفلاطوني الحديث العاطفي ، بل على أساس الفكر الفلسفي المنطقي ، على طريقة أرسططاليس ، أي أنهم حاربوا التشيع الأفلاطوني بالأشعرية المنطقية ، والذي حمل لواء هذا الدفاع هو محمد بن الطيب الباقلاني ، (المتوفى سنة ٤٠٢) فهو الذي كان يستعيد الشيعة منه ، وهو الذي وضع نظرية الجوهر الفرد ، تلك النظرية المبنية على المنطق الأرسططاليسي ، والتي ليس من شأننا أن ندخل في تفاصيلها . وعلى هذا النحو وقفت أمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فلسفة منطقية ، وحصل الصراع بين الاثنين ، وكانت الغلبة للفلسفة المنطقية الأشعرية الباقلانية ، ودخلت هذه الأشعرية كل دور العلم التي أنشأها الشيعة ، فحن نرى في بغداد مثلاً دار العلم لسابور ، وهي مقر أهل السنة ، مع أن رؤساءها من الشيعة ، ونرى دار العلم في حلب لسيف الدولة وأهل السنة هم المستبدون فيها ، ونرى دار العلم في القاهرة وأهل السنة يثون مذهبهم فيها ، حتى أن مؤسس هذه الدار وهو الحاكم بأمر الله اضطرب لذلك كل الاضطراب ، فأقفل الدار مرة ، وأعادها بأسلوب شيوعي فاطمي ، فعاد أهل السنة إليها مرة ثانية ، وأخذوا ينشرون مذهبهم فيها ، ثم إن الفاطميين أعطوها صيغة شيعية ، ووضعوها فيها داعي الدعاة ينشر فيها المذهب ، لكن هذا الأمر لم ينجح أيضاً ، فاضطروا إلى إقفالها ، وأعادوها بعد ذلك في مكان آخر بعيد عن قصرهم ، لئلا تفسد عليهم أمورهم .

حارب المتكلمون إذاً الشيعة بسلاحهم ، فتغلبوا عليهم من الناحية الفلسفية ، أما من الناحية السياسية فلم يستطع الشيعة في شرقي الدولة الإسلامية جعل الدولة شيعية ، وقصر البويهيون - كما رأينا - عن حكم الدولة العباسية حكماً صالحاً ، واضطربوا وضعفوا أمام عنصر جديد سني أتى

من المشرق وهو عنصر السلاجقة ، فقد هبأ أهل السنة أنفسهم في شرقى العالم الإسلامى ببعث السنّة بين الأتراك السلاجقة على المذهب الأشعرى الباقلانى ، وسار هؤلاء إلى بغداد ، فقصوا على حكم البويهيين فيها . أما الفاطميون فقد استطاعوا أن يكونوا خلافة ، لكن هذه الخلافة كانت ذات صفة سياسية فقط ، وما كانت تستطيع أن تفرض مذهبها على الشعب ، فبقى الشعب في طرف وهي في طرف آخر ولم تستطيع أن تحكم البلاد التي استولت عليها في سورية ، وجابهتها حروب الصليبيين ، فاضطربت أمام ذلك ، وكان أن استولى صلاح الدين الأيوبي على الحكم فيها ، وقرض دولتها ، وأسس السلاجقة المدارس على مذهب الأشعرى ، وجعلوها مكان دور العلم ، فهزمت المدارس دور العلم ، كما هزمت السنة التشيع .

هذه هي الخلاصة عن عصر التشيع ، وهو عصر سادت فيه الفكرة الأفلاطونية الحديثة تحت ظل الحكم الشيعي ، إلا أن أهل السنة لم يلقوا سلاحهم فيه ، فأخذوا يناضلون حتى هزموا أصحابه في مدة لم تتجاوز المئة عام .



تكون الثقافة الإسلامية العربية

وثائق الحضارة العربية الإسلامية :

بلغت الحضارة العربية الإسلامية أوجها ، فازدهرت ازدهاراً عظيماً لا مثيل له في العصر العباسي . إن المستوى الحضاري يقاس بالآثار المكتوبة الفكرية (يعني الكتب والتأليف) ، ولو رجعنا إلى مادة الفكر والتأليف لرأينا العرب بلغوا من الدرجات ما لم يبلغ الغرب مثلها إلا في العصر الأخير ، ولنأخذ على ذلك مثلاً يوضح الأمر : هذا عالم من علماء الأندلس عاش في القرن الثامن الهجري ، هذا العالم وجد عند طالب من طلاب العلم كتاباً عليه : المجلد السادس والخمسون من فهرس الكتب ، وليس هذا المجلد الأول والأخير من بين أجزاء الكتاب ، والمجلد مؤلف من نحو أربعمئة ورقة ، أي نحو : ثمانية صفحة ، وليس فيه إلا ذكر أسماء الكتب ، مع أسماء المؤلفين ، ونسبهم وألقابهم ، وتاريخ وفاتهم . هذه الطريقة اتبعها حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » في تعداد أسماء الكتب . إذا حصرنا عدد الكتب التي ذكرت في هذا المجلد بلغت أكثر من ستة عشر ألفاً من الأسماء ، ولو فرضنا أن الكتاب يكمل بهذا المجلد ، فتكون الكتب المذكورة في المجلدات جميعها أكثر من مليوني كتاب . ذلك العدد يدل على الكتب التي ألقت حتى القرن الثامن للهجرة ، باللغة العربية ، وهو عدد - كما ترون - ضخم ، ولو قارناه بما يؤلف اليوم في أوروبا لوجدناه ينافس تأليف الغرب في الكمية ، فلو أخذنا من بلاد الغرب عدداً من النفوس يعادل عدد ما كان في بلاد العرب في العصر العباسي ، لوجدنا أن هذا العدد لا يخرج اليوم كل

عام من الكتب العلمية دون الروايات أكثر بكثير مما كان يخرجها العرب ، فالعرب في الماضي كانوا يخرجون حسب هذا الإحصاء أكثر من ألف وخمسة كتاب كل عام ، فمقابلة ثقافتنا بثقافة الغرب من ناحية الإنتاج ، تدلنا على درجة عظيمة ليس لأحد أن يمتن حق العرب بها .

تراكم الحضارة العربية الإسلامية من خلال العصور :

هذه النهضة لم تبدأ في العصر العباسي نفسه ، بل كانت جذورها قبل ذلك ، فقد كانت نامية منذ العصر الأموي ، وعلمنا أن ننفي ما يقال عن ذلك العصر ، من أنه عصر رواية شفوية ، فذلك ليس بصحيح ، وقد كتب العلم في عهد الرسول ﷺ ، وأذن الرسول ﷺ بكتابه لبعض الصحابة ممن يستطيعون التمييز بين الوحي وغيره ، ثم كان في عصر الصحابة الأولين صنف للعلم يتداولها الناس ، منها صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهي الصادقة ، وصحيفة في قرابة سيف علي ، وصحيفة جابر الطويلة ، وصحيفة فيها علم الفرائض كتبها زيد بن ثابت الأنصاري ، ثم صار الحديث يُتناقل في الصحف ، حتى إذا أتى عصر المروانيين ، رأينا عدداً كبيراً من العلماء يؤلفون ، ويجمعون الكتب ، ويتدارسون الصحف ، ويؤلفون في التاريخ ، ويترجمون من اللغة السريانية إلى اللغة العربية ، حتى إذا انتهى عصر الأمويين كان هنالك مجاميع كثيرة من الكتب يعرفها الناس ، إلا أنها مجاميع غير مرتبة ، لم تصنف على أسلوب دقيق ، ومن ثمّ يصح القول بأن التصنيف ابتداءً في العصر العباسي ، ومعنى هذا أن تصنيف الكتب على أسلوب دقيق منظم بدأ في العصر العباسي ، إلا أن الكتابة والتأليف والجمع حدث قبل العصر العباسي ، وأياً كان الأمر فالحركة في العصر العباسي كانت قوية بدرجة تذهل الإنسان : فهذه البصرة تؤلف الكتب وتستخرج

الآراء ، وتضع النحو ، وهذه الكوفة تكتب في التاريخ والأدب ، وتؤلف في النحو ، وهذه بغداد تضم خضاً هائلاً من العلماء ، يتكاثرون في المساجد ويكتبون العلم ، حتى إذا وصلنا إلى عصر المأمون ، رأينا معظم المعلمين ينكبون على التأليف ، وعلى إخراج الكتب . . كل ذلك كانت خيرته مهيأة في عصر بني أمية ، ثم نضجت تلك الخيرة في العهد العباسي ، وأدت إلى ما أدت إليه .

أصول الثقافة القديمة :

لدرس ثقافة ذلك العصر وتياراته المختلفة ، يجب علينا أن نعهد البحث في وضع البلاد قبل الإسلام : فبلاد الشام والعراق وفارس ومصر كانت مهداً لثقافات كبيرة واسعة ، هنالك مدارس قديمة يعرفها الناس ، كانت تؤلف فيها الكتب وتترجم : اشتهرت منها مدرسة الرها ، ونصيبين ، وحران ، وفي مصر مدرسة الاسكندرية ، وفي العراق مدارس للصابئة ، وفي فارس مدرسة جند يسابور . كانت هذه المدارس تتفاعل بثقافة يونانية وعلوم دينية مسيحية ؛ وكانت أشهر هذه المدارس الاسكندرية ، وهي مدرسة للطب ولعلوم اليونان . وقد أحدثت هذه المدرسة مذهباً فلسفياً جديداً دعي بالمذهب الأفلاطوني الحديث^(١) ، استفاد منه العرب كثيراً ، وتدارسوه ، وأثر في ثقافتهم ، وأثر بصفة خاصة في فرق الباطنية وعند أصحاب التصوف . أما مدارس سورية فقد نقلت الكتب اليونانية إلى السريانية ، فاطلع علماء العرب والإسلام بواسطتها أولاً على

(١) الاسم الحقيقي لمؤسس المذهب أفلوطين من علماء الإسكندرية . عندما اطلع العرب على فلسفته ظنوه أفلاطون اليوناني القديم ، ثم تعرفوا على الفرق بين فلسفة القدم والحديث ، فاصطلح الباحثون على تسمية الفلسفة الأفلوطينية بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة - المنقح .

آثار اليونان واستفادوا منها في مختلف العلوم ، وقدمت مدرسة جُنْدَ يسابور عدداً كبيراً من الأطباء للدولة العباسية فترجموا كتب الطب وألفوا فيها .

بيوت العلم :

كيف استفاد خلفاء بني العباس حتى عصر المأمون من هذه المدارس ، وكيف نشطت في عهودهم حركة التأليف والترجمة ؟ - إنهم فعلوا ذلك بالاتصال بعلماء هذه المدارس ، فقد كانوا يستدعونهم إلى بغداد ، وينفقون عليهم الأموال لترجمة الكتب إلى اللغة العربية ؛ وقد وضع نظام دقيق لهذه الحركة العلمية ، لذلك فإنه ما حلَّ عصر المأمون حتى كان قد ظهر في بغداد ما سمي بـ « بيت الحكمة » . كان أسَّس نواة هذا البيت في قصر الخلافة نفسه منذ عهد هرون الرشيد ، لكنه تكامل حتى أصبح بيت الحكمة وصار يجمع بيوتاً كثيرة تترجم فيها الكتب وتؤلف ، وتقام بها المراسد وتستخدم فيها أساليب التنجيم ، هذا البيت توسَّع ، وأخذ شكله النهائي في عصر الخليفة المأمون ، فقد وضع عليه الحفّاظ ، وأتحفه بالمرّجّين والعلماء ، واستطاع الخليفة أن يجعل من هذا البيت كعبة العلماء ، وأن ينظّمه التنظيم الدقيق ؛ وقد عُرِف هذا البيت باسم المأمون ، واشتهر به .

اقتناء الكتب اليونانية :

إذا بحثنا في تنظيم بيت الحكمة من ناحية الترجمة ، أدركنا كيف تمّ للعرب ذلك الشأن من المعرفة والعلم . أرسل المأمون قبل كل شيء بعثة إلى بلاد الروم لتحضر له كتب اليونان الخزونة ، وكان الروم آنذاك لا يُعنون بها ، وقد أقفلوا عليها الأقفال ، فاستخرجتها هذه البعثة وعادت بها إلى بيت الحكمة ، وكان المأمون قبل ذلك قد طلب عدداً من الكتب من بلاد

الروم أرسلت إليه ، ثم إنه هادن ملك قبرص على أن يعطيه خزانة من الكتب كانت لديه .

حركة الترجمة :

نظّم المأمون عمل الترجمة ، فوضع عليها أميناً وهو يوحنا بن البطريق ، ووضع بين يديه الكتاب الحذاق العارفين بالسريانية واليونانية ، وأحضر كبار المترجمين ، فكان الكتاب يترجمون الترجمة الأولى إلى السريانية أو العربية ، ويحرّر الترجمة المترجمون أنفسهم من أصحاب الاختصاص في مادة الكتاب ؛ لكن الأمر ما كان يقتصر على ذلك ، فإلى جانب هؤلاء وهؤلاء ، وضع مصحّح للغة العربية وهو حنين بن إسحاق ، ينظر في النسخة الأخيرة ، من حيث اللغة ، وكان عالماً باللغة العربية ، تلقّاها في البصرة عن كبار علمائها . على هذا النحو خرجت الكتب تتوالى مترجمة مصحّحة في نسخها الأخيرة ، وكان قسم منها قد ترجم في عهد الرشيد ، فأعيدت ترجمته لتكون أصحّ وأدقّ ، ولتكون مبنية على نسخ أصيلة قديمة وردت من بلاد الروم .

ترجمت إلى العربية كتب أرسططاليس ، ومعظمها في الفلسفة والمنطق ، وكتب أفقليدس في الرياضيات ، وكتب بطليموس في الكواكب والنجوم والفلك ، وكتب جالينوس وإبيقرات في الطب ، كما ترجم من اللغات الفارسية والهندية عدد من الكتب في عصر الرشيد ، وترجم من كتب التاريخ الفارسية عدد آخر في عصر المأمون .

تمازج الثقافات :

زحرت خزائن بيت الحكمة بالكتب المترجمة ، وأقبل الناس على قراءة هذه الكتب والتمعّن فيها ، فأدّى كل ذلك إلى حركة فكرية جديدة في

التأليف والنشر ، هذه الحركة أنتجت ثقافة واسعة مبنية على القديم والحديث . منذ اطلع العرب المسلمون على الثقافات القديمة حصل ما يسمى بتمازج الثقافات ، وقد أنتجت هذه الحركة الثقافة العربية الإسلامية الحديثة ، أخذ بها المثقفون الجدد ؛ ولكن لا يعني هذا أن كل الناس أقبلوا عليها بدرجة واحدة وبمستوى واحد .

يقال : إن هذه الكتب ، وتلك الدراسات آلت في آخر عصر المأمون إلى حركة تعصب من المأمون نحو الفكر ، ونحو المنطق ، وتمثلت تلك الحركة بالقول بمخلق القرآن . الواقع أن المأمون وقف في هذه الحركة موقفاً متعصباً ، متمزناً متشدداً ، مع أنه كان عليه أن يترك للناس حريتهم ، في التفكير . لقد حصلت في ذلك العصر محنة الفكر والعلم ، أنت على يد رجل هو قائد العلم والفكر ، هو المأمون الذي أحدث تلك النهضة الهائلة ، وذلك من غرائب الحركات الفكرية (التحول من الشيء إلى نقيضه) .

وبعد فيجب علينا ألا نبالغ في أثر ذلك الخضم من الأفكار التي تمازجت بعضها مع بعض من فارسية ويونانية وهندية ويهودية ونصرانية ، فإن أثر هذه الأفكار المتمازجة لم يتجاوز حداً معيناً ، مهما كانت سعة تلك الحدود ، ولننظر في أثر كل من الثقافات التي ذكرناها ، ولنبدأ بالثقافة الفارسية .

أثر الثقافة الفارسية :

لا ريب أن الثقافة الفارسية أثرت في الأدب العربي ، وطبعته ببعض الطابع - فالأدب - لا سيما منه الرسائل - كان في أيدي الوزراء والكتّاب ، فكان معظمهم من الفرس ، وتأثر الشعر أيضاً بالأدب الفارسي القديم ، وبالعقيدة الفارسية القديمة ، فظهر فيه في القرن الثاني أشعار سبكت على

الطريقة المزدكية الفارسية ، وأشعار تصوّف وزهد قرضت على الطريقة المانوية ؛ وظهرت في الكتابات الأدبية قصص أنشئت على النحو الفارسي ، ذكرت فيها حكم فارسية أيضا . ظهر أثر آخر للفرس في سياسة الملك وتاريخ الأمم ، فقد اطلع خلفاء بني العباس على تاريخ ملوك الفرس وتنظيماتهم ، واتبعوا بعضها .

أثر الثقافة الهندية :

أما الثقافة الهندية ، فقد أثرت أيضاً في الثقافة العربية عن طريق علوم الرياضة والطب ، وخاصة في علم النجوم . ترجم للمنصور منها كتاب (السند هند) . أثرت الثقافة الهندية في الفكرة الدينية ، وطبعت بطابعها بعض المذاهب : من حيث الأخذ بفكرة الحلول والتناسخ أي بأن الأرواح تنتقل من جسم لآخر ، ومن حيث الزهد بهذه الحياة على الطريقة الهندية التنسكية .

أثر الثقافة اليونانية :

أما أثر الثقافة اليونانية ، فواسع في الفلسفة والمنطق خاصة ، أخذ العرب فلسفة اليونان من كتبها ، حتى أن عدداً من كتب اليونان القديمة لا يوجد الآن إلا باللغة العربية أو مترجم عن العربية . دخل منطق اليونان في الفكر العربي الإسلامي ، وتجلى به ، وناقش الناس المسائل على طريقة المنطق اليوناني ، وقد ذكرنا أن الأفلاطونية الحديثة أثرت في حركة التصوّف ، ولا سيما بفكرة الفيض والإشراق التي قالت بها . لليونان أثر آخر كبير في علم الطب والهندسة والميكانيك (علم الحيل) والكيمياء . . . وما أشبه ذلك .

أثر الثقافة اليهودية :

أما الثقافة اليهودية ، فقد أثرت بإيراد القصص التوراتية وتفسير التلمود ، فأقبل المفسرون على هذه الأخبار ، علّها تبين لهم تفسير قصص القرآن . وبالعكس ، فنشأت تفاسير دخلت فيها نزعات يهودية ، وأقاصيص إسرائيلية . فكان أن تأثر بعض المسلمين ببعض آراء اليهود عن صفات الله ، فأثاروا فكرة التشبيه والبحث بالصفات ، وصار المعتزلة وغير المعتزلة يبحثون في ذلك ، حتى انتقل الأمر إلى القول بخلق القرآن .

أثر الثقافة المسيحية :

وفي ميدان الثقافة المسيحية ، نرى تأثيراً في الأدب وفي الشعر ، فقد كان شعراء النصارى في العهد الأموي قد لعبوا دوراً مهماً في الشعر ، وامتد أثرهم إلى العصر العباسي.. فظهر أثر الرهينة والأديرة في أقوال بعض الشعراء وفي اتجاهات بعض المتصوفة .



هذه هي خلاصة آثار الثقافة الأجنبية في الثقافة العربية الإسلامية ؛ ولو أردنا الآن أن نقارن بين هذا الأثر وبين التراث الإسلامي العربي في مجمله ، لوجدنا أن المزيج الذي حصل ليس كما يدعيه المغرضون من أنه ثقافة أصولها غريبة أجنبية دون جديد وابتكار . إن الأمر على عكس ذلك ، الكفة الراجحة في هذا المزيج هي الثقافة الإسلامية من جهة والثقافة العربية من جهة أخرى : ففي الفقه وعلوم الحديث لا شك أن الثقافة الإسلامية هي الأصل ، ولو أنه حصل استفادة من مناهج الثقافات

الأخرى ، أما الشعر والأدب العربي فلم يتقبل إلا ما يوافق مزاجه ، واستبعد كل شيء يخالف ذلك المزاج ، ويتعارض مع العقلية الإسلامية ؛ فلم يأخذ مثلاً بأدب اليونان الأسطوري ، لأنه يخالف العقلية العربية .

نعم إن أثر الثقافات الأجنبية ظهر في علوم الأوائل كالطب والرياضة والفيزياء والكيمياء ، ولكن أية أمة لا تنقل هذه العلوم عن غيرها ؟ - إن كل أمة ملزمة بأن تنقل عن سبقها تجاربهم في هذا الميدان ، وكل أمة تختلف عن غيرها في أنها تحدث أو لا تحدث الجديد المبتكر ؛ والجديد المبتكر في العلم العربي الإسلامي كثير ، كما سنرى في أبحاثنا التالية . ولنأخذ منذ الآن مثلاً سريعاً عن المزج الذي حصل ، ونجد هذا المثل مبيّناً في علم الكلام ، فصبغة الامتزاج بين الثقافات المختلفة العربية والإسلامية والأجنبية تظهر بصفة خاصة فيه ، وهذا ما يثبتته أستاذنا المرحوم أحمد أمين في ضحى الإسلام . وبعد فعلم الكلام وإن أخذ من الثقافات الأجنبية ، فقد كان في مزاجه وروحه إسلامياً عربياً ، لا نجد فيه أثراً للترجمة ، ولا نجد فيه أثراً لعناصر المزيج الأولي ، بل هي تتحد^(١) فيه بمزيج جديد وبخلق مبتكر ، امتزجت به أصول الفكر الإسلامي العربي الخالص الذي أنتجته العصر الأموي ، فظهر في تأليف واصل بن عطاء (توفي في أواخر العصر الأموي أو في أوائل العصر العباسي مباشرة) ثم امتزجت بتلك الثقافات الواسعة ، لكنها ظلت بالرغم من ذلك ذات لون إسلامي عربي واضح ، بل كانت أساساً لفلسفة إسلامية مبتكرة ؛ وفي هذا دليل على ثقافتنا الناتجة عن المزيج ، ثقافة خالصة من شوائب الاختلاط غير المستقيم ، هي ثقافة لها طابعها ومزاجها الخاص .

(١) يمكن أن نقول في هذا الصدد إن العرب المسلمين بعدما اطلعوا على الثقافات القديمة وفهموها وأدركوها ، حضوها حضاً جيداً ، فأعطوا نتائجاً ملونة ، لكنه نتاج عربي إسلامي أصيل - المنقح .

أثر العرب في العلم

سندّل في هذا البحث على الدعوى التي أوجزنا القول فيها سابقاً من أن ثقافتنا القديمة ثقافة مبتكرة . وليس أصلح في السبيل الذي نحن فيه من أن نبين أثر العرب في التراث العلمي الإنساني . ونحن حين نقول العرب ، لا نقصد العرب عنصراً صافياً ، بل كل من كتب باللغة العربية ، ففي رأينا أن كل من تكلم بالعربية وامتزج بالتاريخ العربي كان عربياً .

مضى عهد على الأوربيين كانوا ينظرون فيه إلى العرب نظرهم إلى شعب غير ذي حضارة ، وكانوا يدعون أن العرب لم يأتوا في حضارتهم بالشيء الجديد ، بل ساروا على طريقة اليونان والأمم السابقة ، نقلوا حضارتها دون أن يدخلوا فيها جديداً ، وهذا الرأي بني على التعصب والقصد الاستعماري ، فالتعصب ضد الإسلام والعربية كان يدعو الغربيين في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إلى أن يمتهنوا حق العرب في الإنتاج العلمي ؛ وكان الاستعمار يدفعهم في الوقت نفسه إلى أن لا يعترفوا بأن للعرب قيمة علمية حضارية ؛ لأن اعترافهم بهذه القيمة يجعل تدخلهم في أراضيهم تدخلاً لا معنى له ، ويبطل دعوهم من أنهم جاؤوا إلى بلاد العرب لابلأغ الحضارة إليهم ، ولتعليمهم . من الواضح أنه إذا كان العرب متحضرين ، ولهم أثر قديم في العلم ، فإنهم يكونون بالتالي بغنى عن سادة يحكمونهم ليرفعوا مستواهم .

على كل فقد انقضى عهد الاستعمار ، ونحن اليوم في عصر أخذ الغربيون يعترفون بمكانة العرب وبمكانة الحضارة العربية الإسلامية ، وأخذوا يقرّون

بالجديد الذي أحدثته تلك الحضارة ؛ وإن استشهدنا بأقوالهم خير دليل لنا ، سنبداً بإيراد جملة مختصرة عن أثر العرب في العلم والتقدم الفكري .

إن أكبر أثر للحضارة العربية الإسلامية العلمية هو في الطب والفلك والرياضيات والجغرافيا والتاريخ ، إلى جانب آثارهم الدينية غير الدنيوية . إن الذي دفع المسلمين إلى العلم ، والأخذ بالعلم ، إنما هو القرآن الكريم ، دفعهم إلى المشاهدة ، وإلى النظر في هذا الكون ، وإلى استعمال العقل ، وإلى فهم خفايا الأشياء ، بثها الله في هذا الكون ، فالمشاهدة والنظر في القرآن أمران يحضّ عليها في مناسبات عديدة ؛ والمشاهدة إنما هي مفتاح العلم ، ومفتاحه الثاني التجربة ؛ والتجربة أخذ بها العرب ، وعملوا بها ، وأدخلوها في علومهم ، فتهيأت لهم فتوح في العلم عديدة ؛ والإسلام حضّم على دراسة الطب بل إن الرسول - ﷺ - كان يقول الكثير في الطب ، حتى جُمع ما قاله في كتب ، سميت بكتب الطب النبوي ، ومن أحسنها كتاب (الطب النبوي) لابن قَيِّم الجوزية . دعا الإسلام العرب والمسلمين إلى دراسة الحساب فهو أساس لا تتمّ الفرائض إلا به .

بعد هذه المقدمة الموجزة نستطيع أن ندخل في البحث ، فننوّه بكل علم على حدة ، ونبين جوانب الاكتشاف والابتكار الجديد الذي تمّ فيه .

الطب :

عني العرب بالطب عناية فائقة ، وأسسوا له المستشفيات ، وكانت تسمى البيمارستانات ، أسسوها منذ عصر الوليد بن عبد الملك في دمشق ، ثم توسعت توسعاً كبيراً ، وأضفى عليها خلفاء بني العباس أبهة عظيمة . أسس هارون الرشيد البيمارستان الكبير ببغداد ، أسسه على طراز البيمارستانات الفارسية . وكان في البيمارستانات خزائن للأدوية والأشربة .

اختيار مكان المستشفى :

عني المسامون باختيار الأماكن الصالحة للمستشفيات ، وكانت لهم طرائق عجيبة في ذلك ، فقد ذكر لنا أن عضد الدولة البويهى أراد أن يبني بيارستانا في بغداد ، فانتدب لذلك أبا بكر الرازي ، فبحث الرازي عن مكان يقيم به ذلك المستشفى على الوجه الآتي : أحضر قطعاً من اللحم الغريض ، فألقاها في أماكن مختلفة من بغداد ، ثم رجع إليها بعد أيام ، فاختر المكان الذي لم تفسد قطعة اللحم الملقاة به . تلك هي طريقة صالحة في اختيار الهواء العليل الصافي الصحي .

فحص المتطبين :

عني العباسيون بأن يكون الأطباء قديرين في طبهم ، ويذكر لنا بهذه المناسبة خبر طريف في طبقات الحكماء لابن القفطي الصفحة ١٣٠ من الطبعة المصرية : « وفي سنة تسع عشرة وثلاثئة ، اتصل بالمقتدر أن رجلاً من الأطباء غلط على رجل فوات ، فأمر بابطيحة^(١) محتسبة بمنع جميع الأطباء إلا من امتحنه سنان [ابن ثابت الحراني ، وكان شيخاً كبيراً من مشايخ الأطباء] وكتب له رقعة بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة ، وأمر سنانا بامتحانهم ، وأن يطلق لكل واحد منهم بما يصلح أن يتصرف فيه من الصناعة ، وبلغ عددهم في الجانبين من بغداد ثمانئة ونيفاً وستين رجلاً ، سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة ، وسوى من كان في خدمة السلطان . . . » .

(١) يبدو معناها في النص وكأنها (تعميم) أو (تحذير) يصدر من المحتسب لمنع المتطبين الدجالين أن يمارسوا مهنة الطب دون الحصول على إذن - المنعج .

المستشفى المتنقل :

امتدت العناية أكثر من ذلك أيضاً ، فهذا علي بن عيسى بن الجراح (وزير المقتدر) يكتب إلى سنان ما يلي (في طبقات ابن القفطي صفحة ١٣٢) قال : « . . . فكرت فين بالسواد من أهله ، وإنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم ، لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم - مد الله في عمره - بإنفاذ متطبين وخزانة من الأدوية والأشربة ، يطوفون في السواد ، ويقيرون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينتقلون إلى غيره . ففعل سنان ذلك » .

الصيدلة :

العرب هم أول من أحدث دكاكين لبيع الأدوية التي كانت تسمى بالأقرباذين ، وقد عُنوا بالأدوية ومفردات الطب عناية كبرى ، فهم كانوا يرون أن المعالجة يجب أن تتم على طريقة التداوي الصحيح ، بل كان ابن وافد الأندلسي يعالج الناس علاجاً صحيحاً يشفون به على يديه ؛ فسئل بماذا نجحت صناعتك ؟ فقال : « الذي ميّزني بها وجعل شفاء الناس على يدي أكثر من غيري ، هو أنني إذا أتاني مريض ، ورأيت أن شفاؤه بالغذاء والحمية ، عالجته بالحمية ، وإن وجدت أنه لا يشفى بذلك ، عالجته بالنباتات والأعشاب ، وإن لم تكن معالجته بذلك ، عالجته بالأدوية الكيميائية المركبة » .

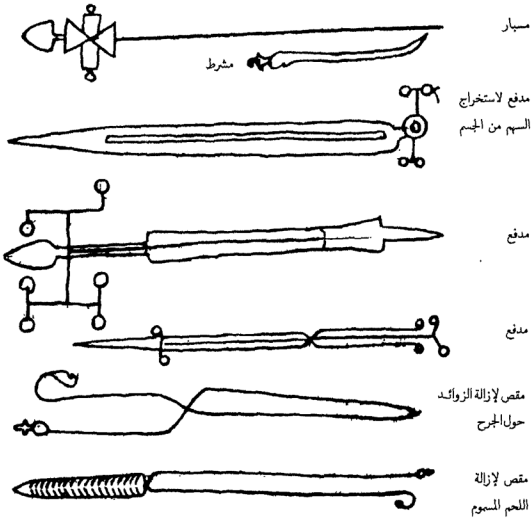
دراسة جسم الإنسان وأهم المكتشفات الطبية عند العرب :

عني العرب أيضاً بمعرفة جسم الإنسان : أي بالتشريح ووصف الأعضاء . كانوا يستعينون على ذلك بتشريح القردة ، لأن تشريح الجثث ممنوع في الاسلام ، كانوا يعرفون من أجسام القردة أوصاف الأعضاء منها ،

ويقابلون ذلك بما يرونه في الإنسان المجرّوح في القتال . وكانوا يعالجون الجروح ، و يقيمون العمليات ، ويستخدمون لذلك المخدّرات ، فلا يشعر المريض بالجراحة التي يقومون بها ، ومنها جراحات عسيرة جداً ، لم تتيسّر

استخرجت هذه الرسوم من كتاب فن التشريح « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبي القاسم خلف الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ هـ ؟ هذه المخطوطة محفوظة في المتحف الوطني بدمشق الصفحة ٢١٣

تستعمل هذه المجموعة من الأدوات الجراحية لاستخراج السهم من جسم المحارب



للأطباء إلا في عهد الحضارة الحديثة . استعملوا الفتيلة للجروح والعمليات ، وهم أول من استعمل ذلك . وتقدموا في الجراحة تقدماً هائلاً . بين أيدينا اليوم كتاب للزهرراوي ^(١) في الجراحة وآلاتها ، وقد رسمت فيه الآلات المستعملة في الجراحة . اكتشف علي بن العباس المجوسي الحركة الدموية الشعرية ، وقد ادعاها أطباء الغرب لأنفسهم . واكتشف الرازي مرض الحصبة ووصف دواءها . شَرَحَ الأطباء العين وعرفوا طبقاتها وأمراضها مما لم يكن معروفاً من قبل ، وفي ذلك كتاب لعلي بن عيسى الكحال . يظهر لنا ما اكتشفه العرب والمسلمون من جديد في كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي ؛ هذا الكتاب المطبوع باللغات الأجنبية الذي لم يطبع بعد باللغة العربية ، يذكر في كل مرض ما قاله قدامى الأطباء ، ثم ما اكتشفه العرب ، ثم يذكر الرازي بعد ذلك ما اكتشفه هو نفسه عنه ، وقد رأيت أنه لا يُخل بهذا الترتيب .

انتقال الطب العربي إلى بلاد الغرب :

كان الطب العربي يدرّس في أوربة مدة من الزمن ، وكان الكتاب الذي يدرس فيه هو كتاب (القانون) لابن سينا الذي ترجم إلى اللاتينية ، ويقول أوسلير ^(٢) : « إن هذا الكتاب درّس في العالم الغربي مدة فاقت أي كتاب آخر درّس فيه » .

(١) اسم الكتاب : « التصريف لمن عجز عن التأليف » في المتحف الوطني بدمشق نسخة مخطوطة معروضة في قاعة المخطوطات من فرع الآثار العربية الإسلامية - المنقح .

(٢) هو Sir William Osler طبيب إنكليزي متوفى في أكسفورد سنة ١٩١٩ أصدر كتاباً هاماً سنة ١٨٩٢ « مبادئ وممارسة في الطب » .

الرياضيات :

الحساب والجبر :

كان أثر العرب في الرياضيات كبيراً ، فهم الذين أدخلوا الترقيم العشري في الحساب ؛ وفي هذا رقيّ في العلم كبير ، بني على تقدم غير في مفهوم الرياضيات وفي طبيعتها ، وكانت الأعداد حتى الـ (٩) معروفة ترقم ، إلا أن الصفر لم يكن معروفاً ، والعرب هم الذين أدخلوا الصفر بالشكل العام المطلق الذي سار فيه ، إن لم يكن هم الذين اخترعوه ، ومنهم انتقل على كل حال إلى الغرب ، والذي عمّ الصفر هو الخوارزمي ومعه حتّى الحاسب ويقال : إنها أخذاً ذلك من كتاب (السند هند) . والعرب على كل حال هم الذين وضعوا الترقيم العشري . أما الجبر فإنه أول ما وضع باللغة العربية ، فالخوارزمي له كتاب (الجبر والمقابلة) ومنه تبدو أصول الجبر . أما الذي تقدم بالجبر خطوات كبيرة فإنه عمر الخيام ، لقد حلّ حلولاً هندسية من الدرجة الثالثة ؛ إذاً العالم مدين للعرب والمسلمين بالجبر ، بل إن الاسم نفسه عربي صرف .

علم الفلك :

أثر الحضارة الإسلامية في الفلك كبير ، فقد حصلت حركة واسعة جداً في هذا الأمر ، وأسست المراصد الكبيرة ، وقوّمت الأطوال الفلكية . أول مرصد كبير أحدث أثراً عظيماً ، هو المرصد الذي أوجده المأمون في الشماسية ببغداد ، ومرصد آخر أوجده على جبل قاسيون بدمشق . وأنشئ بعد العصر العباسي مرصد كان واسعاً هائلاً ، هو مرصد مراغة ، أحدثه التتر وأقاموا عليه الطوسي ، وأدخلوا فيه الآلات الفلكية كالآلات ذوات الحلق والربع والحائطي لقياس ارتفاع الكواكب في القبة السماوية ،

ودائرة بروج لقياس الانقلاب الصيفي والشتوي . وتتميز تقدم هذا العلم
عند العرب بالزيج أي بالتقاويم الفلكية الدقيقة ، وأخذت عنهم أوربة
هذا العلم .



اصطربلاب محفوظ في المتحف الوطني بدمشق

وهو مؤرخ من سنة ٩٨٢ هـ

كان للمسلمين أثر في التقويم السنوي ، فهذا عمر الخيام وضع التقويم الجلاي ، وحدّد به عدد الأيام في السنوات ، وهو أدقّ من التقويم الغريغوري المعمول به اليوم . أما الاكتشافات الأخرى في الفلك ، فهي قياس المسافة بين خطّي طول من دوائر النهار على الأرض ، تمّ ذلك في عصر المأمون على أيدي أبناء شاعر ؛ إن القياس الذي حصل عليه العرب لا يختلف عن القياس المعروف اليوم إلا بمقدار نحو من كيلو متر واحد .

تمّ اكتشاف آخر لحركة القمر ، تدعى بالتغيّر ، وهذه الحركة وضعها بعد ذلك بدقّة تيشو براهي Tycho - Brahé الفلكي المشهور . نستطيع أن نقول إن البتاني استطاع أن يعدّل مما وضعه بطليموس في الفلك ، وأن يحسّن ذلك ، وأن يحدث الجديد فيه ، فهو قد ضبط مقدار الانحراف الموجود في دائرة البروج ، وقدره بـ (٣٢ درجة و ٣٥ ثانية) . ودرس أيضاً تقهقر خطوط الاعتدال أحسن من بطليموس وحدّد ذلك أيضاً .

علم المثلثات :

والحدث الجديد أيضاً في تاريخ العلوم عند المسلمين هو وضعهم لعلم المثلثات الكروي ؛ فهم الذين اكتشفوا الجيب والتجيب ، والمماس والظل . . . الخ ، من الأشياء المتعلقة بعلم المثلثات ؛ وبهذا لم يقدموا فقط للهندسة مادة جديدة ، بل قدموا ذلك للرياضيات جميعا ، ولعلوم الفيزياء أيضا .

التاريخ :

وتجد لهم اكتشافات وطرائق جديدة في التاريخ ، إلا أن علمهم في ذلك كان محصوراً في رقعتهم ، اللهم إلا شيئاً قليلاً تسرّب عن طريق إسبانيا وقرطبة . أما في التاريخ فقد عرفوا أساليبه وطرائقه ، فكتب

التراجم عندهم أرقى ما يمكن أن تبلغه ، فهي منظمة على الحروف الأبجدية في معظمها ، تتناول سيرة الشخص من أطرافه المختلفة . وهناك أيضاً كتب التاريخ المرتبة حسب تسلسل السنين المسماة (الحوليات)^(١) ، وصلوا في ترتيبها إلى أبعد ما وصلت إليه . يضاف إلى ذلك أنهم نظروا إلى التاريخ نظرة جديدة فقد بحث علماءهم في تحولات حوادث التاريخ وأثر الإقليم في تلك الحوادث ، وأثر الجماعات فيها ، فهذا هو **المسعودي** يورد مادة حسنة في ذلك ، وهذا هو **ابن خلدون** ، وهذا هو **المقريزي** وغيرهم ينظرون إلى التاريخ النظرة الجديدة . إن التاريخ عند العرب ليس مجرد حوادث ، بل هو إلى جانب ذلك حضارة ودين وفكر وعلم وفن وعمارة : الأمر الذي يجعل الباحث يلم بجميع جوانب الحياة العامة . وضع العرب أيضاً كتبهم في فلسفة التاريخ ، وإن **ابن خلدون** يعتبر أنجحهم في ذلك في كتابه (المقدمة) وهو كتاب له أثر كبير في العالم الغربي .

الجغرافية :

وفي الجغرافية تقدّم العرب تقدماً هائلاً ، فهم كانوا مضطرين إلى أن يعرفوا اتجاه المكان وخرائطه ، ذلك أن قبلتهم الكعبة ، فيجب أن يعرف مكان البلدة واتجاهها بالنسبة للكعبة . كانت أقاليمهم واسعة ، فكان عليهم أن يعرفوا طرقاتها معرفة دقيقة ؛ ولقد وضعوا الخرائط^(٢) في ذلك ، وقاسوا المسافات ، وعرفوا أثر الجو في طبائع الناس في إقليمهم ؛ ودرسوا حالة المدن من الناحية التجارية ، ومن ناحية العادات ، فهم إذاً لم ينظروا إلى الجغرافية على أنها تصوير للأرض فحسب ، بل نظروا إليها على أنها

(١) أحسن من كتب على هذه الطريقة : الطبري وابن الأثير وابن كثير . . . - المنقح .

(٢) لعل الإدريسي والاصطخري أشهر الجغرافيين الذين رسموا الخرائط - المنقح .

جغرافية بشرية وإقليمية وطبيعية وما أشبه ذلك . . . ، وكتبهم في الجغرافية كثيرة ، ومن أطرف تلك الكتب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي ، فهو قد وصف أخلاق الناس وطبائعهم في تجارتهم وجميع أعمالهم ، وألمّ بمجوانب الحياة على طريقة جغرافية جيدة .



شهادة العلماء الغربيين بالحضارة العربية الإسلامية :

هذا ما يمكن أن نقوله بصفة مختصرة في قيمة العلم عند العرب والمسلمين والمستعربين ، ولنر الآن أقوال الغربيين في ذلك شاهداً على ما نقول . قال عالم كبير من علمائهم ومؤرخ لتاريخ العلم ، اسمه (سارتون ^(١)) : « إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني حمل أعباءه المسلمون ، فالفارابي أعظم الفلاسفة كان مسلماً ، وأبو كامل ^(٢) وإبراهيم بن سنان (بن ثابت بن قرة) أعظم علماء الرياضيات كانا مسلمين ، والمسعودي أعظم رجال الجغرافية والموسوعات كان مسلماً ، وكذلك قل في الطبّري أعظم المؤرخين » . سارتون يتكلم عن العصور الوسطى ، لذا فإنه جعل علماء المسلمين هم القائمين بالنهضة في تلك العصور .

بعد أن قارن علماء الغرب الحضارة الإسلامية بحضارة القرون الوسطى ، نظروا فيما أحدث العرب من جديد ، فوجد المنصفون منهم الشيء الكثير من ذلك ، وعدّوا ما عثروا عليه ، وسنقرأ ما أورده بعض المؤرخين الغربيين ، فنستدل منهم على تعرّفهم على أثر العرب والمسلمين فقد قال تاتشير Thatcher وشويل Schwill في تاريخ أوربة العام Histoire

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب (اللطول) ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) هو شجاع بن أسلم المصري الذي تقح في أوائل القرن العاشر كتاب الجبر للخوارزمي .

Generale de L , Europe وقد نقلنا قوله عن ولز Wells في (مختصر تاريخ العالم Esguisse de L , Histoire Universelle ص ٣١٠) (من الطبعة الفرنسية) قال : « أسس العرب الرياضيات على الأسس التي وضعها رياضيو اليونان . إن أصل الأرقام المسماة بالعربية مبهم ، ففي عهد تيودوريك الكبير Theodoric le Grand (٤٧١ - ٥٢٦ م) اتخذ بوئيتيوس Boéthius بعض الإشارات التي تشابه الأرقام التسعة المستعملة اليوم ، واستخدم أحد طلاب جربرت ^(١) Gerbert أيضا إشارات تشابه أرقامنا أكثر منه ، لكن الصفر ظل مجهولاً حتى القرن الثاني عشر ^(٢) الميلادي ، اكتشفه عربي اسمه محمد بن موسى ^(٣) وهو أيضاً أول من استعمل الترقيم العشري ، وأعطى الأرقام قيمة بحسب مكانها في العدد . ولم يضيف العرب كبير شيء في الهندسة على إقليدس ، غير أن الجبر هو في الواقع من وضعهم ؛ ولقد وسّعوا أبحاث المثلثات الكروية ، مكتشفين الجيب والمماس وقام المماس ، واخترعوا في الفيزياء الرقاص ، ووضعوا مؤلفات في علم البصريّات ، وتقدموا بعلم الفلك ، وأقاموا المراصد ، وصنعوا عدداً كبيراً من الآلات الفلكية ، التي لا تزال مستعملة حتى اليوم ، وحسبوا زوايا الميل ، وتقهر خطوط الاعتدال . لا ريب أن معرفتهم بالفلك ، كانت عظيمة . وضلوا في الطب إلى أبعد مما وصل إليه اليونان بكثير ، ودرسوا علم وظائف الأعضاء والصحة ؛ وكانت أدويتهم هي الأدوية ذاتها التي نستعملها اليوم ، فنحن لا نزال نطبق كثيراً من طرق معالجتهم ، وكان

(١) هو البابا سلفستر الثاني الذي درس في الأندلس - المنقح .

(٢) ربما يقصد الكاتب أن الصفر ظل مجهولاً في أوربة حتى القرن ١٢ م لكن العرب عرفوه قبل ذلك .

المنقح .

(٣) هو الخوارزمي (توفي ٢٢٢ هـ ٨٤٧ م) وقد دعاه الطبري بالمجوسي (حتى ٤٦٣ / ٢) - المنقح .

جراحوهم يعرفون أثر المخدّرات ، وقد مارسوا من الجراحات أصعب ما عرفه العالم منها . وبينما كانت ممارسة الطب في أوربة محظورة من قبل الكنيسة التي لم تكن تتوقع الشفاء إلا من صلوات الكهنوت الدينية ، كانت للعرب معرفة حقيقية بالطب . سلك العرب طرقاً مجدية في حقل التجارب ، فقد اكتشفوا كثيراً من المواد الجديدة : كالغُول^(١) ، والبوتاسيوم ، وماء الفضة ، وتحت كلور الزئبق وأحماض الليون والكبريت .

أما في حقل الصناعات ، فقد تفوّقوا بمهارتهم وتنوع مصنوعاتهم وبمجال رسومهم ، على كل ما كان العالم آنذاك يستطيع أن يصنعه ، فكانوا يصنّعون كل المعادن من ذهب وفضّة ونحاس وبرونز وحديد وصلب ، وكانوا يصنعون الأواني من الزجاج والفخار من أجود الأصناف ، ويعرفون كل أسرار فن الصباغة ، وكانوا يصنعون الورق ، ويحضّرون الجلد على أشكال مختلفة . وكان علمهم في ذلك مشتهراً في أوربة بأجمعها . كانوا يصنعون الصباغات والعطور والأشربة ، ويستخرجون السكر من قصب السكر ، وعندهم أنواع عديدة من الخمر الجيدة ، وكانوا يحرثون الأرض بأسلوب علمي ، ويعرفون طرقاً للرّيّ عديدة ، ويعرفون قيمة الأسمدة ، ويلأثمون بين أنواع الحبوب وطبيعة الأرض ، وقد أجادوا في الزراعة والتطعيم وعنوا بإنتاج أنواع جيدة من الثمار والأزهار ، وأدخلوا إلى بلاد الغرب كثيراً من الأشجار والنباتات التي أصلها من الشرق وصنّفوا كتباً في الزراعة العلمية » .

هذا قول منصف مدرك ، نعارض به قول من يقول بأن حضارتنا

(١) الغُول هي الكلمة العربية الصحيحة بما يطلق على الكحول خطأ - المنقح .

كانت حضارة مقلّدة لا جديد فيها ، فظاهر منه أنها مدّت المدنيّة ، وأتخفتها بأشياء جديدة ، وساهمت بمقدار حسن فيها .

وقد ورد أثناء البحث ذكر فئة من أسماء العلماء الذين برهنوا في النهوض بتلك الحضارة ونضيف إليهم اسماً يرد في نص لبروكلمان ، في تاريخ الشعوب الإسلامية (الترجمة العربية ، المجلد الثاني ، ص ٣٩) حيث قال « وفي عهد المأمون استهل أبو يوسف يعقوب الكندي فيلسوف العرب ، وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم - كما دعاه كاردانو Cardano سنة ١٥٥٢ م - استهل نشاطه الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسططالية والأفلاطونية الجديدة ، من طريق الترجمة والاقتراس فحسب ، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية ، بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية ، مكتوبة بروح تلك الفلسفة » .

ونذكر في الختام ، اسماً آخر نتّوجّ به أسماء العلماء العرب ، ألا وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي ، فهذا الرجل هضم حقّه ، ولم يعرف في بلاد الغرب ، ذلك أنه لم يبحث في العلوم الطبيعية أو الرياضية ، لكنّه على رأينا من أعظم رجال العلم فكراً ، وإبداعاً ، وابتكاراً ، إلى جانب ما كان يتحلّى به من أخلاق سامية . وهو من عبقريته وفكره ، أنتج إنتاجات لا مثيل لها سعة وعمقا . فقد صنّف الموسيقى ، ولم يكن موسيقياً ووضع علم العروض تاماً كاملاً لم يعتوره بعده تغيير ، ووضع مُعْجَماً مصنفاً على طريقة عجبية ، فيه روح اللغة العربية وعبقريتها ، وباسمه نختم بحثنا هذا الذي طقنا به في جوانب من العلم مختلفة ، ورأينا أثر العرب والمسلمين في الجهود العربية في مادة العلم والحضارة والمدنيّة .



الحضارة المادية في عصر الخلافة العباسية

ذكرنا عن الفكر والثقافة شيئاً مختصراً ، ودللنا على قوة الثقافة العربية والإسلامية بذلك . ولكن يجدر بنا أن نلقي نظرة إلى الحضارة المادية عندما ندرس الثقافة ؛ فهل كانت الحضارة المادية عند العرب ، وبها تعرف مكانة الأمة بين غيرها من الأمم ، في مستوى ثقافتهم العقلية ؟ - إن ما بين أيدينا من الأخبار ، وما يثل أماننا من الآثار ، يدلنا دلالة واضحة على أن الحضارة المادية بلغت الأوج في عهد العباسيين ، بل إن تلك الحضارة غلّت في ماديتها وفي وسائلها وفي بذخها ، وفي عمرانها ؛ ولولا التخریب الذي حصل ، ولولا ضیاع الكنوز الثمينة ، لكان بين أيدينا اليوم آثار هائلة عن تلك الحضارة إلى جانب الأشياء المبعثرة التي نراها في المتاحف اليوم . ويمكن القول بأن الحضارة العربية الإسلامية منذ نشأتها إلى أن طرأ عليها الجمود في القرن ٩ هـ وصلت إلى حدّ لم تتجاوزه الحضارات الأخرى في المادة ، إلا ما أتت به الحضارة اليوم من وسائل الآلة والبخار والكهرباء والذرة . وسنستعرض في هذا البحث بذخ الحضارة العربية في العهد العباسي وعمرانها ووسائلها .

إن بغداد التي كانت عاصمة الدولة ، كانت في الوقت نفسه عاصمة البذخ ، وتلحق بها القاهرة التي أصبحت مكاناً للحضارة رجباً جليلاً ؛ والصور التي تقدمها اليوم عن الحضارة المادية لا تقصد بها وصف تلك الحضارة ، بل تقصد بيان الأوج الذي بلغته ، أما وصف الحضارة المادية فصعب ، ويقتضي مجالاً أوسع بكثير مما نحن فيه . أما بغداد فقد وصفها

الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (الجزء ١ ص / ١١٩) ، فأثنى عليها ثناء لا مثيل له ، قال : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها ، وتميّز خواصّها وعوامّها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرافها^(١) ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالّها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ؛ وطُرُزها وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفياؤها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حُصر من عِدّة سكانها » . ويعطينا الخطيب البغدادي نفسه (في تاريخ بغداد الجزء ١ / ص ١١٧) تعداداً لخطّة تدل على الحضارة في بغداد أحسن دلالة ، وهي الحمامات ، فيقدم لنا بهذه المناسبة عدداً يفوق التّصوّر والوصف ، فيقول عن أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد : « وأن عدد الحمامات كانت في ذلك الوقت (عصر المأمون) ببغداد ستين ألف حمام . وقال : أقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيّم ، وزبّال ووَقَاد وسقاء . يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل . وذكر أنه يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجد ، يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وتقدير ذلك أن يكون أقل ما يكون في كل مسجد خمسة -أنفس ، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان » لكننا نرى في هذا مبالغة ، ولا نستطيع أن نقبل هذا التقدير . فأما أن يكون لكل حمام خمسة نفر ، فليس ضرورياً وقد يكون في الحمام نفران فقط أو أكثر أو أقل ؛ ثم أن يكون بجانب كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ليس ضرورياً ؛ أما أن يكون عدد الحمامات ستين ألفاً ، فذلك مبالغة .

هذا إحصاء وهناك إحصاءات أخرى ، ولعلها أقرب إلى الحقيقة ، فقد

(١) جمع (طر) وهو شفير النهر والوادي - المنح .

تقدم أبو محمد المهلبى إلى أبي الحسن البادغجي - وهو صاحب المعونة - يعدّ المساجد والحمامات يقول إبراهيم بن هلال الصايي (في تاريخ بغداد ١ / ١١٨) : « فأما المساجد فلا أذكر ما قيل فيها كثرة ، وأما الحمامات فكانت بضعة عشر ألف حمام ؛ وعُدّت إلى معز الدولة وعرفته ذلك ، فقال : « اكتبوا في الحمامات بأنها أربعة آلاف » . واستدلنا بقوله على إشفاقه وحسده أباه على بلد هذه عَظُمَةُ^(١) وكُبْره . وقد أحصيت في أيام المقتدر بالله ، فكانت سبعة وعشرين ألف حمام ، وليس بين الوقتين من التباعد ما يقتضي هذا التفاوت قال هلال (الصايي) وقيل : « إنها كانت في أيام عضد الدولة خمسة آلاف حمام وكسرا . . » .

ومهما كان من هذه الأرقام ، فالعدد كبير ، ولا ريب أن الحمامات دليل على الحضارة ودليل على النظافة ، فلو كانت خمسة آلاف حمام ، أي حسب أقل عدد من الأعداد المَحْصاة لكانت مقداراً هائلاً . لو أننا قلنا إن هذه الصفحة من تاريخ بغداد التي أوردها الخطيب بعيدة عن الحقيقة فهل من دليل آخر على عظم تلك الحضارة المادية ؟ نرجع إلى كتاب آخر هو كتاب المنتظم لابن الجوزي (٦٠ / ٧) فهو يذكر لنا في حوادث سنة ٣٦٢ للهجرة ما يلي : قال : « احترقت أموال عظيمة (في النخاسين إلى السماكين) وجماعة من الرجال والنساء والصبيان في الدور والحمامات ، فأحصى ما احترق . فكانت سبعة عشر ألف وثلاثمائة دكان ، وثلاثمائة وعشرين داراً ، أجرة ذلك في الشهر ثلاثة وأربعون ألف دينار » .

هذا في بغداد ، أما في القاهرة ، فقد تقدمت الأحوال المادية في عصر المماليك ، ولنا في رحلة خالد البلوي إلى القاهرة سنة ٧٨٦ هـ دليل على

(١) كذا ضبطت الكلمتان في طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م - المنقح .

تلك الحالة ، فقد قال [مخطوطة نسخة المكتبة الظاهرية - جغرافية / ١٠٨ - ورقة ٧٥ الوجه الأول] : « أخبرني أحد كتاب السلطان أنهم كتبوا وأحصوا المراكب الجارية في هذا النيل المعدة لإساق^(١) الزرع خاصة ، فألفوها تنوف على مائة ألف مركب ، ما عدا الزوارق الصغار التي للصيد والركوب وغير ذلك ، فكأنها أكثر من أن تحصى ، وأخبرني الشيخ الإمام القدوة شمس الدين الكركي قال : عن صاحب وزير الملك الظاهر أخصى الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم ، فبلغت مائتي ألف جمل ، ما عدا البغال والحمر والسقائين (كذا) الذين بالزقوق وغيرهم ؛ فإن ذلك شيء لا ينضب ولا ينحصر ، وهذه الجمال المذكورة تحطّ بالمدينة في كل يوم من أيام الصيف سبع أوانات ، وفي الشتاء أقل من ذلك ، قال : وأحصى دكاكين السقائين (كذا) المعدة للسقي بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ، ما عدا السقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها .

ونعود مرة أخرى ، فنرى في ذلك مبالغة إلا أنها ذات دلالة على سعة الدكاكين وكثرة عدد الجمال والمراكب والسقائين ، والسقاية دليل على سعة الزرع ، ودليل على عدد النفوس ، وكانت القاهرة مشتهرة بأن مبانيها ترتفع إلى إحدى عشرة طبقة .

البذخ والتزرف المفرط :

وأيّاً كان المفهوم من ذلك ، فالثروة كانت هائلة في بغداد وفي غيرها من المدن ، وتأتي الأخبار عن الثروة وعن المال وعن الجواهر ، وعن البذخ والكرم الذي لا يحده حصر ، فنستغرب ونعجب ؛ وقد سمعتم ولا ريب بما كان يقدمه الخلفاء للشعراء وغير الشعراء من مال كثير وجراية هائلة ؛

(١) إساق من أوسق أي تحميل الزرع - المنقح .

ولعل من أعظم ما نسمعه في ذلك ما ذكره المؤرخون (حتى ص ٣٧٥) عما جرى في العرس الذي أقيم للمأمون على بوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، « قيل : إنه في أثناء العرس وقف العريسان (كذا) على حصير ذهبي مرصع بالدّر والياقوت ، فنثرت على بوران ألف درّة من صينية ذهب ، وأوقدت شموع العنبر ، وزن كل واحدة مائتا رطل ، فانقلبت الظلمة ضياء ؛ وانتهى أمر ذلك العرس العظيم بأن نثر المأمون على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار ، وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ويمضي فيستلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر ، أو فرساً أو جارية أو مملوكاً » . [عن الطبري ج ٣ ص ١٠٨١ الطبعة الأجنبية] .

رفاه الحياة بسبب الغنى المفرط :

لا ريب أنّ هذه هي البجوحة في العيش والكرم الزائد المبالغ به الذي لا يقرّه عقل ، وأن المحيطين بالخلفاء والملوك وأرباب الأمر ، تنعموا بهذه الثروة الهائلة ، فكانوا يعيشون ببذخ كبير ، ولهم الغلات الوفيرة ، والأجور الضخمة . هذا خبر عن أجور كان يتقاضاها طبيب من أطباء الخلفاء وهو جبرائيل بن بختيشوع (أخبار الحكماء لابن القفطي ص ٩٩ - ١٠٠) قال : « ذكر أن رزقه كان يرسم العامّة في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم ، ويرسم الخاصة في المحرم من كل سنة من الورق خمسون (كذا) ألف درهم ، وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم ، ولفصد الرشيد دفعيتين في السنة مائة ألف درهم ، ولشرب الدواء دفعيتين في السنة مائة ألف درهم ، ومن أصحاب الرشيد كل سنة على ما فعل مع ما فيه من قيمة الكسوة وثن الطبيب والدواب ومن الورق أربعمائة ألف درهم ... ومن غلة ضياعه في

جنديسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة ثمانمائة ألف درهم ، ومن فضل المقاطعة بسبعائة ألف درهم ؛ وكان يصير إليه من البرامكة في كل سنة من الورق ألفا ألف وأربعمائة ألف درهم . . . فيكون جميع ذلك في خدمته للرشيد ، وهي ثلاث وعشرون سنة ، وخدمته للبرامكة ثلاثة عشرة سنة ، سوى الصلات الجسام ، فإنها لم تذكر في هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانون ألف ألف وثمانمائة ألف درهم .

وبدهي أن هؤلاء الأطباء الذين كانوا يتناولون جراحة ورزقاً بهذا المقدار كانوا يعيشون على أنعم حال مادي ، وقد وصف لنا كيف كان يعيش حنين بن إسحاق ، وكان يخدم المأمون في الطب ويترجم له الكتب ، قالوا (وفيات الأعيان لابن خلكان مجلد ١ / ٤٤٦) : « إن حنيناً كان في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام ، فيصب عليه الماء ، ويخرج فيلطف في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ، ويتكئ حتى ينشف عرقه ، وربما نام ، ثم يقوم ويتبخر ، ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسنن قد طبخ زيرباجا ، ورغيف وزنه مائتا درهم ، فيحسو من المرققة ، ويأكل الفروج والخبز وينام ، فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقاً ، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل ، وكان ذلك دأبه إلى أن مات . »

طريقة تقديم الطعام وتنوع ألوانه :

يكثر إلى جانب ذلك ألوان الطعام ، وأشكال تقديم الطعام والبذخ في الآنية وفي وسائل الأكل ، ونحن نعجب اليوم من أهل الغرب ، كيف يأكلون أكلهم مقدماً على مراحل صحفاً بعد صحف ، لكنّ هذا خبر يفيدنا بهذا الأسلوب (إرشاد الأريب لياقوت الحموي مجلد ١٧ ، ص ١٥١) :

« ذكر أنهم [في دعوة لآبي الحسن أحمد بن محمد الكراريسي] قَرَّبُوا فيها مائدة عليها خيار ، وفي وسطها جامات عليها « فُطْر نَخْشَب ^(١) » فسمَّيَها مسيحيَّة ، لأنها أدم النصارى ، وأنَّهم قَرَّبُوا بعد ذلك سَكْبَاجَة ^(٢) بعظام عارية ، فسمَّيَها شِطْرَنْجِيَّة ، وأنَّهم قَرَّبُوا بعدها مَضِيْرَة ^(٣) في غُضائر بِيض ، فسمَّيَها مُعْتَدَة ، وكانت بلا دسم ، والمُعْتَدَة لا تَمَسُّ الدَّهْنَ والطَّيْب ، وأنَّهم قَدَّمُوا بعدها زِيْرِيَا جَة قليلة الزعفران ، فسمَّيَها عابِدة ، تشبيهاً بلون العُباد من الصفرة ؛ وأنَّهم قَرَّبُوا بعدها لونا فسمَّيَها قُنْبِيَّة ^(٤) ، وقَرَّبُوا بعدها زِيْبِيَّة سوداء سمَّيَها موكِيَّة ، وأنَّهم قَرَّبُوا بعدها قَلِيَّة ^(٥) بعظام الأضلاع فسمَّيَها حَسَكِيَّة ، ثم قَرَّبُوا بعدها فالوذجة بيضاء فسمَّيَها صابونيَّة » . الأُغْرَب من كل ذلك أن صاحب الدعوة وهو الكراريسي اعتذر عن دعوته هذه قائلاً إن ابنه مريض وإنه لم يستطع أن يوفِّي القوم حقَّهم ، في مائدته هذه التي بسطها خارج بيته بعيداً عن ابنه المريض .

الاستفادة من علم الميكانيك في الحياة المادية :

وتعتمد الحياة المادية على وسائل في الصناعة والميكانيك ترسي عليها قواعدها ، بحيث نستطيع أن نتخيَّل حضارة أمة من الأمم بمقدار ما تستعمل من وسائل ماديَّة ميكانيكية ؛ وقد تجاوز عصرنا الحاضر في ذلك حدّاً بعيداً ؛ فالوسائل التي بين أيدينا للرفاهية وصلت إلى مقدار لا يحلم به أصحاب الخيال الكبير من الأقدمين ؛ ومع ذلك لو أننا رجعنا إلى حضارتنا

(١) نخشب : من مدن ما وراء النهر .

(٢) مرقَة تعمل من اللحم والخل - كلمة فارسية - المنقح .

(٣) مَضِيْرَة : فنة بدون دسم - المنقح .

(٤) قُنْبِيَّة : من القنب ربما كانت حلوى يبرز القنب (القنيس) - المنقح .

(٥) قَلِيَّة : مقلية .

القديمة ، لوجدنا أنها سبّاقة في هذا المضمار بالنسبة للحضارات القديمة ، وأنها إن لم تبلغ شأوا الحضارة المادية الحديثة ، فهي لم تقصّر عنها إلا في البخار والكهرباء والذرة أخيراً ؛ أما في شؤون الميكانيك ، فإنها قد وصلت إلى درجة سامية ، وبلغت في ذلك ما لم تبلغه حضارة قبلها ، بل إننا ندهش حين نطلع على أخبارها في ذلك ، وهذا خبر يذكره لنا أبو الحسن الطبري الفقيه الملقب بالكيا ، فهو قد أرسله السلطان بركياروق إلى إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبكتكين عام اثنين وتسعين وأربعمئة للهجرة ، فيقول : [كما ورد في المنتظم لابن الجوزي ج ٩ ص ١٠٩] « . . . فرأيت في مملكته ما لا يتأتى وصفه ، فدخلت عليه وهو جالس في طارمة عظيمة بقدر رواق المدرسة ، وفوق ذلك إلى السقف صفائح الذهب الأحمر ، وعلى باب الطارمة الستور التنيسي . . . ثم أمر خادمه أن يطوف بي في داره ، فدخلنا إلى خركاه عظيمة قد ألّبت قوائمها من الذهب ، وفيها من الجواهر والياقوت شيء كثير ؛ وفي وسطها سرير من العود الهندي ، وتمثال طيور بحركات ، إذا جلس الملك صفقت بأجنحتها ، إلى غير ذلك من العجائب » .

وهذه الحركات التي تقوم بها الحيوانات والتماثيل منها ، أمر يظهر أنه انتشر عند الملوك بل عند الأمراء وأتباعهم ، فهذا يوم جمعة من غرة ذي الحجة من سنة ٥٤٧ هـ ، ينطلق فيه الناس إلى اللعب وإلى الصيد ، فيجعلون أبنية وقباباً وتماثيل عجيبة ، قال ابن الجوزي في المنتظم (المجلد ١٠ / ص ١٤٨) : « وعُلّقت القباب ، فعمل الذهبيون قبة على باب الخان العتيق عليها صورة مسعود ، وخاص بك وعباس ، وغيرهم من الأمراء بحركات تدور ، وعُلّق ابن المرحّم قبة فيها خيل تدور ، وعليها فرسان

بمركات ، وعلقت بنت قاروط بيباب درب المطبخ قبة فيها صورة السلطان ، وعلى رأسه شمسة ؟ وعلّق ترشك قبة على سطح داره على تماثيل صور أتراك يرمون بالنشّاب ، وعلق ابن مكي الأحذب قبة عليها جماعة من الحُذب ، وعلق جعفر الرقاص بيباب الغربية قبة عليها مشاهرات فاكهة أترج ونارنج ورمّان وثياب ديباج وغير ذلك ؛ وأقام السودان الكلاله فوق القبة يغنون ويرقصون . وعمل أهل باب الأزع حذاء المنظرة أربعة أرحى تدور وتطحن الدقيق ، لا يُدري كيف دورانها ، الملاحون سَمِيرِيَّة على عجل تسير . وانطلق الناس في اللعب ، وبقي التعليق إلى يوم العيد . « فهذه آلات وتماثيل تتحرك وتقام في أيام الأعياد ويهرع إليها الناس ، فيتمتعون بمركاتها العجيبة . وعندنا خبر آخر عن حمام عجيب فيه . ففي [المنتظم مجلد ١٠ / ص / ٨١] . . . وبمناسبة نقض المسترشد دراه التي كان طولها ستين ذراعاً في أربعين ، وعملت فيها الصور ، وفيها الحمام العجيب ، فيه بيت مستراح فيه ييشون^(١) إن فركه الإنسان يميناً خرج الماء حاراً ، وإن فركه شمالاً خرج بارداً » .

وفي الأندلس كان لأمير المؤمنين في عهد المرابطين مقصورة تتحرك بواسطة عجلات [تاريخ الأندلس ليوسف شاخت ، ج / ٢ ، ص / ٢٥٣] . ونجد أخباراً أوسع من ذلك عن اللولب والحركات والصور في [مطالع البدور للغزولي ، المجلد / ٢ ، ص ١ - ١٨] ، ففيه يصف لنا حماماً عجيب الصنعة فيه صورة عارية ولوليب وغير ذلك .

(١) يقول الحق (طبعة حيدر آباد الأولى) الكلمة في الأصل (بشيون) ولم يشرحها . لعل الكلمة بمعنى (ضنبور) - للنقع .

الحياة العابثة :

وطبيعي أن هذه الوسائل كانت تخلق عند أصحابها نوعاً من الرفاهية يزداد مع الزمن ، ومن تلك الرفاهية يحدث نوع من الحياة العابثة المرتبة على سبيل يرضي صاحبها ، ويمتعه بمسرات الحياة : فهذا هو الأمين الخليفة المخلوع ، كان يعيش تلك الحياة الصاخبة العابثة ، ويرتّب أموره على هذا الأساس ، قال أحد المغنين [الأغاني - الجزء / ١٦ ، من ص ١٣٣] : « مرت بي ليلة ما مرّ بي قطّ مثلها ، جاءني رسول محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذني وركض بي إليه ركضاً ، فحين وافيت ، أتني بإبراهيم بن المهدي على مثل حائي ، فنزلنا ، وإذا هو في صحن لم أر مثله ، قد ملئ شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، وإذا به واقف ، ثم دخل في الكرج^(١) ، والدار مملوءة بالوصائف يغنين على الطبول والسرنايات^(٢) ، ومحمد في وسطهن يرتكض في الكرج ، فجاءنا رسوله فقال : قوما في هذا الباب مما يلي الصحن ، فارفعا أصواتكما مع السرناي أين بلغ ، وإياكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه ، قال : فأصغينا ، فإذا الجواري والخنثون يزمرّون ويضربون :

هذي دنانير تنساني وأذكرها وكيف تنسى مُحِبّاً ليس ينساها
فما زلنا نشقّ حلوقنا مع السرناي ، ونتبعه حذراً من أن نخرج عن
طبقتة ، أو نقصّر عنه ، إلى الغداة ، ، ومحمد يحول في الكرج ما يسأمه ،
يدنو إلينا مرة في جولانه ، ويتباعد مرة ، ويحول الجواري بيننا وبينه حتى
أصبحنا » .

(١) يفهم من (الكرج) أنها أداة تسلية تشبه ما يسميه العامة الآن (دَوْنَجَة) - المنقح .

(٢) يبدو من النص أن السرنايات إما أن تكون آلات موسيقية وضعها للمغني (السرناي) الذي ورد اسمه في النص ، أو أنها أدوار غنائية منسوبة إلى (السرناي) نفسه - المنقح .

المال يذهب هدرًا :

هذه حياة كان يحياها الباذخون والمترفون ، لم تكن تصيب الشعب بأجمعه ، إنما تصيب منه حلقات معدودة ، ذات يُسر . كان بعض أفراد الشعب يستفيد من ذلك اليسر ومن أعمال أصحاب اليسر في أشياء إلا أن هذه النفقات تضيع هدرًا ، ولا تذهب في طريقها الصحيح .

المال يذهب في طريقه :

إليكم مثلاً عن نفقات تذهب في طريقها الصحيح : من القاهرة مثلاً ، كان البيارستان المنصوري ، وهو بيارستان وضع لخدمة الشعب ، ويصف لنا خالد البلّوي ذلك البيارستان في [تاج المفرق ، في الورقة / ٧٥ الوجه الأول ، من نسخة الظاهرية رقم : جغرافيا ١٠٨] ، فيقول : « ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به ، إلا المارستان وحده ، وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسناً وجمالاً واتساعاً ، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ، ولا أبرع إنشاء ، ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال أخبرني الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي المذكور أنه يكل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين إليه ، والناقهين الخارجين منه ، أربعة آلاف (كذا) نفس ، وتارات يزيدون وينقصون ، ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرضى ، حتى يعطى إحساناً إليه وإنعاماً عليه : كسوة للباسه ، ودراهم لنفقاته . وأما ما يعالج به المرضى فيه من قناطير الأشربة المقطّرة ، والأكحال الرفيعة الطبية التي تسحق فيها دنانير الذهب والإبريز ، وفصوص الياقوت النفيس ، وأنواع اللؤلؤ الثمين ، فشيء يهول السمع ، ويعمّ ذلك الجمع ، إلى ما يضاف إلى ذلك كلّه من لحوم الطيور والأغنام على اختلافها ، وتباين أصنافها ، مع ما يحتاج إليه كل واحد من يوافيه ، ويحلّ فيه بفراشه وعرشه

من غطاء ووطاء وشموع ومذرور ، وشبه ذلك ، مما هو معدّ على أكمله هنالك ، وما ليس مثله إلّا في منزل أمير أو خليفة ، وقد ربّ على ذلك كله من الأطباء الماهرين ، والشهود المبرّزين ، والنظار العارفين ، والخدام المتصرّفين ، كل ما هو في معالجته ، موثوق بعدالته . . . وفي مصر مارستان آخر على مثاله . . . » .

مظاهر الحضارة المادية الجميلة والغنية :

حسبنا هذا الوصف عن الحضارة المادية ، يقدمه لنا هلال بن الحسن الصايي في تاريخ بغداد (المجلد ١ / ص ١٠٠) قال : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر ، ففرشت الدار بالفروش الجميلة ، وزينت بالآلات الجليلة ، وربّ الحجاب وخلفائهم والحواشي على طبقاتهم . على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومُخْتَرَقَاتِهَا وصحونها ومجالسها ، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدوابّ بمراكب الذهب والفضة . . . وفي دجلة الشذآت (كذا) والطيارات والزبازب والدلالات والسُميريات ^(١) ، بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبئة » . .

وعن ابن المسلمة (في الكتاب نفسه ص ١٠١) « وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل . . . ثم رُسِمَ أن يُطاف به (بالرسول) في الدار ، وليس فيها من العسكر أحد البتّة ، وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان السودان ، وكان عدد الخدم سبعة آلاف بيض ، وثلاثة آلاف سود ؛ وعدد الحجاب سبعمائة حاجب ، وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام . . . »

(١) يفهم من النص أن هذه الشذاءات والطيارات . . . مراكب متنوعة في دجلة - المتبحر .

وفي المصدر نفسه عن القاضي أبي الحسين ابن أم شيبان ص ١٠٢ « كان عدد ما علّق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة ، المصورة بالجامات والفيلة والحيل والسباع والطُرْدُ^(١) والستور الكبار . . . ثمانية وثلاثين ألف ستر . . . وعدد البسط والنخاخ^(٢) الجهرميّة^(٣) ، والدارابجرديّة والدوّرقية في الممرات والصحون التي وطئ عليها القوّاد ورُسُل صاحب الروم ، من حدّ باب العامّة الجديد إلى حضرة المقتدر بالله ، سوى ما في المقاصير والمجالس من الأغايط الطبري . . . اثنان وعشرون ألف قطعة . . . ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرّات والدهاليز المتصلة بحَيْر^(٤) الوحش ، وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحَيْر ، قطعان تقرب من الناس ، وتشمّمهم وتأكّل من أيديهم . . . ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع ، خمسون مينة وخمسون يشرة ، كل سبع منها في يد سَبّاع ، وفي رؤسها (كذا) وأعناقها السلاسل والحديد . . . ثم أخرجوا من هذه الدار وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضّة ، وبعضها مذهب . وهي تتأيل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجرة ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدير ، وفي جانب الدار يمينّة البركة ، تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر (كذا) فرساً ، قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي

إ (١) الطرد : وهي طرائد الصيد كالغزلان والأرانب . . . - المنقح .

؛ (٢) النخاخ : جمع نخ وهو البساط الطويل - المنقح .

إ (٣) نسبة إلى مكان صنعها - المنقح .

إ (٤) حير : الحدائق والبساتين - المنقح .

أيديهم مطارد على رماح ، يدورون على خط واحد من الناورد خبيأ
وتقريباً ، فيُظَنُّ أنَّ كل واحد إلى صاحبه قاصد » .

في هذا الخبر خلاصة يمكن أن تعطي فكرة عن مظاهر تلك الحضارة
الزاهية التي عاشها أجدادنا^(١) في قديم العهد ، ويظهر أنهم لم يفتهم إلا
وسائل المدنية المتحررة حديثاً من بخار وكهرباء وذرة .



(١). من المفهوم أننا لا نفخر بالإسراف الظاهر في مثل هذه الأخبار ، ولكن الغاية من ذكرها أن ندل
بذلك فقط على مستوى الحضارة . ومن المؤلف حقاً أن يفتخر الخليفة بثل هذا السرف ، في الوقت الذي كان يعجز
فيه عن دفع رواتب الجنود - المنتفع .

الفهارس

أولاً	: أسماء الأشخاص
ثانياً	: أسماء المواضع
ثالثاً	: المصطلحات
رابعاً	: فهرس الموضوعات

أولاً : أسماء الأشخاص

ابن خلدون : ٩٥	الألف
ابن سينا : ٢٤٨	إبراهيم بن الأغلب : ٨٠
ابن طلائع (الملك العادل) : ٢٢٧	إبراهيم بن سنان : ٢٥٣
ابن عائشة : ٩٣	إبراهيم بن عبد الله (أخو النفس
ابن الفرات : ١٧٤	الزكية) : ٣٧ ، ٣٨ ،
ابن قِيم الجوزية : ٢٤٤	إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب : ٩٣
ابن كثير : ٧٨	إبراهيم بن محمد بن علي : ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ،
ابن كَيْس (يعقوب بن يوسف) : ٢٢١	٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
ابن المرخَّم : ٢٦٤	٢٠٩
ابن المسلمة : ٣٦٨	إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبُكْتِكِين :
ابن مُقَلَّة : ١٨١ ، ١٨٢	٢٦٤
ابن مَكِّي الأحدب : ٢٦٥	إبراهيم بن المهدي : ٩١ ، ٢٦٦
ابن نباتة : ٢٠٤	إبراهيم بن موسى بن جعفر : ٩٥
ابن هُبَيْرَة : ٢٢	إبراهيم بن هلال الصافي : ٢٥٩
ابن واهد الأندلسي : ٢٤٦	ابن الأثير : ٩٥ ، ١١٩
أبو بكر الرازي : ٢٤٥ ، ٢٤٨	ابن بيهس الكلاني : ٩٣
أبو بكر : ٥٤	ابن الجَوَزي : ٢٦٠
أبو جعفر الطبري : ٢١ ، ٢٤ ، ٨١ ، ٩٣ ،	ابن حَوْشَب : ١٥٩ ، ٢٠٨
٩٤ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ٢٥٢	ابن خالويه اللغوي : ٢٠٤

- أبو جعفر المنصور : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،
 ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ،
 ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ،
 ٥٣ ، ٦٩ ، ١٣٦ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ،
 أبو الجهم : ٢٩
 أبو الحسن الأشعري : ٢٣١
 أبو الحسن الباذغجي : ٢٥٩
 أبو الحسن الطبري : ٢٦٤
 أبو الحسين بن أم شيبان (القاضي) : ٢٦٩
 أبو حميد المروزي : ٣٣
 أبو السرايا : ٩٤
 أبو سعيد (انظر الحسن بن بهرام الجنابي) .
 أبو سفيان : ٥٤
 أبو سلمة الخلال : ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٤
 أبو الطيب المتنبي : ٢٠٣
 أبو العباس السفاح : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٤٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 أبو عبد الله الشيعي : ٢٠٨ ، ٢٠٩
 أبو فراس الحمداني : ٢٠٤
 أبو الفرج الأصفهاني : ٢٠٤ ، ٢٦٦
 أبو فروة كيسان : ٨٥
 أبو قاسم خلف الزهراوي : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 أبو محمد الهلبي : ٢٥٩
 أبو مسلم الخراساني : ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
 ٥٤ ، ٦٩ ، ٢٠٩
 أبو معاوية الضرير : ٦١
 أبو هاشم محمد بن الحنفية : ١٥
 أبو الهيجاء بن حمدان : ٢٠٠
 أبو يزيد الخارجي : ٢١٠
 أبو يوسف القاضي : ٤٣
 أتامش : ١١٨
 أحمد بن أبي خالد : ٩٥ ، ١٤٠
 أحمد بن أبي طاهر : ٢٥٨
 أحمد بن بويه : انظر معز الدولة .
 أحمد بن طولون : ١٢٩ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح : ١٥٧
 أحمد بن محمد الكراريسي .
 (أبو الحسن) : ٢٦٣
 أحمد بن المدبر : ١٤٥
 الإخشيد (محمد بن طنج) : ١٥٠ ، ٢٠١ ،
 ٢١١
 الإدريسي : ٢٥٢
 أرسططاليس : ٢٣٨
 إرنهارد : ٧٠ ، ٨٢
 إسحق بن إبراهيم : ٩٦
 إسحق بن موسى بن عيسى : ٩٤
 إسماعيل بن أحمد بن أسد : ١٤٤
 إسماعيل بن جعفر الصادق : ١٥٤
 أشناس : ١٠٣
 الإصطخري : ٢٥٢

الأصفهاني (أبو الفرج) ،	بروكلمان : ٨٢ ، ٢٥٦
إقليدس : ٢٣٨ ، ٢٥٤	البَرْيُدي : ٢٠٠
أماجور : ١٤٦	بشّار بن برد : ٥٢
الآمر بأحكام الله : ٢٢٦	بطليموس : ٢٣٨ ، ٢٥٠
أم المقتدر : ١٨١	ثُغَا : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨
الأمين (محمد) : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،	بكير بن ماهان : ٢٩
٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،	بنت قاروط : ٢٦٥
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٣٣ ،	بهاء الدولة : ١٩٨
١٤٠ ، ١٩٩ ، ٢٦٦	بهبوذ (صاحب الزنج) : ١٢٢ ، ١٢٣ ،
الأندلسي (انظر ابن وafd الأندلسي) .	١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٥
إقراط : ٢٣٦	بهرام جور : ١٨٧
إيتاخ : ١٠٣ ، ١٠٦	بوئيتيوس : ٢٥٤
إيريني : ٨١	بوران (امرأة المأمون) : ٢٦١

التاء

ترشك : ٢٦٥
توزون : ١٨٣ ، ٢٠٠
تكين بن عبد الله الخزري : ١٥٠
تيشوبراهي : ٢٥١
تيودورة : ١١١
تيودوريك الكبير : ٢٥٤
تيوفيل : ١١٠

الجيم

جابر بن عبد الله : ٢٣٥
الجاحظ : ٤٧
جالينوس : ٢٣٨

الباء

بابك الحرّمي : ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٨
باسيل : ٢٠٥
باغر : ١١٨
بايكباك : ١١٩ ، ١٤٥
البَتّاني : ٢٥١
بجكم الرائقي : ١٨٣
بختيار بن معز الدولة : ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٧
بدر الجمالي : ٢٢٥ ، ٢٢٦
بدر (عامل المعتضد) : ١٦٠
البَرْجُمي (كبير العيارين) : ١٩٧
بركياروق : ٢٦٤

- جبرائيل بن بختيشوع : ٢٦٢
 جربرت : ٢٥٤ (البابا سلفستر الثاني)
 جربرت بن يزيد البجلي : ٣٣
 جعفر بن الفرات : ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١١
 جعفر بن يحيى البرمكي : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩١ ، ١٩٩
 جعفر الرقاص : ٢٦٥
 جعفر الصادق : ١٥٣ ، ١٥٤
 جعلان : ١٢٦
 الجنابي (انظر الحسن بن بهرام) .
 جنكيز خان : ١٢٩
 جهور بن مرار العجلي : ٣٤
 جوهر الصقلي : ١٥٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٢
 جيش بن خمارويه : ١٤٧ (يصحح)
 الحاء
 حاجي خليفة : ٢٣٤
 الحاكم بأمر الله الفاطمي : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢
 حبش الحاسب : ٢٤٩
 الحجاج بن يوسف : ٣٢
 حسن إبراهيم حسن : ٩٥
 الحسن بن أبي الهيجاء : ٢٠٠
 الحسن بن بهرام الجنابي : ١٥٩ ، ١٦٢
 حسين بن حسن الأقطس : ٩٤
 حسن بن حمدان : ١٨٣
 الحسن بن زيد بن علي : ١٥٢
 حسين بن زكرويه (صاحب الشامة) : ١٦١
 الحسن بن سهل : ٩٢ ، ٢٦١
 الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٥
 حسن بن علي الأطروش (ناصر الحق) : ١٥٢
 الحسن بن عمر بن الخطاب : ٢٠٠
 الحسن بن قحطبة : ٢٢
 حسين الأهوازي : ١٥٨
 الحسين بن حمدان : ٢٠٠
 الحسين بن علي بن أبي طالب : ٥٥
 الحسين بن علي بن ماهان : ٨٩
 الحسين بن القاسم : ١٧٩
 حمدان (رأس الأسرة الحمدانية) : ٢٠٠
 حمدان قرمط : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢
 حمزة : ٢٢٣
 حنين بن إسحاق : ٢٣٨ ، ٢٦٢
 الحطاء
 خنّاش : ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٤
 خلف الزهراوي (أبو القاسم) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 - ٢٧٦ -

خليل بن أحمد الفراهيدي : ٢٥٦
خمارويه بن أحمد بن طولون : ١٤٧
الحوارزمي : ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤

زيد بن علي : ١٥١ ، ١٥٢

السين

سارتون : ٢٥٣

سامان خواده : ١٤٣

سانغال (القيس) : ٨٣

سبكتكين : ١٩٢ ، ١٩٧

ست الملك : ٢٢٤

سعد الدولة : ٢٠٤ ، ٢٠٥

سعید الدولة : ٢٠٥

السرناي : ٢٦٦

السفاح (انظر أبو العباس) ،

سلفستر الثاني (البابا) : (انظر

جربرت) ،

سليمان بن حسن بن مخلد : ١٨٢

سليمان بن كثير الخزاعي : ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩

سينان بن ثابت الحراني : ٢٤٥ ، ٢٤٦

سنياذ : ٣٤

سهل بن هارون : ٦٧

السيدة أم المقتدر : ١٩٨

سيف الدولة : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٢ ،

٢٠٣ ، ٢٠٤

الشين

شارلمان : ٨٣

الدال

درزي : ٢٢٣

درهم بن نصر : ١٤٢

الدمستق : ٢٠٢ ، ٢٠٣

دينار بن عبد الله : ٩٥

الراء

الراضي (أحمد بن المقتدر) : ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٣

رافع بن الليث بن نصر : ٨٤

الرضا (انظر علي بن موسى) .

ركن الدولة : ١٩٧

روزبهان الديلمي : ١٩٢

الزاي

زبيدة : ٧٤

زكرويه بن مهرويه : ١٦٠ ، ٢٠٩

زمباور : ٧٨ ، ٩٥ ، ١٤٤

الزهرابي (انظر أبو القاسم وخلف) ،

زياد بن أبيه : ٥٤ ، ٩٥ ، ١٥١

زيد بن ثابت الأنصاري : ٢٣٥

الطاء

الظاهر : ٢٢٤

العين

العاضد : ٢٢٧

العباس بن حسن الجرجرائي : ١٧٠ ، ١٧١

العباسة (أخت الرشيد) : ٦٩

عبد الجبار المحتسب : ٥٣

عبد الرحمن بن أحمد : ٩٥

عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح : ١٨٢

عبد الرحمن الثالث : ١٣٣ ، ٢١٠

عبد الله بن طاهر : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،

١٨٠ ، ١٤١

عبد الله بن علي : ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٢٣٥

عبد الله بن المعتز : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢

عبد الله بن ميمون القداح : ١٥٦ ، ١٥٧

عبد الملك بن الزيات : ١١٥

عبد الملك بن صالح : ٦٣ ، ٧٦ ، ٧٧

عبدان : ١٥٩ ، ١٦٠

عبيد الله المهدي (حفيد ميمون القداح) :

١٦٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

عثمان بن عفان : ٨٥

عَجِيف بن عنيسة : ٩٤

العزیز نزار بن المعز الفاطمي : ٢٢١

عضد الدولة : ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧

١٩٨

شجاع بن أسلم المصري : ٢٥٣

شَغَب (والدة المقتدر) : ١٧٢

شمس الدين الكركي : ٢٦٠ ، ٢٦٧

شيركوه الأيوبي : ٢٢٧

الصاد

صاحب الزنادقة (عمر الكلواذي) : ٥٣

صاحب الزنج : انظر ههوذ .

صاحب الشامة : انظر حسين بن زكرويه ،

صاحب الناقة : انظر يحيى بن زكرويه ،

صالح بن عبد القدوس : ٥٣

صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن

أيوب) : ١٤٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣

الطاء

طاهر بن الحسين : ٨٩ ، ٩٥ ، ١١٨ ،

١٤٠ ، ١٩٩

طاهر بن عبد الله : ١٤١

طاهر بن محمد بن عمرو : ١٤٣

الطبري (انظر أبو جعفر) .

طَفِج : ١٥٠ ، ١٦١

طغرل بك السلجوقي : ١٩٨

طلائع بن رَزَيْك (الملك الصالح) :

٢٢٦ ، ٢٢٧

طلحة بن طاهر : ٩٦ ، ١٤١

الطوسي : ٢٤٩

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) :

٣٦ ، ١٥٣ ، ٢٣٥

علي بن بويه : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩

علي بن عباس المجوسي : ٢٤٨

علي بن عيسى الجراح : ١٧١ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٤٦

علي بن عيسى الكحال : ٢٤٨

علي بن عيسى بن ماهان : ٦٨ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٩

علي بن موسى (علي الرضا) : ٩١ ، ٩٢

علي بن يقطين : ٥٥

علي الرضا : انظر علي بن موسى

عماد الدولة : ١٩٧

عمر بن عبد العزيز : ١٦ ، ١١٩

عمر الخيام : ٢٤٩ ، ٢٥١

عمر الكلواذي : انظر صاحب الزنادقة .

عمرو بن الليث : ١٤٣

عيسى بن موسى بن علي : ٣٧ ، ٣٨

عيسى بن نسطوريوس : ٢٢١

الفاء

الفائز : ٢٢٦

الفارابي : ٢٠٤ ، ٢٥٣

فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني : ٩٦

فاطمة بنت محمد (عليه السلام) : ١٧ ، ٢٠٦

فاطمة بنت يعقوب بن الفضل : ٥٥

فخر الدولة : ١٩٧ ، ١٩٨

الفضل بن الربيع : ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٧

الفضل بن سهل : ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣

الفضل بن يحيى البرمكي : ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٤

فرغويه : ٢٠٤

القاف

القاسم بن هارون الرشيد : ٧١ ، ٧٧

القاسم الرّبيّ : ١٥٢

القاهر : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١

قبيحة (والدة المعتز) : ١١٩

قحطبة : ٢١ ، ٢٢

قسطنطين بن الدمستق : ٢٠٣

قطر الندى : ١٤٧

الكاف

كاردانو : ٢٥٦

كافور الإخشيدي : ١٥٠ ، ٢٠١ ، ٢١١

كشاجم : ٢٠٤

اللام

لؤلؤ : ١٢٩ ، ١٤٦ ، ٢٠٥

الميم

المازيار : ١٠٨

المأمون (عبد الله) : ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،	محمد بن طُفَّج (انظر الإخشيد) . محمد الطيب (انظر ميمون القداح) محمد بن الطيب الباقلاني : ٢٣٢ محمد بن عبد الله بن طاهر : ١٥١ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٢٠٧ محمد بن القاسم الكرخي : ١٨٢ محمد بن موسى : ٢٥٤ محمد الطيب : انظر ميمون القداح . محمد بن المنصور (انظر المهدي) . محمد النفس الزكية ابن عبد الله : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ محمد بن يحيى : ١٨٣ محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي : ١٤٤ ، ١٩٨ المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٢٦ ، ١٥٣ مرداويج بن زيار : ١٨٦ ، ١٨٩ مروان الحمار : ٢٢ ، ٢٩ ، ٣١ المستعلي : ٢٢٦ المستعين : ١١٣ ، ١١٨ المستكفي : ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ المستنصر : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ مسرور : ٦١ المسعودي : ٢٥٢ ، ٢٥٣ المطيع : ١٩٠
المأمون بن عبد الله بن طاهر : ٩٣ ماني : ٥٢ المبرقع : ٩٣ المتقي : ١٨٣ ، ٢٠٠ المتوكل : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣١ ، ١٥١ محمد بن إبراهيم الزياتي : ٩٥ ، ١٣١ ، ١٥١ محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (المهدي المنتظر) : ٢٠٧ ، ٢٠٨ محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين : ٩٤ محمد بن خالد بن برمك : ١٧٨ محمد بن داود بن الجراح : ١٧١ محمد بن رائق (أمير الأمراء) : ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ محمد بن سليمان الكاتب : ١٦١ محمد بن طاهر : ١٤١	

معاذ بن مسلم : ٥٤	الملك العادل (ابن طلائع) : ٢٢٧
معاوية بن أبي سفيان : ٤٣	المنتصر : ١٠٧ ، ١١٧
المعتز : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١١٩	المنصور (انظر أبو جعفر) ،
المعتصم : ٤٨ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢	المهتدي : ١١٩
١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٤٤	المهدي محمد : ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
المعتضد (أحمد بن الموفق) : ١٢٩ ،	٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٢
١٤٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧	المهدي (انظر عبيد الله)
١٦٧ ، ٢٠٠	المهدي المنتظر : انظر محمد بن إسماعيل بن
المعتد بن المتوكل : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٤٧	جعفر الصادق
١٦٥ ، ١٤٧	موسى بن الأمين : ٨٧ ، ٨٨
معز الدولة : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢	موسى بن المهدي (انظر الهادي)
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٥٩	موسى بن يحيى : ٦٧
المعز لدين الله الفاطمي : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥	موسى الكاظم بن جعفر الصادق :
٢١٦ ، ٢٢١	٥٨ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٤
معن بن زائدة الشيباني : ٣٤	الموفق : ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
المقتدر بالله : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧	١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٥
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١	مؤنس الخادم : ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،
٢٠٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩	١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
المقريزي : ٢٥٢	مؤنس الخازن : ١٧٣
المقتنع : ٥٤	المؤيد : ١٠٧
المكتفي : ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٦٨	مؤيد الدولة : ١٩٧
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠	ميمون القداح : (محمد الطيب) : ٢٠٦ ، ٢٠٧
الملك الأفضل بن بدر الجمالي : ٢٢٦	النون
الملك الصالح : انظر طلائع بن رزيك .	الناصر : ١٩٦
الملك الظاهر : ٢٢٤ ، ٢٦٠	ناصر الحق : انظر حسن بن علي الأطروش
	ناصر خسرو : ٢٢٥

الواو

الوائق : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٤
 واصل بن عطاء : ٢٤٢
 وصيف : ١٠٧ ، ١١٨
 ولهاوزن : ١٤ ، ٢٣
 الوليد بن عبد الملك : ٢٤٤
 وليم أوسلير : ٢٤٨

الياء

ياقوت (الوزير) : ١٧٨
 يحيى بن خالد البرمكي : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٨
 يحيى بن الحسين الرسي (الهادي إلى الحق) : ١٥٢
 يحيى بن زكرويه (صاحب الناقة) : ١٦٠ ، ١٦١
 يحيى بن عبد الله العلوي : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٤
 يزدان بن باذان : ٥٥
 يزيد بن الفيض : ٥٣
 يعقوب بن إبراهيم : انظر (أبو يوسف القاضي)
 يعقوب بن الفضل : ٥٥
 يعقوب بن الليث الصقار : ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٤٢
 يعقوب بن يوسف : انظر (ابن كلس)
 يعقوب الكندي : ٢٥٦
 يقطين : ٥٥
 يوحنا بن البطريق : ٢٣٨
 يوسف بن أيوب : انظر صلاح الدين الأيوبي

نزار (أخو المستعلي) : ٢٢٦

نصر بن أحمد بن أسد : ١٤٤

نصر بن سيار بن شيبث : ٢١ ، ٩٣

النفيس الزكية : انظر محمد بن عبد الله ،

تقفور الأول : ٨١ ، ٨٢

تقفور الثاني الفقّاش : ٢٠٣

نوح بن إسماعيل بن أحمد : ١٤٤

الهاء

الهادي (موسى) : ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨
 الهادي إلى الحق (انظر يحيى بن الحسين)
 هارون (الخارجي) : ٢٠٠
 هارون الرشيد : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
 هاشم بن عبد مناف : ٣٩
 هرثمة بن أعين : ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٩
 هشام بن عبد الملك : ١٤٣
 هلال بن حسن الصابي : ٢٦٨
 هولكو : ١٢٩

ثانياً : أسماء المواضع

الألف	البحرين : ١٥٩ ، ١٦٢ ، ٢٠٠
أبو الخصب (نهر) : ١٢٥	بجاري : ١٤٣ ، ١٤٥
الإحساء : ١٦٨	البصرة : ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٨٨ ، ٩٤ ،
أذربيجان : ٩٧ ، ١٠٩	١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٥ ،
الأردن : ٩٣ ، ٢٠١	١٨٢ ، ٣٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢
الاسكندرية : ٩٤ ، ٢١٠ ، ٢٣٦	بغداد : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
أصفهان (أصبهان) : ١٨٦	٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ،
إفريقية : ٨٠ ، ١٣١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩	٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ ،
الأنبار : ٣٩ ، ٧٣ ، ٧٥	١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١٢١ ،
الأندلس : ٢٢ ، ٦٠ ، ٩٤ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،	١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
٢٣٤ ، ٢٦٥	١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
أنقرة : ٨٢	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦١ ،
الأهواز : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٨٦ ، ١٩٢	١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
أوروبا : ٢٣٤	١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
إيران : ٦٣١ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٨٤ ،	٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
١٨٥	٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ،
	٢٦٠ ، ٢٥٨
الياء	بلاد بيزنطة : ٨١
باب الشام (ببغداد) : ٤١	بلاد عكّ (في الين) : ٩٥
بحر الخزر : ٢٢٨ ، ٢٢٩	بوصير : ٢٢ ، ٢٩

بين السورين (في بغداد) : ٤١

الخاء

خراسان : ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
٣٣ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ،
٧٥ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٩٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
١٤٤ ، ١٨٥

الخزر : (انظر بحر الخزر) .
الخليج العربي : ٩٤

الدال

دانق : ٥٣
دجلة : ٣٩ ، ٤٥ ، ٢٦٨
دمشق : ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٠١ ،
٢٤٤

ديار بكر : ٢٠٠
دير عاقول : ١٤٣
الديلم : ٥٨ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٣ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٢٨

الراء

الرُصافة (الشطر الآخر من بغداد) : ٤٥
الرَّوَّة : ١٧٧
الرُّها : ٢٣٦
الرُّي : ١٨٦ ، ١٨٩

التاء

تهامة : ٩٥
تونس : ٧٩ ، ٢٠٩

الجيم

جرجان : ١٣١ ، ١٥٢ ، ١٨٥
الجزائر : ٧٩
الجزيرة : ٢٠٠ ، ٢٠١
جزيرة ابن عمر : ٢٠٠
جنبلأ : ١٥٩
جُنْدُ يسابور : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٢
الجيزة : ٢١٥

الحاء

الحجاز : ١٧ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٩٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٢
حرّان : ٢٣٦
حلب : ٩٣ ، ١١٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٩
حمام : ٢٠٧

حمص : ١٦١
الحَمِيْمَة : ١٨٠
حي الكرخ (في بغداد) : ٤١
حيدرآباد : ٣٦٥

النزاي

الشَّامُ : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٥٩ ، ٦٦ ،
٩٧ ، ٩٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
١٦٦ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ،
٢٢٧ ، ٢٣٦
الشَّاسِيَّة (حي ببغداد) : ١٧٩ ، ٢٤٩ ،
شيراز : ١٨٩

الزَّاب : ٢٢

زَيْطَرَة : ١١٠

زَيْيد : ٩٥ ، ١٥١

زنجبار : ١٢١

الزوراء (بغداد) : ٣٩

السين

الصاد

صعدة : ١٥٢

صَقْلِيَّة : ٢١٥

صنعاء : ١٥٢

الصومال : ١٢١

الصين : ١٠١ ، ١١٤

سامراء (سر من رأى) : ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ،

سبام : ٥٤

سبته : ٢١٠

سجستان : ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٨٥ ،

سجلاسة : ٢٠٩

سُرْمَن رَأى : انظر سامراء .

السُّلْمِيَّة (سَلْمِيَّة) : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٠٧ ،

سمرقند : ٨٤ ، ١٤٣

سوريّة : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ،

١٦٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦

السوس : ٢٦٢

الطاء

طبرستان : ١٠٨ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٨٥ ،

١٨٦

طرسوس : ١٤٥

طوس : ٨٤ ، ٩٢

العين

العراق : ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ،

٨٦ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٥

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣١

الشين

الشاش : ١٤٣

القدس : ٨٣ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦

الكاف

كربلاء : ٥٦
الكرج : ١٨٦ ، ١٨٩
الكرخ (حي الكرخ في بغداد) ،
كرمان : ١٨٦
الكوفة : ١٧ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥٩ ،
١٨٨ ، ١٤٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٣٦

اللام

ليبيا : ٧٩

الميم

ماردين : ٢٠٠
ماوراء النهر : ١٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٨
١٤٣ ، ٢٦٣
المتوكية : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢
المختارة : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩
المدينة المنورة : ١٧ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٨٨

الفاء

فارس : ٥٣ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٨٦ ،
١٩٨ ، ٢٣٦
فجّ : ٥٦ ، ٦٥
الفرات : ٣٩
فرغانة : ١١٨ ، ١٤٣ ، ١٥٠
فرنسة : ٨٣
الفسطاط : ٢١٥
فلسطين ٢٢٥

القاف

قاسيون : ٢٤٩
القاهرة (المعزّية) : ٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧
قبرص (قبرس) : ٢٣٨

مراغة : ٢٤٩

النون

مَرَاش : ٢١٠ ، ٢٢٨

نجران : ١٥٢

مرو : ٢٠ ، ٥٣ ، ٩٢

نخشب : ٢٦٣

المشرق : ١٤٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٥

نصيبين : ٢٣٦

مصر : ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٨٠ ، ٩٤ ،

النهروان : ٥٥

٩٧ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

النيل : ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦

١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ،

الهاء

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،

الهاشمية : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،

هراة : ١٤٣

٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،

هرقلة : ٨٢

٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٦٨

هذان : ٩٦ ، ١٨٦

المغرب : ٦٠ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ،

الهند : ١٤٢

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٧ ،

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩

الواو

مكة المكرمة : ٣٤ ، ٥١ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨ ،

واسط : ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٥٩ ، ١٨٢

٩٤ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ٢٠٨

الياء

المهدية : ٢٠٩ ، ٢١٦

العين : ٢٣ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٣١ ،

الموصل : ١٤٧ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ،

١٣٤ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٩ ،

٢٠٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩

١٦٣ ، ٢٠٨

الموقية : ١٢٨

اليونان : ١١٠ ، ٢٥٤

المونية : ١٦٢

ثالثاً : المصطلحات

الألف	الأناصير : ٥١
الأناوات : ١٩٤	أهل الذمة : ١٠٥
الإخشيديون : ١٣١ ، ٢٠١	
الأدارسة : ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢١٠	الباء
الأزارقة : ١٢٣	البابكية (الخزمية) : ١٦ ، ١٩ ، ٣٤ ، ١٠٨ ، ٩٦
الإسماعيلية (السبعية - الوقفية) : ١٥٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩	الباقلانية : انظر الأشعرية .
الأشعرية (الباقلانية) : ٢٣٢ ، ٢٣٣	البشوق (سد البشوق) : ١٩٤
الاعتزال : ٢٢٩	البرامكة : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٢٦٢
الأفلاطونية الحديثة (الجديدة) : ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣	بنو الأغلب : ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ٢٠٩
الأقرباذين : ٢٤٦	بنو تغلب : ١٩٩ ، ٢٠٠
الأكراد : ١٦٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١	بنو ثقف : ٥٤
آل الجراح : ١٧١	بنو جفنة : ٨١
آل علي : ١٥ ، ٢٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨	بنو عبد القيس : ١٦٢
الألفة : ١٥٩	بنو العَلِيس : ١٦٠
	بنو هاشم : ٦٢
	البويهيون : ٤٢ ، ١٤٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩

١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ،

بيت الحكمة : ٦٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،

البيمارستان العضدي : ١٩٥ ،

البيمارستان الكبير : ٢٤٤ ،

البيمارستان المنصوري : ٢٦٩ ،

الدال

دار الحكمة : ٢٢٣ ،

دار العِلْم لسابور (في بغداد) : ٢٣٢ ،

دار العلم في حلب : ٢٠٤ ،

دار العلم في مصر : ٢٢٣ ،

الدارين (قصر سيف الدولة) : ٢٠٣ ،

٢٠٤

الدعوة العلوية : ١٧ ، ١٠٥ ، ٢٣٠ ،

الدولة الزيادية : ٩٥ ،

الدولة الزيارية : ١٥٢ ، ١٨٦ ،

الدولة الطاهرية : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

الدولة المقدونية : ١١٠ ،

الديلمة : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

التاء

التتار : ١١١ ، ١٢٩ ، ٢٤٩ ،

التلمود : ٢٤١ ،

الجيم

الجريدة (وهي الميزانية) : ١٧٧ ،

الراء

الراوندية : ١٦ ، ٣٤ ،

الزاي

الزط : ٩٤ ،

الزنادقة : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ،

٥٩ .

الزنج : ١١٠ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ،

١٦٥ .

الحاء

الحمدانيون : ١٥٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

الخطاط : ١٩٤ ،

الخاء

الخزمية : انظر البابكية .

الخوارج : ٢٩ ، ٥٨ ، ٧٩ ، ١٢٣ ، ١٣٧ ،

١٤٢ ، ١٦٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ،

الصاد	الزندقنة : ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ١٣٣ ، ١٣٧
الصابئة : ٢٣٦	الزركيون : ٢٢٧
الصفّارون : ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٦	الزبانية (انظر الدولة الزبانية) ،
الصليبيون : ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣	الزبانية (الدولة والإمارة) : ١٥٢ ، ١٨٦ ،
الضاد	الزبانية : ٥١ ، ١٢٢ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
الضمان : ١٩٣	الزبديون : ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
الطاء	السين
الطاهرية (انظر الدولة الطاهرية)	الساسانيون : ١٨٧
الطاهريون : ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤	السامانيون : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٢
الطولونيون : ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦٦	السبعية : انظر الإسماعيلية ،
العين	السبئية : ١٥٣
العيّارون : ١٣٦ ، ١٦٣ ، ١٩٦	سدّ البشور : ١٩١
عبد القيس (بنو عبد القيس)	السريانية : ٢٣٦
	السلاجقة : ٤٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣
	السند هند (كتاب) : ٢٤٠ ، ٢٤٩
الغبن	الشين
الغنوصيّة : ٢٣٠	الشطّار : ١٣٦ ، ١٦٣
القاء	الشعوبية : ٥٣
الفاطميون : ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ،	الشيعة : ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،	٨٨ ، ١٣٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،	٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،

رأيك بهما !

الرجاء ملء البيانات بعد قراءة الكتاب

- موضوع الكتاب: ☐ هام جداً ☒ هام ☒ غير هام
- الأفكار: ☐ قيمة ☒ مقبولة ☒ غير مقبولة
- الأسلوب: ☐ واضح ☒ مقبول ☒ غير مقبول
- الإخراج الفني: ☐ ممتاز ☒ مقبول ☒ غير مقبول
- الطباعة: ☐ جيدة ☒ مقبولة ☒ غير مقبولة
- ملاحظات الكتاب: ☐ جيدة ☒ مفيدة ☒ غير مفيدة
- إصدارات الدار: ☐ هامة ☒ مقبولة ☒ غير مقبولة
- متابعتك لها: ☐ دائماً ☒ أحياناً ☒ نادراً

اقتراحات:

.....

.....

.....

بنك القارئ النهم

عزيزي القارئ.. أملأ بيانات هذه البطاقة وأرسلها إلى عنوان دار الفكر ليتم تسجيلها في حسابك الخاص في بنك القارئ النهم، حيث يكون بإمكانك الحصول على نسخ مجانية من مطبوعاتنا تناسب طروداً مع اقتالك على قراءة مطبوعات دار الفكر.

البيانات الدقيقة

تساعدنا على خدمتك بالشكل الأمثل

الاسم الثلاثي:

تاريخ ومكان الولادة:

المهنة:

المؤهل العلمي:

الاهتمامات الفكرية والثقافية:

☐ علمية ☐ دينية ☐ أدبية ☐ تاريخية ☐

العنوان: الدولة المدينة

ص.ب:

الهاتف:

E-Mail:

الفاكس:

هل ترغب في الحصول على النشرات الإعلانية

بشكل دائم؟ ☐ نعم ☒ لا



بنك القارئ النعم

٢٢٠٣٩٨

دار الفکر

للطباعة والتوزيع والنشر



سورية - دمشق - ص.ب: ٩٦٢

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦ هاتف: ٢٢١١٦٦-٢٢٣٩٧١٧

المضريون : ١٧ ، ٢٤	٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
المعتزلة : ١٠٠ ، ١٠٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤١	٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
المقدونية (انظر الدولة المقدونية) ،	٢٣٢ ، ٢٣٣
المقدونيون : ٢٠١	الفتوة : ١٩٦
الماليك : ٢٥٩	الفراغة (أهل فراغة) : ١١٨
المنطق الأرسططاليسي : ٢٣٢ ، ٢٥٦	
المهالبة : ١٦	القاف
الموالي : ١٦ ، ١٨ ، ٤٥	القرامطة : ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
	١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
النون	١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
النبط : ١٥٥ ، ١٥٩	٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
النيروز العضدي : ١٩٥	٢٢٨ ، ٢١٧
	القيسية : ١٧ ، ٩٤
الهاء	
الهاشمية : ١٥ ، ١٥٣	الكاف
	كتامة (قبيلة) : ٢٠٨
الواو	الكسريون : ٢٧
الوقف : ١٦٩	كنيسة القيامة : ٨٣ ، ٢٢٣
الوقفية : (انظر الاسماعيلية)	الكيسانية : ١٥ ، ١٥٣
الياء	الميم
اليانية : ١٧ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧	المانوية : ١٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٢٤٠
اليونانيون : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،	المتصوفة : ١٤٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤	مرصد مراغة : ٢٤٩
	المزدكية : ٣٤ ، ٩٦ ، ٢٤٠

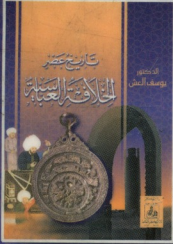
رابعاً : فهرس الموضوعات

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١٤٥	الطولونيون بمصر والشام	٥	المقدمة
١٥٠	الدولة الإخشيدية في مصر والشام	٨	بصادر تاريخ العهد العباسي
١٥٠	الدولة الزيدية في اليمن	١٤	الثورة العباسية وسقوط بني أمية
١٥١	الزيدية في طبرستان وجنوبي بلاد اليمن	٢٨	توطيد الحكم العباسي
١٥٢	الدولة الزيدية في اليمن	٤٢	نظام الحكم في العهد الأول العباسي
١٥٣	حركة القرامطة	٤٩	عصر المهدي والهادي
١٦٥	عودة سلطة الخلافة إلى حين	٥٥	الهادي
١٧١	تقهقر سلطة الخلافة مرة أخرى	٥٧	عهد الرشيد
١٨٠	خلافة القاهرة	٦٤	العهد الأول للرشيد
١٨١	خلافة الراضي	٧٩	العهد الثاني للرشيد
١٨٣	تقدم الحضارة العربية الإسلامية	٨٥	الصراع بين الأمين والمأمون
١٨٥	حكم بني بويه في العراق	٩٠	عصر المأمون
١٩٩	المحمدانيون	٩٨	تقلص سلطة الخلفاء العباسيين
٢٠٦	الفاطميون	١١٦	تضعف الخلافة العباسية
٢٢٨	آراء عامة عن عصر الحكم الشيعي	١٢١	ثورة الزنج
٢٣٤	تكون الثقافة الإسلامية العربية	١٣١	تليزعات الاستقلالية عن الدولة العباسية
٢٤٣	أثر العرب في العلم	١٤٢	الدولة الطاهرية
٢٥٧	الحضارة المادية في عصر الخلافة العباسية	١٤٣	الصفازون
			الإسماعيليون في بخارا

History of Abbaside Caliphate Period

Tārīkh 'Asr al-Khilāfah al-'Abbāsīyah

By: Dr. Yūsuf al-'Ishsh



كتاب يضم تاريخ عصر الخلافة العباسية، منذ بدء الدعوة العباسية في خراسان، وسقوط بني أمية، وحتى حكم بني بويه، وقيام الدولة الحمدانية، والدولة العبيدية الفاطمية، مروراً بعهد المهدي والهادي، وبعصر الرشيد والمأمون.

ولم يغفل المؤلف النزعات الاستقلالية عن الدولة العباسية، كالدولة الطاهرية والصفوانية والسامانية والطورونية والإخشيدية والزيرية والزيدية، وحركة القرامطة وثورة الرنخ.

وأولى المؤلف اهتماماً خاصاً بتقدم الحضارة العربية الإسلامية في عصر الخلافة العباسية التي تمثل العصر الذهبي لحضارتنا الإنسانية، فتكلم عن أثر العرب ودورهم في التقدم العلمي، في الطب والصيدلة، والرياضيات والفلك، والتاريخ والجغرافية. مع شهادة العلماء الغربيين بدور هذه الحضارة الفاعل في التقدم العلمي العالمي.

وبذلك.. فإن كتاب (تاريخ عصر الخلافة العباسية) يقدم الكثير الطيب عن تاريخ العباسيين وحضارتهم.

Dar Al-Fikr

414S. Craig St. #269
Pittsburgh, PA 15213
USA

Phone: (412) 441-7768

Fax: (412) 441-8198

e-mail: info@fikr.com

http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-318-6



9 781575 473185